التربية والحضارة

التربية عند بنى اسرائيل

دكتور / سعيد اسماعيل على

١٩٩٧

ظهر فى هذه السلسلة .

١- مقدمة فى التأريخ للتربية .
٢- التربية والحضارة فى بلاد الشرق القديم .
٣- التربية فى الحضارة اليونانية .
٤- التربية فى الحضارة المصرية القديمة .
٥- التربية العربية فى العصر الجاهلى .
٦- التربية عند بنى اسرائيل .

مقدمة

في دراسة لي نشرتها مجلة كانت تصدر باسم (الفكر المعاصر) فى أوائل عام ١٩٧١ ، وكان د. فؤاد زكريا يرأس تحريرها بعد انتقال مؤسسها د. زكى نجيب محمود للعمل بجامعة الكويت ، كان عنوانها (أزمة الفكر التربوى فى مصر المعاصرة) كان من مظاهر الأزمة التى شخصتها غفلة الفكر التربوى فى بلدنا عن الوعى بقضية التحدى الصهيونى للأمة العربية بحيث يجعل من التعليم فى الدولة الصهيونية (اسرائيل) موضوعاً للعديد من الدراسات من زوايا مختلفة .

ولكم أشعر بكثير من الأسى والأسف أن يَمر على هذه الدراسة أكثر من خمس وعشرين عاماً ، ولا يزال الحال كما هو عليه ، باستثناء عدد لا بأس به من رسائل الماجستير والدكتوراه تمت فى قسم أصول التربية بتربية عين شمس .

وإذا كانت المنطقة العربية قد بدأت تعرف الطريق إلى ما يسمى (بالسلام) منذ اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٩ بعد أن نجحت قوى الإمبريالية الأمريكية والصهيونية العالمية فى ايقاع مصر فى شباكها لتحيدها فى قضية الصراع ، ثم تشتد (الهرولة) إلى العدو بعد أن وَقع الطرف الرئيسى (الفلسطينى) اتفاقية أوسلو عام ١٩٩٣ ، أملاً فى سلام موهوم ، نقول إذا كان كل هذا قد حدث ، فإنه لا يعنى بأى حال من الأحوال أن (الصراع) قد انتهى، فالصراع لا يعنى فقط تبادل اطلاق النار والحرب الساخنة فمازالت الوقائع تبرهن كل يوم على أن (الآخر) يتعامل معنا من منطلق (المقاتل) ، بأسلحة أخرى ربما أشد ضراوة من أسحلة الحرب والدمار ، إنها أسلحة السياسة والاقتصاد والثقافة والتعليم .

ومعنى هذا أن تظل الحاجة ماسة إلى دراسة هذا (الآخر) ، كل فى دائرة اختصاصه ، حتى ولو فرضنا جدلا – وهو مستحيل بالنسبة لكاتب هذه السطور – أننا قد أصبحنا أصدقاء معه ، فإن منطق الصداقة نفسه يوجب

حسن التعامل ، وحسن التعامل يفرض (المعرفة) بالطرف الصديق ، فما بالنا لو كان هذا الطرف يوهمنا بأنه أصبح صديقاً ، بينما هو يسلك على أرض الواقع سلوك العدو الحقيقى ؟!

وهكذا برزت لى الحاجة إلى دراسة تاريخ التربية عند هؤلاء القوم خاصة وأن القارئ سوف يتبين أن هذه التربية التى نشأت قبل الميلاد بعدة قرون ما تزال فاعلة حتي اليوم ، وتعتبر (مذكرة تفسيرية) لهذا الذى يفعلونه مع أنفسهم ومعنا ومع الآخرين

سعيد اسماعيل على

الفصل الأول

الأصول التاريخية

تاريخ بنى إسرائيل تاريخ تربيتهم :

صحيح أننا كثيراً ما نؤكد فى كتاباتنا على أن الإنسان فى سلوكه إنما هو محصلة مجموعة من الخبرات التى مر بها مما يحتم الدراية الواعية بتطور هذه الخبرات حتى نفهم سلوكه ، وهذا يعنى أهمية (التاريخ) - على المستوى الفردى - فى تحديد الحاضر ومن ثم المستقبل...

وصحيح كذلك - على المستوى الجماعى - أننا نؤكد أن تاريخ الأمة هو "ذاكرتها" وأنه بالقدر الذى تعى فيه الأمة هذا التاريخ بالقدر الذى تكون أقدر على فهم مكوناتها ومقوماتها وخصائصها مما يعينها على البصر بمعالم الطريق حاضراً ومستقبلاً .

ومع ذلك فما من مرة تناولنا فيها تاريخ مرحلة تعليمية ، وتعليم مرحلة تاريخية ، أو تحليل شخصية كانت ذات أثر بالغ فى المسيرة الحضارية إلا وأنفقنا جهداً كبيراً حتى نقنع المستمع أو القارئ بأهمية هذا التأريخ .

وكان رد الفعل المقابل ، إن تصريحاً أو تلميحاً أن ما مضى قد مضى وأن من الأولى أن نوجه عنايتنا إلى حاضرنا ومستقبلنا .

كنا نشعر بمقاومة لا شعورية لدى المستمعين بصفة خاصة ونحن نتناول صفحات من تاريخ التربية والتعليم وتكون درجة المقاومة مرتبطة بدرجة البعد أو القرب بالنسبة للفترة التى نتحدث عنها .

وهكذا تكون المقاومة بسيطة إذا كان الموضوع هو تاريخ التعليم فى مصر فى القرن العشرين ، مثلا ، حتى إذا رجعنا إلى الوراء أكثر ، زادت

المقاومة ، فـإذا مـا تناولنـا العصـر القديـم ظهـرت علامـات الاسـتياء وإن لـم يصرح بها !

لكننا هنا ونحن مقدمون على التأريخ للتربية عن بنى إسرائيل نجد أنفسنا فى موقف آخر !!

صحيح أنها تربية تتعلق بأكثر من ثلاثة آلاف عام مضت ، لكنها تربيـة من نوع خاص ..

إن قولنا أنها " مضت " قول غير دقيق حقا !

ربما جاز القول أنها مضت من حيث " الزمـان " ، لكنهـا مـازالت حيـة تسعى فى المكان .. حيث يوجد يهود !

نحن المصريين – مثلا – تناولنا تاريخنـا فـى عصـر الفراعنـة ، فضـلا عـن الواجـب العلمـى مـن حيـث التسـجيل والتـأريخ ، يحدنـا قـدر مـن الفخـر والإعجـاب بأسـلاف مضـت بهـم القـرون ولـم يعـودوا يعيشـون فـى فكرنـا ووجداننا ويوجهوننا .

لكن بالنسبة لليهودى ، فالأمر ليس كذلك .

إن التاريخ – تاريخهم بالذات – هـو الأسـاس والعمـود الفقـرى لتربيتـه الآن وقبل الآن .. وفى أى مكان .. وفى أى زمان ..

ليس تاريخ اليهود بالنسبة لهم مجرد صفحات "مضـت" يقلبونهـا للاتعـاظ والدرس ، وإنما هى مؤشرات لما ينبغى أن يكون عليه الحاضر والمستقبل..

عندما يكتب كاتب أو يقـول متحـدث – مثـلا – مشـيدا بعصـور الإسـلام الزاهية ويلح على الاقتداء بالسـلف "الصـالح" والعـودة إلـى الجـذور ، تنطلـق أصوات عدة صارخة ، .. صائحة .. إن ما مضى قد مضى ولا نريد عـودة إلى الوراء ..

لكن اليهود ليسوا كذلك !

كلما كتب كاتب أو قال متحدث بضرورة "الإحياء" سمع تصفيقاً وتهليلاً وترحيباً ، وخلعت عليه أروع النعوت !

وعلى هذا فإن تناولنا في الصفحات التالية لتاريخ بني إسرائيل ليس مجرد عملية "تسجيل" و "تأريخ" وإنما تفتيش عن "جذور" أساسي من جذور تربية هؤلاء الناس ..

إنها إذن قراءة للحاضر .. من خلال الماضي ..

إنها تنبيه إلى ما قد يجئ به المستقبل .. من خلال استقراء للماضي!

وقد توقف المفكر الفرنسي الكبير " جوستاف لوبون " بعض الشئ أمام هذه الظاهرة ، ظاهرة التأثير الكبير الذي مارسه التاريخ اليهودي لا على اليهود وحدهم ، بل على علماء ومفكرين كبار: "نعم إن الشعب اليهودي لم يكن غير ذي نصيب ضئيل جداً في شيد ذلك البناء القديم ، غير أن القرون بلغت من تجسيم شأنه الظاهر ما لا تبصر معه سوى أناس قليلين ، حتى بين أشد الناس ارتياباً ، تحرروا من سلطان الماضي فاستطاعوا أن يضعوا بني اسرائيل في مكانهم الصحيح" (١).

ومن هنا يشير "لوبون" إلى انبهار مفكر فرنسي آخر مثل "ارنست رينان" بالتاريخ اليهودي إلى الدرجة التي جعلته يكتب قائلا "لا يجد صاحب الروح الفلسفية ، أي الذي يبالي بالأصول ، غير ثلاثة تواريخ ذات نفع من الطراز الأول في ماضي البشرية وهي : تاريخ اليونان وتاريخ بني اسرائيل وتاريخ الرومان ، فمن هذه التواريخ الثلاثة يتألف ما يمكن تسميته بتاريخ الحضارة ، ما دامت الحضارة نتيجة تعاون متعاقب بين اليونان واليهودية وروما " (٢) .

من هنا بدءوا

ينتسب بنو اسرائيل إلى يعقوب بن إسحق بن ابراهيم ، مما يتطلب أن نعود بعملية التأريخ إلى إبراهيم ...

فى العراق ، وعند مشارف وتخوم الجزء الجنوبى منه وحوالى القرن الخامس والعشرين قبل ميلاد السيد المسيح كانت صحراء الجزيرة العربية قد قذفت من أحشائها أفواجاً من البشر على دفعات متلاحقة تعبر البادية والصحراء موجة إثر موجة ، تقصد منطقة الهلال الخصيب [٣] .

وحوالى عام ١٨٠٠ ق.م ، كانت مجموعات من الرعاة الرحل ، والمنتسبة تاريخيا لبعض هذه الأفواج التى هاجرت من الصحراء إلى منطقة الهلال الخصيب قد استطاعت أن تستقر وأن تنتشر فى العراق لتؤلف دولة يذكرها التاريخ باسم دولة "الكلدانيين" قامت تاريخيا على أساس من علاقات الصراع والقهر اليومى ووسط هذا المناخ ، نشأ النبى إبراهيم عليه السلام[٤].

وكما أوردت التوراة ، فهو إبراهيم بن تارح بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح ![٥].

ولقد حكت بعض إصحاحات سفر التكوين قصة نزوح إبراهيم إلى أرض كنعان - فلسطين بأسلوب يكتنفه شئ من الغموض والتناقض ، مهما حاول مفسرو الأسفار أن يجدوا له تأويلاً [٦] .

وقد ناقش "القمنى" هذه القضية بالتفصيل مشيرا إلى المواضع التى قيل أن أصول قبيلة إبراهيم ترجع إليها وهى "أور الكلدانيين" و "أرام النهريين" و " فدان أرام " و "حاران" ، فإذا استثنينا الأولى ، فسوف نجد أن الثلاثة ، كلها مناطق تقع شمالى بلاد الشام ، وشمال غربى العراق أما الأولى فهى فى جنوب العراق ! [٧]

وقد ذهب القمنى إلى أن اللفظة (أور UR) تدل على معنى المدينة بوجه عام ، فإضافة إلى (أور) الرافدية التى نسبتها التوارة للكلدانيين ، واكتشف تاريخها العريق حديثاً فى أطلال مغير قرب مصب الفرات فى الخليج العربى ، هناك (أور) أخرى متعددة [٨] .

وتأسيساً على ما أورده باحثنا وإعمالاً لمجموعة القرائن التى توصل إليها ، فان إبراهيم لم ينطلق من (أور الكلدانيين) فى جنوب العراق ، متجها إلى (حاران) فى أقصى الشمال ليعود مرة أخرى جنوباً نحو كنعان ،

إنما ستتسق الأمور – وفق طرحه – وتنضبط فيغادر النبى منطقة (أربكسد) المعروفة حاليا باسم (البك) جنوب غربى أرمينيا ويتجه إلى بلاد الحور أو (حاران) وتصبح حاران بذلك محطة ترانزيت منطقية فى الطريق إلى كنعان ، ومن ثم تكون العشيرة الإبراهيمية وافدة على المنطقة من جنوب أرمينيا[٩].

والحق أننا لسنا فى موقع يتيح لنا الفرصة فى ترجيح هذا الرأى على غيره الشائع والمتداول بين جمهرة الباحثين وذلك لسببين :

أولهما – أننا لا ننسى مهمتنا الأساسية فى التأريخ لتنشئة الشخصية اليهودية من خلال النشأة التاريخية . ومن ثم فليس من مهامنا التحقيق فى الوقائع التاريخية ولا نملك القدرات اللازمة لذلك ، ومن ثم نضطر للاعتماد على ما يتفق عليه جمهرة الباحثين .

ثانيهما – أن التأريخ التربوى يهمه بالدرجة الأولى ما قد استقر فى وعى اليهود أنفسهم لأنه هو الذى أثر فى تكوين شخصيتهم ، أما التحقق من مدى الحقيقية فى أسس هذا ، فهو مطلب هام وضرورى ، لكنه مهمة المؤرخين المتخصصين .

وفى الوقت الذى ذهب فيه "القمنى" إلى أن أصل إبراهيم من أرمينيا وبالتالى فهو ليس عربيا ، يذهب كمال الصليبى إلى أن الأصل هو فى الجزيرة العربية [١٠].

وكما ذكرنا من قبل ، فمع أن بنى اسرائيل عرفوا بهذه التسمة نسبة إلى يعقوب أبيهم ، إلا أنهم يرجعون إلى جدهم الأكبر إبراهيم ، وكان من المفروض – على هذا الأساس – أن تكون الوعود التى أعطاها الرب لنسل إبراهيم ، حسب ما جاء فى الكتب الإسرائيلية ، ملكا لكل أبناء إبراهيم ، على أساس قواعد الميراث الإسرائيلية نفسها . ومع ذلك فنحن نجد أن اسحاق – ابن سارة – هو الوارث الوحيد لابراهيم ، مع حرمان إخوته السبعة من الميراث [١١] .

كان لإبراهيم ثلاث زوجات ، فهو تزوج سارة العبرانية التى أنجب منها إسحاق ، كما دخل على هاجر المصرية التى أنجبت له إسماعيل ، وتزوج

كذلك امرأة من أهل مدين اسمها "قطورة" ، فولدت له زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا ، هؤلاء - بحسب ما جاء في الروايات الإسرائيلية- هم أبناء إبراهيم الثمانية (١٢).

ومع الآلهة العديدين الذين نسبتهم التوراة إلى (الآباء) فأن كتّاب التوراة حرصوا على تأكيد ملكية أرض كنعان بوعد من (الرب) لإبراهيم ، حتى ليحار المرء : أى رب هذا ؟! ولماذا كان حرص (الأباء) بعد ذلك على الهجرة إلى مصر دون التمسك بوعد الله (١٣)؟!

" قال الرب لأبرام - بعد اعتزال لوط عنه - ارفع عينيك ، وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، لأن جميع الأرض التى أنت ترى ، لك أعطيتها ، ولنسلك إلى الأبد ، قم امش فى الأرض طولها وعرضها ، لك أعطيها " (١٤) .

ومن ظاهر لفظ "انظر" و "التى أنت ترى" لا تتجاوز الملكية كيلو متراً مربعاً ، لكن ما لبث الوعد أن ارتبط بالمشى فى الأرض طولها وعرضها مما يستدعى امكانية (المرعى) ، ثم يتسع المفهوم ، على تطور أحلام كتاب التوارة إلى أن "قطع الرب مع أبرام ميثاقاً ، قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير ، نهر الفرات"(١٥) .

كيف وجد اليهود فلسطين التى هاجر إليها ابراهيم (١٦)؟ وجدوها أرض كنعان أساساً ، نسبة إلى سكانها الكنعانيين ، والكنعانيون فى التوارة أبناء كنعان بن حام بن نوح ، وهم أول من سكن فلسطين على أرجح الآراء .

وإلى جانب الكنعانيين فى فلسطين ، كان ثمة كوكبة أخرى من القبائل السامية الصغرى كالايدوميين والعمونيين والمؤابيين على تخوم أرض كنعان، خاصة حول جنوب البحر الميت . وثمة كذلك كان العموريون بعيداً إلى الشمال (١٧) .

ولما نزح إبراهيم إلى أرض كنعان (فلسطين) ، لقبه الكنعانيون بالعبرانى ، اذ جاء فى التوارة : "فأتى من نجا (فى الحرب مع الكنعانيين) وأخبر أبرام العبرانى ... وكانوا أصحاب عهد مع أبرام"(١٨). وربما كان ذلك

نسبة إلى جده "عابر" ، أو ربما كان ذلك لأنه عبر نهر الفرات إلى أرض كنعان . وقد ظل اليهود بعد ذلك معروفين بالعبرانيين [١٩] .

ويرى "ولفنسون" أن هذين الاحتمالين مرفوضان لأن كلمة عبرى فى الواقع لا ترجع إلى شخص بعينه أو حادثة معينة و إنما هى ترجع إلى الموطن الأصلى لبنى اسرائيل ، وذلك أن بنى اسرائيل كانوا فى الأصل من الأمم البدوية الصحراوية التى لا تستقر فى مكان ، بل ترحل من بقعة إلى أخرى بإبلها وماشيتها للبحث عن المرعى والماء[٢٠] .

وكلمة (عبرى) فى الأصل مشتقة من الفعل الثلاثى (عبر) بمعنى قطع مرحلة من الطريق أو عبر الوادى أو النهر من عبره إلى عبره أو عبر السبيل شقها ... وكل هذه المعانى نجدها فى هذا الفعل سواء فى العربية والعبرية وهى فى مجملها تدل على التحول والتنقل الذى هو من أخص ما يتصف به سكان الصحراء وأصل البادية ، فكلمة عبرى مثل كلمة بدوى أى ساكن الصحراء والبادية [٢١] .

ثم قرر إبراهيم هو ومجموعات من الذين واصلوا الرحلة معه ومن الذين انضموا إليه إيمانا به وأيضا بقصد الحاجة ، حيث يوجد الحيوان والمرعى ، أن يتجه إلى مصر ، والقوم جميعاً فى سيرهم : الذين آمنوا وعمل الإيمان فيهم عمله والذين تأثروا والذين استجابوا لحركة الهجرة فى حد ذاتها ، أسلموا زمام أمرهم لما يقصده إبراهيم من أن يتجه إلى الجنوب فى مسيرته ليدخل مصر تخلصا من الجدب الذى أصاب البادية كلها بالقحط والكساد والجفاف حيث ساءت الأحوال الاقتصادية بشكل تعذر معه أن تنتظم حياة جماعات البدو الرحل الذين يعبرون البادية والصحراء طلباً للحياة والاقتصاد ، فاتجهت جموع ركب إبراهيم تقصد الحياة فى مصر[٢٢] .

وبعد فترة استقرها إبراهيم فى مصر ، هاجر منها هو وقومه ، ولكن شيئا هاماً كان يحدث فى معظم الهجرات ، ذلك هو الانعزالية التى كانت طابع الوافدين الجدد : لقد رأينا الكنعانيين يختلطون بالفلسطينيين، ورأينا الساميين الذين هاجروا إلى مواقع الخصب فى الشمال يمتزجون بسكان الشمال ، أما العبرانيون ، فقد عاشوا وحدهم وآثروا العزلة منذ هاجروا من

أور الكلدانيين. قد يكون السبب فى ذلك أنهم كانوا يرفضون عبادة الأصنام ، فى حين كانت الأصنام هى معبودات الكلدانيين ، فاعتزلهم إبراهيم ومن آمن معه ، ولكن العزلة أصبحت طابع العبرانيين حتى عندما انحرفوا وعادوا أو عاد أكثرهم إلى عبادة الأصنام . كانت العزلة طابعهم فى أرض كنعان ، وكانت طابعهم فى مصر بعد ذلك بسبب ارتباط العبرانيين بالحكام المستعمرين فى مصر (الهكسوس) ، وبالتالى نظر الشعب لهم نظرة ريبة ، فلم يتم اختلاط بين هؤلاء وأولئك . ثم إن البون كان شاسعاً بين العقليتين ، فالعبرانيون كانوا قوماً بدواً لا ثقافة لهم ، نزلوا بين أقوام لهم تاريخ ولهم حضارة ، فلم يكن من السهل الاندماج بين الطائفتين . ثم أصبحت العزلة تقليداً يهودياً لا محيد عنه ، وترتب على هذه الانعزالات مجافاتهم لمن حولهم فى جميع مراحل التاريخ واعتبارهم من حولهم من الأمم أعداء لهم(٢٣).

من اسحق إلى يوسف

واذا كانت هاجر الجارية المصرية قد ولدت لإبراهيم ابنه اسماعيل، فإن سارة أنجبت له - من بعد أربعة عشر عاماً - ابنه الثانى اسحق .

وقارئ التوارة يستطيع أن يلمس الانحياز الواضح نحو (إسحاق) ابن سارة وتجاهلا لاسماعيل ابن هاجر وهى محاولة لسحب البساط من تحت النسل الاسماعيلى لتكون أرض كنعان خالصة لبنى اسرائيل أحفاد اسحاق أخو اسماعيل بمبررات لا معقولة مثل : غيرة النساء وصراع الميراث والبنوة للأمة أم للحرة ، وخضوع الرب التوراتى ونبيه لمثل هذه الترهات(٢٤).

وهكذا لم يورد كاتب الجزء الذى جاء فيه هذا الشأن أية إشارة لجزيرة العرب ، وفى ذات الوقت تعمد إهدار وضع اسماعيل لكونه ليس خالص العبرية ، وشابت دمه المصرية ، ولكن ما لا يفوت باحثاً مدققاً، أن هذه الأحداث جميعاً قد تتالت بعد خروج النبى إبراهيم من مصر على طريق غزة (طريق جرار) وأنه عندما خرج من مصر - حسب الرواية التوراتية - يمم نحو الجنوب ، ولا جنوب فى هذه الحالة إلا جزيرة العرب ، هذا إلى أن

إبراهيم قد بّدل اسمه من (إبرام) إلى (إبراهيم) وبّدل اسم زوجته من (ساراى) إلى (سارة) مما يشير إلى سكنى إبراهيم وزوجته بعض الوقت بين قوم لحنوا فى اسمه واسم زوجته ، فتغير نطقه فى لسانهم من (إبرام) إلى إبراهيم ومن ساراى إلى سارة (٢٥) .

وقد رزق إسحق بولدين ، أحدهما دعى اسمه "عيسو" والثانى "يعقوب" وكانت الأم تميل أكثر إلى يعقوب فاستطاعت أن تدبر ما من شأنه أن يبارك إسحق يعقوب .

وتزوج يعقوب من أربعة إناث ، ولدن له إثنا عشر ولداً وهم "الأسباط" : لؤبين - شمعون - لاوى - يهوذا - دان - نفتالى - جاد - أشير - يساكر- زبولون - يوسف - بنيامين (٢٦) .

وقد تسمى يعقوب باسم (اسرائيل) ، وهو الأسم الذى أصبح ينتسب إليه اليهود حتى الآن .

وفى الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين خبر سكنى يعقوب فى غربة أبيه فى أرض كنعان ثم إخبار يوسف أباه بريبة شنيعة شهدها من بعض إخوته بينما كان يرعى الغنم معهم دون إيضاح لهذه الريبة "الشنيعة" . ثم تطرق إلى تسجيل حب يعقوب ليوسف أكثر من سائر بنيه وصنعه قميصاً موشى له وبغض أخوته له حتى لم يكونوا يسلمون عليه نتيجة لذلك . ذكر قصة حلم يوسف ورؤياه الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدةً له ، مما زاد فى حسدهم وبغضهم له وجعلهم يتآمرون على قتله ثم يلقونه فى بئر فارغة لا ماء فيها ونزعهم عنه قميصه الموشى ، وبيعهم إياه لقافلة متجهة إلى مصر ، وذبحهم تيساً وغمسهم القميص بالدم وقولهم لأبيهم إنا وجدنا هذا القميص بهذا الشكل وقول يعقوب إنه قميص يوسف وإن وحشاً ضارياً افترسه وحزنه العميق على هذا ، وبيع يوسف بعد ذلك لقوطيفار رئيس شرطة فرعون.

ومهما يكن من أمر هذه القصة ففيها يسجل بنو اسرائيل الذين أثبتوها في مدوناتهم صورة جديدة من صور الأنانية القاسية من أخوة لأخيهم بواقع الحسد والغيرة مهما كان فيها من قسوة وأذى وخديعة بعد ما سجلوا مثل هذه الصورة من يعقوب لأخيه عيسو[٢٧] .

ولقد كان هذا وظل من مظاهر أخلاق بني اسرائيل والذين اعتنقوا اليهودية من غير جنسهم ، والمتبادر أنه كان لهذا التسجيل أثر عميق في ذلك.

وقد استطاع يوسف أن يصبح مديراً لخزائن الطعام بمصر ، وهو منصب يماثل منصب وزير التموين في الوقت الحاضر . وقد هيأ هذا المنصب السبيل ليعقوب وأولاده أن يرحلوا إلى مصر فراراً من الجوع الذى عم بلادهم مثلما حدث لإبراهيم [٢٨] .

وكان السلطان بهذه المناطق لا يزال في أيدى الرعاة العماليق (الهكسوس) الذين كثيراً ما خلت تصرفاتهم من الولاء لمصر وشعبها ، إذ كانوا غاصبين للسلطة فيها ، وكانت حركات المواطنين لا تفتأ تعمل للإيقاع بهم ، ثم كان من تحفظ العماليق أن يتعاونوا مع غير المصريين، ويبدو ذلك مما ذكرته التوارة من أن فرعون الهكسوس أغرى أخوة يوسف أن يحضروا إلى مصر ووعدهم بالغنى والثراء قائلاً لهم : خذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا إلى فأعطيكم خيرات أرض مصر وتأكلوا دسم الأرض . خذوا لكم من أرض مصر عجلات لأولادكم ونسائكم واحملوا أباكم وتعالوا . ولا تحزن عيونكم على أثاثكم لأن خيرات جميع أرض مصر لكم [٢٩] .

وليس هناك من دليل قاطع يحسم لنا تاريخ الفترة التى كان فيها اليهود في مصر ومتى بدأت على وجه التحديد ؟

ونحن نميل مع (طعيمه)[٣٠] ، إلى أنه في الفترة التى صحبت قدوم الهكسوس إلى مصر سنة ١٧١٠ ق.م بدأت بعدها هجرات متعددة لأجناس وأقوام من قلب صحراء آسيا وبطنها في حالة طرد بشرى من جدب الصحراء إلى حيث توجد الأنهار وتستقر الشعوب ، فليس من المستبعد ، أو

غير المألوف أنه بعد أن ساءت الأحوال الأقتصادية نتيجة للجدب المعروف الذى كان قد حل بالأرض كلها ، فى هذه المرحلة ، وكان الهكسوس قد استطاعوا أن يدبروا أمر أنفسهم ، وأن يحيوا الاقتصاد المصرى ولا يتعرضوا لأخطار المجاعة ، أن قدمت أقوام متعددة ، قبائل وجماعات ، من بينها قبيلة (يعقوب) الذى كان من أبنائه من كان قد وصل بالفعل إلى مصر ، وعليها فلا نستبعد أن الأباء الأول للعبرانيين والاسرائيليين - قبيلة يعقوب بن اسحق بن إبراهيم الذى نشأ حوالى سنة ١٨٨٠ ق.م بالعراق - أن تكون قد جاءت إلى مصر حوالى سنة ١٦٠٠ ق.م ، أى بعد مائتين من السنين منذ نشأة إبراهيم وهى فترة معقولة فى تقدير عمر الأجيال الثلاثة من أبناء أبراهيم أى أنه بعد ١١٠ أو ١٣٠ سنه حسب تقدير من يرى من المؤرخين أن بداية سيطرة الهكسوس على مصر كان سنة ١٧٣٠ ق.م(٣١) .

وخلال وجودهم فى مصر ربطوا مصالحهم بوجود حكام مصر من المستعمرين الهكسوس وأنشبوا مخالبهم فى الاقتصاد المصرى ، واتسع نفوذهم فى مجالات مختلفة ، فلما انتصر المصريون على الهكسوس نقم الحكم الوطنى عليهم ، لأنهم أثروا على حساب المواطنين المغلوبين على أمرهم ، وتآمروا على المستعمر ضد أصحاب الأرض ، ولم يشاركوا فيما يباشره المصريون من أعمال البناء وفلاحة الأرض . وحينما كانت الشدائد تنزل بالبلاد استغلوها لإضعاف معنويات الشعب ، وضيقوا عليه وسائل العيش ، ومن ثم أحس اليهود فى ظل الحكم الوطنى بأن دولتهم إلى زوال ، فأخذوا يجمعون أموالهم، ويستعدون للإفلات بمكاسبهم ، لكنهم تجاوزوا وطمعوا فيما يملك المصريوين من الذهب ، ونهبوا خزائن القمح فى المنطقة التى تمركزوا فيها بإقليم الشرقية (٣٢) ، إذ صدرت إليهم أوامر الرب : "إنكم لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ، ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة ، وأمتعة ذهب وثيابا ، وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين"(٣٣).

موسى .. والخروج الكبير :

ويبدو أن اليهود كانوا قد اعتادوا حياة الدعة والرخاء ، منذ أيام يوسف، فلما تغيرت الحال نوعاً ورأى الفراعنة ضرورة اشتراك اليهود فيما كان يبذل في البلاد من جهود نحو التنمية فى الزراعة وأعمال البناء وتشييد التماثيل والمعابد وما إلى ذلك ، عدوا ذلك عنتا لا يطيقون احتماله وبدأوا يتذمرون . وفى تلك الأثناء ولد موسى . وليس هناك اتفاق فى الرأى حول الأسرة التى ولد فيها موسى (٣٤) .

واذا كان أقصى ما حققه يعقوب لبنى اسرائيل هو أنه حصل على لقب (اسرائيل) بعد مصارعته لشخص مجهول ، واذا كان يوسف الذى صار وزيرا لملك مصر أتى بقبيلة اسرائيل ، ولم يكن عدد أفرادها يزيد عن سبعين رجلا ، لتسكن أرض (جاسان) ، على الحدود المصرية ، فإن موسى هو الذى أخرجهم من مصر بعد أن جعلهم شعباً. ومع أن بنى اسرائيل ارتدوا فى غالبيتهم عن الديانة الموسوية بعد موته إلا أن موسى أصبح هو المحور الرئيسى للديانة اليهودية التى أقامها الكهنة فى القرن السادس ق.م ، بعد موته بثمانية قرون (٣٥) .

وتذكر التوراة عن ولادة موسى أن أمه أخفته هرباً من الأمر الذى أصدره فرعون بقتل كل المواليد العبرانيين الذكور خوفاً من السطوة المتزايدة لهذه الفئة الدخيلة وبعد ثلاثة شهور وضعته فى سفط ودفعت به على الحلفاء على حافة النهر حتى رأته ابنة فرعون فانتشلته وتمت تنشئته فى قصرة (٣٦) .

ويحكى لنا يوسيفوس المؤرخ اليهودى الذى عاش فى القرن الميلادى الأولى أن واحداً من الكتبة ، فى مصر القديمة ، من أولئك الذين كانوا يتنبأون ، أخبر الملك بأنه ، فى ذلك الزمان ، سيولد طفل لبنى اسرائيل سوف يعرض مستقبل الأسرة المالكة المصرية للخطر ، ولكنه هو سيصبح عظيماً وتعيش ذكراه عبر العصور .

وكانت هذه النبوءة السبب الذى جعل الملك المصرى يخشى ميلاد هذا الصبى ، ولذلك طلب من الدايات ، إن كان المولود ولداً أن يقتلنه ، ولكن الدايات لم ينفذن وصية فرعون ، وبالطبع فإن موسى نجا من الموت عند مولده [٣٧]

وأول ما يثير اهتمامنا فى شخصية موسى ، هو اسمه الذى يكتب بالعبرية "موشيه" ، فالأنسان قد يتساءل : من أين جاء هذا الأسم ؟ وما معناه؟ وكما نعرف جيداً فإن الإصحاح الثانى من سفر الخروج يجيب عن هذا السؤال ، فنحن نعرف منه أن الأميرة المصرية التى أنقذت الطفل موسى من مياه النيل أعطته هذا الأسم وقالت " لأننى سحبته من الماء" ، ولكن هذا التفسير لا يكفى ، فإن تفسير التوارة للإسم بأنه "ذلك الذى سحب من الماء" ما هو إلا اشتقاق شعبى من اللغة العبرية ، ومن المستبعد أن نفترض فى الأميرة المصرية معرفة اللغة العبرية [٣٨].

ولفت (برستيد) الأنظار إلى أن "موسى" كان اسما مصريا ، بل هو نفس الكلمة المصرية القديمة "مس" ومعناها "طفل" ، وهى مختصرة من اسم مركب كامل كالأسماء "أمن مس" ومعناه "آمون الطفل" أو "بتاح مس" ، ومعناه " بتاح طفل" ، وهذه الأسماء المركبة نفسها هى الأخرى مختصرات للتركيب الكامل "آمون (أعطى) طفلا" أو بتاح (أعطى)طفلا". وقد لقى اختصار الأسم إلى كلمة "طفل" قبولاً منذ زمن مبكر ، إذ كان سريع التداول والتناول بدلا من الأسم الكامل الثقيل[٣٩].

على أن الأسم "مس" (طفل) نجده كثير الانتشار على الآثار المصرية القديمة ، ولا شك فى أن والد "موسى" كان قد وضع قبل اسم ابنه اسم إله مصرى مثل "آمون" أو "بتاح" ثم زال ذلك الإسم الإلهى تدريجياً بكثرة التداول حتى صار الولد يسمى "موسى" .

وقد أصدر فرويد كتاباً باسم "موسى والتوحيد" Moses and Monotheism اقتبس فيه حديث "برستيد" معلنا دهشته أن برستيد فى ذكره لبعض الأسماء التى تحمل لفظ "موس" تجاهل أسماء بارزة هامة فى قائمة

الملوك المصريين مثل أح موس (أحمس) وتموت - موس (تحتمس) ورع- موس (رمسيس)(٤٠) .

ثم يعرب فرويد عن دهشته كذلك لأن أحداً من المؤرخين الذين قالوا أن موسى اسم مصرى لم يفطن بعد ذلك إلى أن هذا الشخص مصرى أو أن هناك احتمالا على الأقل لأن يكون كذلك ، فإن أحدا منهم لم يخرج بهذه النتيجة المنطقية ، حتى أولئك الذين هم مثل برستيد على استعداد لافتراض أن "موسى" تهذب بكل حكمة المصريين .

ويرجع فرويد ذلك إلى أن التراث الإنجيلى كان سداً منيعاً فى وجههم ، إذ ربما يبدو مريعاً تصور أن موسى كان شيئا آخر غير كونه عبرياً ، ولذلك فإن اكتشافهم أن الأسم المصرى لم يكن عاملاً يدعوهم إلى الحكم على أصل الرجل (٤١) .

وفى الإصحاحات الثانى إلى الرابع عشر من سفر الخروج قصة موسى منذ ولادته إلى خروج بنى اسرائيل من مصر بقيادته .

وقد احتوى السفر خبر ولادة موسى وإلقائه باليم خوفاً من قتله والتقاطه من قبل بنت فرعون وتربيته فى بيته بيت الملك وقتله مصرياً اعتدى على عبرانى وفراره إلى مدين واستسقائه غنم بنات كاهنها وزواجه من صفورة إحدى البنات وإقامته فى مدين إلى أن هلك الملك الذى وقع حادث قتل المصرى فى عهده ، وتجلى الله له فى جبل حوريب وقوله له : انه نظر إلى مذلة شعبه ونزل إلى إنقاذهم وإخراجهم إلى الأرض الطيبة التى تدر لبناً عسلا ، وهى أرض الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين ، وأمره بالذهاب إلى مصر وطلب إطلاق الشعب من فرعون وانقلاب العصا فى يده إلى حية وابيضاض يده كمعجزة ربانية لتأييد رسالته، وتعزيزه بهارون لفصاحة لسانه بسبب ما أبداه من تخوف ، وعودته إلى مصر ولقائه بهارون وشيوخ بنى اسرائيل وإخبارهم بما رآه وسمعه وانتشار ذلك وتأثيره على عمال بنى اسرائيل الذين كانوا مسخرين فى أعمال الطين والبناء ومقابلة هارون وموسى لفرعون وما كان من أخذ ورد معه وما

أظهره الله من معجزات العصا ومزعجات الدم والضفادع والبعوض والذباب والوباء والظلام [٤٢] .

وكان فرعون كلما ظهرت معجزة وأخفق السحرة فى التغلب عليها طلب الشفاعة من موسى وبذل الوعد بالاطلاق ، فإذا ما انكفت عاد وقسا قلبه إلى أن كملت إثنتى عشر معجزة ، واضطر فرعون إلى البر بوعده فى النهاية .

ثم لما كثرت الآيات والعجائب فى مصر ، وزاد بكاء بنى اسرائيل وتذمرهم ، مع إلحاح موسى وهارون على فرعون ، قال المصريون من وجهاء القوم لفرعون ، إلى متى يكون هذا فخا لنا ، أطلق القوم يعبدون إلههم فى البرية ، فدعا فرعون موسى وهارون ليلاً وقال لها : أخرجا الرجال وليأخذوا معهم ما يشاءون ليعبدوا إلههم فى البرية ثم يعودون . فحمل الأسرائيليون أموالهم وأغنامهم وارتحلوا فى نحو ستمائة ألف من الرجال عدا الأولاد الصغار [٤٣] .

ويلفت النظر بخاصة إلى خبر سلب بنى اسرائيل أمتعة جيرانهم الذهبية والفضية بحجة الإستعارة ، مع أنهم على ما يفيده السياق لم يكونوا أعداء لهم. وقد أقبل الجيران على إعارتهم ما طلبوه بطمأنينة ورضى . وقد نسب السياق الأمر وتيسيره إلى الله تعالى وتنزه [٤٤].

ومهما يكن من أمر فإن تسجيل الخبر بهذا الأسلوب يدل على ما كان وظل يتحكم فى نفوس بنى اسرائيل من فكرة استحلال أموال غيرهم وسلبها بأية وسيلة ، ولو لم تكن حالة عداء وحرب ودفاع عن النفس ، كما أنه كان ذا أثر شديد فيما هو المتبادر فى رسوم هذا الخلق العجيب فى ذراريهم ثم فى من دخل فى دينهم من غير جنسهم [٤٥] .

ولم تصل إلينا من مصادر معاصرة إشارات مباشرة إلى خروج بنى اسرائيل من مصر وكل ما وصلنا من إشارات غير مباشرة هو ما كتب على اللوحة التى أقامها منفتاح (حوالى سنة ١٢٢٥ ق.م) والتى وردت فيها هذه العبارة[٤٦] :

لقد غلب الملوك وقالوا "سلاما"

وخربت تحينو.
وهدئت أرض الحيثيين ،
وانتهت كنعان ، وحلت بها كل الشرور ،
وخربت اسرائيل ، ولم يعد لأبنائها وجود ،
وأصبحت فلسطين أرملة لمصر ،
وضممت كل البلاد وهدئت ،
وكل من كان ثائراً قيده الملك منفتاح

وليس فى هذه الأقوال ما يدل على أن منفتاح هو فرعون الذى خرج بنو اسرائيل من مصر فى عهده ، وكل ما تثبته أن الجيوش المصرية اجتاحت فلسطين مرة أخرى .

ومع أن بنى اسرائيل اعتبروا أن خروجهم من أرض مصر كان الحدث الرئيسى فى حياتهم ونقطة البداية فى تاريخ ما أصبح بعد ذلك يسمى بـ "شعب اسرائيل" وجعلوا موعد هذا الخروج فصحاً يحتفلون به كل عام ، إلا أننا لو نظرنا بتفحص إلى الحدث لوجدناه لا يتعدى كونه مجرد انتقال لبنى اسرائيل من أرض جاسان (التى يحددها البعض بأنها كانت عند القنطرة شرق) ، إلى مكان آخر - عند سفح جبل موسى بمنطقة سانت كاترين - فى جنوب سيناء ، وكلاهما كان أرضا مصرية. وإنما جاء خروجهم النهائى من مصر عندما رحلوا خارج سيناء - قبل دخولهم كنعان - بعد حوالى أربعين عاما قضوها فى التيه عقاباً لهم على عصيان وصايا الرب [٤٧] .

وقد سجل الإصحاح الخامس عشر من سفر الخروج تسابيح موسى الشكرية لله على انقاذه لنبى اسرائيل ، وحكى الإصحاح السادس عشر تذمر بنى اسرائيل على موسى وهارون وقولهم لهما : ليتنا متنا فى مصر حيث كنا نشبع من الطعام وسؤالهم لهما عما إذا كانا قد أتوا بهم إلى هذه البرية ليقتلوهم من الجوع (وأمثال هذا الموقف التذمرى كثيرة فى إبان رحلتهم من مصر إلى شرق الأردن حيث يدل على ضعف مقاومتهم وروحهم التعجيزية)، وإنزال المن والسلوى طعاماً لهم ، وقد وصف الأول بأنه طير فكان هذا طعامهم أربعين سنة إلى أن وافوا حدود كنعان [٤٨].

وحكى الإصحاح السابع عشر عطش بنى اسرائيل ومعجزة الله على يد موسى بضربه الصخر فى (حوريب) وانبثاق الماء منها ، وخبر مجئ العمالقة لمحاربتهم فى (رفيديم) بمعجزة ربانية ، وكان أول بادرة عدائية واجهها بنو اسرائيل من سكان البلاد ، ثم تكررت من مختلف الجنسيات والأقوام فى مختلف الظروف وبدون أى شذوذ حيث يدل ذلك على أن أهل البلاد جميعا توجسوا الشر والخطر من قدوم بنى إسرائيل، مما له مغزى بعيد عجيب .

وذكرت الإصحاحات التاسع عشر إلى الحادى والثلاثين تجليات الرب لموسى فى جبل سيناء ، وبعضها على مرأى ومسمع بنى اسرائيل ، وما ألقى إليه من وصايا وتشريعات دينية وتعبدية وخلقية ومدنية وأسروية [٤٩].

ومات هارون ثم موسى فى فترة التيه ودفن هارون فى جبل هورا ودفن موسى فى كثيب أحمر حيث كان يرى أرض فلسطين دون أن يدخلها [٥٠].

من يوشع إلى الشتات :

فى المنطقة الواقعة فى أرض مدين والتى تقع فى جنوب سيناء إلى الشرق منها ظل الحال عند بنى اسرائيل فى كل هذه المنطقة فترة طويلة ، حتى بعد وفاة موسى عليه السلام ، والقوم جميعا من بنى اسرائيل فى حالة ضياع ، ولما لم يجد بنو اسرائيل فى أرض مدين وفى منطقة سيناء - بأكملها ما يقيم لهم مجتمع الإستقرار الذى طالما حرموا منه ، منذ خرجوا من مصر ، ولما لم يستشعروا أدنى حال من الأمان نظروا إلى أرض الشمال ، وقرروا أنه لابد لهم بما لديهم من رجال ، وما يحيط بهم من ظروفهم الخاصة حيث أوشكوا على الضياع تماماً ، أن يدخلوا الأرض . ومن عجب أن هذه الظروف التى كانت تحيط بهم جعلت منهم قوة قادرة على تنفيذ ما تطمح فيه نفوسهم وتتطلع إليه أمانيهم بعد طوال ضياع وتشرد فى صحراء مقفرة . وما أن علموا عن خصب الأرض وخيرها ، حتى تأججت مشاعر الاستغلال والحسد والطمع فى نفوسهم وملأت قلوبهم ،

وثارت أطماعهم وحواسهم فى ضرورة الاستيلاء على كل هذه الأرض مبتدئين بأرض "كنعان" الواقعة غرب نهر الأردن[٥١].

وتولى يوشع بن نون قيادة بنى اسرائيل بعد موسى ، وكان يوشع أحد أصفياء موسى ، وقد اختاره موسى قبل موته لقيادة بنى اسرائيل[٥٢] ، فاتجه يوشع بأتباعه لدخول البلاد بعد معارك ضارية لم يتعففوا فيها عن شئ ، وأحرقوا مدينة أريحا ومدنا أخرى مستخدمين فى ذلك كل الوسائل بما فيها التجسس عن طريق العاهرات [٥٣].

ويصف ديورانت هزيمة اليهود للكنعانيين بأنها ليست إلا مثلا آخر لانقضاض جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين ، وقتل المهاجمون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم وسبوا من تبقى من نسائهم، وجرت دماء القتلى أنهارا . وكان هذا القتل كما تقول نصوص التوراة "فريضة الشريعة التى أمر بها الرب موسى" و "زكاة للرب" ويذكر ديورانت أن اليهود قتلوا من أهل مدنيتين"١٢,٠٠٠"رجل "ولسنا نعرف فى تاريخ الحروب مثل هذا الاسراف فى القتل والاستمتاع به"[٥٤].

وبعد يشوع بن نون تولى الأمر فى بنى اسرائيل يهوذا الذى بدأ به وبأخيه شمعون عهد القضاة ، وهى فترة استمرت فى التاريخ اليهودى زهاء مائة وستين سنة (من ١١٨٠ - ١٠٢٠ ق.م) لم يعرف اليهود فيها الإستقرار اذ دفعت بهم نزعة العدوان التى سادتهم إلى حروب مستمرة مع جيرانهم من الكنعانيين والمديانيين والعمونيين والفرزيين استولوا فيها على أورشليم وأشعلوا فيها النار ، كما دفعت بهم نزعة العصيان إلى التقلب بين عبادة "الرب إله اسرائيل" وعبادة غيره من الأرباب [٥٥] .

وبالإضافة إلى ذلك يتميز عهد القضاة بالفوضى الشاملة التى وصفتها التوارة بقولها "فى تلك الأيام لم يكن ملك فى اسرائيل ، كان كل واحد يعمل ما يحسن فى عينه" [٥٦] .

كما يتميز بالانحلال الجنسى كما أشار إلى ذلك الإصحاح ١١، ١٦، ١٩[٧٥]. وقد أشارت المزامير إلى أوزار ذلك العهد بقولها " وذبحوا بنيهم

وبناتهم للأوثان ، وأهرقوا دما ذكيا دم بنيهم وبناتهم الذى ذبحوهم لأصنام كنعان وتدنست الأرض بالدماء ، وتنجسوا بأعمالهم وزنوا بأفعالهم"(٥٨).

وكانت القبائل الفلسطينية قد نزلت على الساحل الكنعانى فى الربع الأول من القرن ١٢ ق.م قادمة من جزيرة "كريت" وتمكنت من تكوين ممالك المدن الساحلية المحصنة – مثل "عسقلان" و"أشدود" و"غزة" واستطاعت قبل نهاية ذلك القرن القضاء على السيطرة المصرية على أرض كنعان . وبعد أن استقر الفلسطينيون فى مدن الساحل ، راحت جيوشهم تنتشر جنوبا فى صحراء النقب ، وشرقا لإخضاع شعوب المنطقة الجبلية الممتدة من الشمال إلى الجنوب بمحاذاة نهر الأردن والبحر الميت وهنا كان لابد أن يبدأ الصدام بين ملوك الفلسطينين وقبائل بنى اسرائيل (٥٩).

وكان هذا ايذانا ببدء (عهد الملوك) ، الذى بدأ بـ (شاءول) .

وفى الاصحاح الخامس عشر من سفر صمويل الأول خبر ايعاز صموئيل لشاؤل بأمر الرب تعالى وتقدس من ذلك بضرب عماليق وتحريم – إبادة –كل أموالهم وعدم العفو عنهم وقتل كل رجل وامرأة وطفل ورضيع وكل بقرة وجمل وحمار وغنمة...

والعملية على هذا النحو المسجل فظيعة جدا فى بواعثها وقسوتها وصورتها ومشابهة لعملية مدين التى روى الإصحاح (٣١) من سفر العدد أنها جرت فى عهد موسى تبرز فيها ، إن صحت الرواية ، روح عدوانية شديدة حاقدة فى بنى اسرائيل ضد غيرهم حينما يمكنهم ذلك . وحتى لو لم تكن الرواية صحيحة فان تسجيلها على النحو الوارد هى وعملية مدين المماثلة لها يدل على تأصل تلك الروح فى أجيالهم التى دونت الأسفار فى عهدهم واستساغة الجريمة التى يقترفونها بقوة هذه الروح واستساغة الجريمة المقترفة بقوتها فى مختلف أجيال بنى إسرائيل ، ومن دان باليهودية من غيرهم وظل متأثرا بتعاليم أسفارهم وأحداثها المسجلة . وقد شهدت مختلف الحقب والأقطار والأجناس ، وما تزال تشهد أثارها منهم (٦٠) .

ولقى شاؤل وثلاثة من أبنائه حتفهم على يد الفلسطينيين ، فشرع زوج ابنته داود فى تكوين دولة مستقلة فى الجنوب معتمدا على قبيلة يهوذا نصف الاسرائيلية ، ونصف الكنعانية ودارت حرب طاحنة بين ملك يهوذا فى الجنوب (داود) وملك اسرائيل فى الشمال (ابن شاؤل) ، انتصر خلالها داود ووحد الملك بيديه واختار أورشليم عاصمة له [٦١]

وبلغت المملكة أوج عظمتها فى عهد سليمان بن داود إذ قلد ذلك الحاكم الطموح كبار الملوك ، ولم يفت فى عضده جهل الرعاة بالفنون ، فاستقدم مهندسين ومواداً من فينيقيا ، وشيد مجموعة من القصور الفخمة ملأها بالذهب والحرير والحريم [٦٢].

وانتقل اليهود فى عهد الملوك من رعى الضأن إلى الإشتغال بالزراعة .

واذا كان سليمان لم يشهر حرباً فإنه افتتح أراضى كثيرة متغلبا على الرمال ، وذلك بأن وسع رقعة الأراضى الصالحة للزراعة ، وبأن شاد مدينة تدمر الرائعة فى مكان يلوح لنا اليوم أنه غير نافع للسكن ، غير أن مصير تلك المدينة كان مؤقتا كما يظهر ، فمركز كبير للسكان كذلك المركز لا يمكن أن يدوم فى سواء البادية بعيدا من مجارى المياه المهمة إلا بمعجزات الصناعة والعمل ، فلما مات سليمان نهكت الفتن الأهلية بنى اسرائيل فهجرت تلك المدينة الشرقية إلى أن استولى عليها الرومان وجددوا بناءها ، واليوم نرى أعمدة تلك المدينة قائمة فى اعتزال فيقضى السائح منها العجب ممتلئة نفسه بغم غريب [٦٣].

ولا يزال اسما سليمان وتدمر الكبيران يبهران الفكر ، لما يبدو من سطوعهما فى تاريخ بنى إسرائيل الكئيب والمرء إذا ما صدق عنهما لم يبصر غير هوة مظلمة دامية تزلق فيها هاوية بما يثير الحزن تلك المملكة الصغيرة التى منّ عليها داود وابنه بعظمة من سنوات قليلة .

ولبضعة قرون تحافظ أورشليم حيث يملك آل داود ، على شئ من التفوق الأدبى ، فتكون مركزاً ثقافياً لفلسطين ، وذلك بأن غدا الكهنة يألفون

الأقاصيص ، وبأن صار عظماء الأنبياء يسمعون أصواتهم مجدين مع أولئك، على غير جدوى فى إعادة وحدة بنى اسرائيل بوحدة تقاليدهم ودينهم [٦٤] .

ولكن ما أن توفى سليمان حتى تأرجح كرسى الملك من تحت خليفته ، وانقسمت شراذم الرعاة وطحنتها المعارك الداخلية ، فإن جماعات البدو غير المنظمة تحن إلى قبضة الحاكم القوى ، وتئن من تردد الحاكم الضعيف ، فتعود إلى سابق عهدها من التفرقة ، لذا انقسم الملك بعد سليمان إلى دولتين : مملكة اسرائيل فى الشمال ومملكة يهوذا فى الجنوب (فى منتصف القرن العاشر ق.م [٦٥]).

وخلال القرون التالية لم تعرف اسرائيل الراحة أو الإستقرار فشهدت انقسامات وحروباً داخلية متعددة بين قسميها الشمالى والجنوبى بدأت منذ ولاية رحبعام بن سليمان ملك يهوذا فى محاولة لرد مملكة إسرائيل إليه ، كما شهدت حروباً بينها وبين جيرانها وكانت مسرحاً لصراعات دينية عنيفة ولمحالفات تبرم ثم تنقض ولدسائس تحاك وفتنة تثور ولاغتيالات سياسية ، من أظهرها اغتيال الأخوة بعضهم بعضا طمعاً فى العرش . ولا يتسع المقام لسرد قصة هذه القرون تفصيلاً ولكنها فى مجملها قصة همجية وحشية فيها قسوة وعنف وخور ونفاق وجبن وعود متكرر إلى خيانة "الرب" ، وقد بدأت الغزوات من الخارج ترد إليها من مصر وأدوم وفلسطين ومن سوريا الآرامية التى كان ظهورها بمثابة فأل سئ على العبرانيين ثم انتهى الأمر بزوال دولة الشمال (اسرائيل) بعد حروب استمرت سنوات طويلة بينها وبين الأشورين حتى أنهى الغزو الأشورى بقيادة سرجون الثانى وجودها من التاريخ كلية عام ٧٢١ ق.م[٦٦].

ولم تكن مملكة يهوذا فى الجنوب أسعد حالا ولا أعمن مآلا ، منذ هزم الفرعون المصرى نيخو ملكها هوشع فى عام ٦٠٨ ق.م ، وأصبحت يهوذا تابعة لمصر . ولكن نجم نبوخذ نصر الثانى البابلى كان آخذا فى الصعود ، فسقطت مملكة يهوذا فى يده سنة ٥٩٨ ق.م[٦٧] وساق أمامه الملك (يهو ياقين) ، والنبى (حزقيال) ، ومعهما سبعة آلاف رجل مسلح وألف عامل مكبلين بالحديد ، فكان هذا الأسر البابلى الأول [٦٨].

وبعد سنوات ثارت مملكة (يهوذا) بتحريض من مصر ، فغضب نبوخذ نصر ، ودمر أورشليم سنة ٥٨٦ ق.م وحرق هيكل سليمان ، وسلب خزائن المدينة ، ونقلها إلى بابل ، وقتل من سكانها عدداً كبيراً ، وأخذ معه أربعين ألف أسير ، (اينوحوا عند مياه الفرات في بابل) ، وكان هذا هو الأسر الثانى، وقبض على الملك (صدقيا) وأخذه إلى معسكره ، وذبح أولاده أمام عينية ، ثم فقأ عينه ، وأخذه مكبلاً مع الأسرى ، وشرد من بقى من اليهود .

وقد خلد أحد شعرائهم هذه القافلة البائسة فى أغنية تقول [٦٩] :

على أنهار بابل جلسنا وبكينا على ذكرى صهيون
وفى وسط الصفصاف علقنا أعوادنا .
لأن من سبونا طلبوا إلينا أن نغنيهم .
والذين عذبونا أرادوا أن نطربهم ،ونادونا .
هلا أنشدتمونا أحد أناشيد صهيون ؟
وهل نستطيع أن ننشد الله فى بلد غريب ؟
لئن نسيتك يا أورشليم فلتنسى يمينى حذقها
وليلتصق لسانى بسقف حلقى إن لم أذكرك يا أورشليم .
وإن لم تكونى لدى خيراً من أفراحى.

ولكن على الرغم من أن فترة السبى البابلى لم تكد تصل إلى أكثر من سبعين عاما ، قد أنهتها هزيمة البابليين أمام كورش الفارسى ، فقد كانت أكثر الفترات أهمية وحسماً فى التاريخ اليهودى كله .

لقد كانت ساعة من أروع الساعات فى تاريخ اسرائيل حين دخل كورش بابل فاتحا عالميا بعد طول انتظار ، وأباح لليهود أن يعودوا إلى ورشليم بكامل حريتهم . ولكنه خيب رجاء بعض الأنبياء وأظهر ما كان فى طباعه من حضارة أرقى من حضاريتهم ، إذ ترك بابل وشأنها ولم يمس أهلها بسؤ، وأظهر خضوعه لآلهتها ، وإن كان فى الواقع خضوعاً مشكوكاً فيه ، كذلك أعاد كورش لليهود ما كان باقياً فى خزائن الدولة البابلية من الذهب والفضة الذين اغتصبها نبوخذ نصر من الهيكل ، وأمر الجماعات التى كان اليهود

المنفيون يعيشون بينها أن تعينهم بالمال الذى يحتاجونه فى أثناء رحلتهم الطويلة الى وطنهم (٧٠).

ولم يتحمس شباب اليهود لهذا التحرير لأن الكثيرين منهم قد تأقلموا فى التربة البابلية وامتدت أصولهم فيها ، فترددوا طويلا فى ترك حقولهم الخصبة وتجارتهم الرائجة ليعودوا إلى القفار الخربة فى المدينة المقدسة ومرت سنتان بعد مجئ كورش قبل أن تبدأ الفصيلة الأولى من اليهود لمتحمسين رحلتها الطويلة التى دامت ثلاثة شهور إلى الأرض التى خرج منها آباؤهم قبل ذلك (٧١).

بيد أن الأمر تطور بعد سقوط الأمبراطورية الفارسية على يد الإسكندر وسيطرة اليونان على المنطقة الواقعة من بلاد الهند شرقاً إلى ليبيا غرباً ، عندئذ عمد الكثير من اليهود إلى الهجرة من فلسطين والاستقرار فى مناطق أخرى من سوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان، وأصبحت أكبر جالية يهودية هى التى تعيش فى مدينة الاسكندرية على الساحل المصرى ، ولم تكن هذه الهجرة بخلاف ما حدث أيام أشور وبابل - عملا إجباريا من قبل السلطة الحاكمة ، وإنما هى تصرف اختيارى بحثاً عن مستوى معيشة أفضل (٧٢).

وكل الأدلة تشير إلى أن اليهود فى تلك الفترة لم يكن لهم كيان سياسى مستقل وإنما ذابوا داخل البوتقة السورية الكبرى . صحيح أن الكاهن الأكبر لمعبد القدس أصبح يمثل الأب الروحى لأهل يهوذا ولكننا فى الفترة الأولى من الحكم اليونانى لا نجد حاكما إداريا مستقلا ليهوذا، ولا سلطة سياسية أو إدارية مستقلة للمنطقة ، التى لم يرد ذكرها فى أى من كتابات المؤرخين اليونان المعاصرين لتلك الأحداث(٧٣).

ولم يستقر اليهود فى ظلال الحكم الجديد ، كما لم يعرفوا الإستقرار قط، ومن أبرز ثوراتهم فى هذا العهد ، تلك الثورة التى قاموا بها سنة ١٦٧ ق.م بقيادة الكاهن ماتياس ، وقد هزم فيها ، وبعد وفاته تولى ابنه مكابياس قيادة الثائرين ، وقد دفع حياته سنة ١٦١ ق.م ثمنا لعصيانه ، وإلى هذا الكاهن تنسب أسرة المكابيين التى حاولت أن تحقق - دون جدوى - أى لون من ألوان الاستقلال لليهود ، وطالما سقط القادة من هذه الأسرة قتلى بين الأمراء (السوريين) ، وفى سنة ١٠٤ ق.م استطاع القائد المكابى أرستبولس أن يأخذ لقب "الملك" ، ولكن عهده لم يطل . وقد أدى طول الإحتكاك بين المكابيين

والسوريين إلى أن يصطنع المكابيون تقاليد السوريين وعادات الأمراء المجاورين ، وكانت أسرة المكابيين أقرب إلى القادة العسكريين منها إلى أسر الحكام (٧٤).

كذلك تواترت ثورات اليهود – الذين لم يعودوا يزيدون على أقلية من سكان فلسطين – على الحكم الروماني الذى رد بتخريب أورشليم والهيكل وبإبادة اليهود فى مذبحة سنة ٧٠ الميلادية الفاصلة (تيتوس) التى صفت أغلبهم محلياً ، وفر منها أقلهم إلى مصر وسوريا . غير أن بقايا اليهود عادوا إلى الثورة سنة ١٣٥ م حيث قوبلوا بمذبحة نهائية (هادريان) ختمت إلى ما شاء الله مصير اليهود فى فلسطين كدولة وكقومية ، بعد تدمير أورشليم والهيكل مرة أخرى ، صفيت بقايا اليهود بالإبادة والهجرة (٧٥) .

الهوامـــش

١- غوستاف لوبون : اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ، نقله إلى العربية عادل زعيتر ، عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٧٠، ص ١٩ .
٢- المرجع السابق ، نفس الصفحة .
٣- صابر عبد الرحمن طعيمة : اليهود بين الدين والتاريخ ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٣٥ .
٤- المرجع السابق . نفس الصفحة .
٥- زكى شنودة : المجتمع اليهودى ، الخانجى ، القاهرة ، د.ت ، ص ٥ .
٦- محمد عزة دروزة : تاريخ بنى اسرائيل من أسفارهم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٢٦ .
٧- سيد محمود القمنى : النبى ابراهيم والتاريخ المجهول ، مدبولى الصغير ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص ص ٢٨ ، ٢٩ .
٨- المرجع السابق ، ص ٤٩ .
٩- المرجع السابق ، ص ٥٢ .
١٠- كمال الصليبى : خفايا التوراة وأسرار شعب اسرائيل ، داره الساقى ، بيروت ١٩٩٤ ، ص ٨٦ .
١١- أحمد عثمان : تاريخ اليهود ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٤، جـ١ ، ص ١٧ .
١٢- المرجع السابق ، ص ١٨ .
١٣- كامل سعفان : اليهود : تاريخ وعقيدة ، دار الإعتصام،القاهرة، ١٩٨٨ ، ص٩ .
١٤- سفر التكوين ، الاصحاح / ١٣ .
١٥- سفر التكوين ، الاصحاح /١٥ .

١٦- جمال حمدان : اليهود أنثروبولوجيا ، دار الهلال ، القاهرة ، سلسلة كتاب الهلال ، فبراير ١٩٩٦ ، ص ٥٥ .
١٧- المرجع السابق ، ص ٥٦ .
١٨- سفر التكوين / الاصحاح ١٤ .
١٩- زكى شنودة ، ص ٦ .
٢٠- اسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٢٩ ، ص ٧٧ .
٢١- المرجع السابق ، ص ٧٨ .
٢٢- اليهود بين الدين والتاريخ ، ص ٤٣ .
٢٣- أحمد شلبى : مقارنة الأديان (١) اليهودية ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص ٥٨ .
٢٤- سيد القمنى ، ص ٧٩ .
٢٥- المرجع السابق .
٢٦- غطاس عبد الملك الخشبة : رحلة بنى اسرائيل إلى مصر الفرعونية والخروج ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ص ١٢٢ ، ١٢٣ .
٢٧- محمد عزة دروزة : تاريخ بنى اسرائيل من أسفارهم ، ص ص ٦٠-٦١ .
٢٨- أحمد شلبى ، اليهودية ، ص ٦٧ .
٢٩- سفر التكوين / الاصحاح ٤٥ .
٣٠- اليهود بين الدين والتاريخ ، ص ١٢٧ .
٣١- المرجع السابق ، ص ١٢٨ .
٣٢- كامل سعفان : اليهود ، تاريخ وعقيدة ، ص ١٠ .
٣٣- سفر الخروج ، الاصحاح الثالث .
٣٤- صبرى جرجس : التراث اليهودى الصهيونى والفكر الفرويدى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٢٥ .
٣٥- أحمد عثمان ، تاريخ اليهود ، ج١ ، ص ٤٣ .
٣٦- التراث اليهودى (الصهيونى) ، ص ٥ .

٣٧- أحمد عثمان ، ص ٤٤ .
٣٨- محمد العزب موسى : موسى ... مصريا ، دار الكتاب العربي ، سلسلة المكتبة الثقافية (العدد ٢٣٠) ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ١٨ .
٣٩- هـ.برستيد : فجر الضمير ، ترجمة سليم حسن ، مكتبة مصر ، القاهرة ، د.ت ، ص ٣٧٦ .
٤٠- موسى .. مصريا ، ص ١٩ .
٤١- المرجع السابق ، ص ٢٠ .
٤٢- محمد عزة دروزه ، ص ٦٦ .
٤٣- رحلة بنى اسرائيل إلى مصر الفرعونية ، ص ١٨٢ .
٤٤- محمد عزة دروزه ، ص ٦٧ .
٤٥- المرجع السابق ، ص ٦٨ .
٤٦- ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧١ ، م١ ، جـ٢ ،ص ٣٢٤ .
٤٧- أحمد عثمان ، جـ١ ، ص ٨٧ .
٤٨- محمد عزة دروزة ، ص ٧١ .
٤٩- المرجع السابق ، ص ٧٢ .
٥٠- أحمد شلبى ، ص ٧٨ .
٥١- اليهود بين الدين والتاريخ ، ص ١٥٦ .
٥٢- سفر العدد ، الاصحاح ٢٧ .
٥٣- صبرى جرجس ، ص ٢٧ .
٥٤- قصة الحضارة ، م١ ، ح٢ ، ص ٣٢٦ -٣٢٧ .
٥٥- سفر القضاة ، الاصحاحات : ٣ ، ٨ ، ١٠ .
٥٦- سفر القضاة ، الاصحاح ١٧ .
٥٧- صبرى جرجس ، ص ٢٨ .
٥٨- مزمور ١٠٦ .
٥٩- أحمد عثمان ، جـ١ ، ص ١٢٧ .

٦٠- محمد عزة دروزة ، ص ١٤١ .
٦١- سفر صموئيل الثانى ، الاصحاح الثانى وما بعده .
٦٢- ثروت أنيس الأسيوطى : نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ، د.ت ، ص ١٣٢ .
٦٣- جوستاف لوبون : اليهود فى التاريخ الحضارات الأولى ، ص ٤٠.
٦٤- المرجع السابق ، نفس الصحفة .
٦٥- ثروت الأسيوطى ، ص ١٣٣ .
٦٦- صبرى جرجس ، ص ٣٤ .
٦٧- المرجع السابق ، نفس الصفحة .
٦٨- كامل سعفان : اليهود : تاريخ وعقيدة ، ص ١٩ .
٦٩- المرجع السابق ، نفس الصفحة .
٧٠- قصة الحضارة ، م١ ، خ٢ ، ص ٣٦٤ .
٧١- المرجع السابق ، ص ٣٦٥ .
٧٢- أحمد عثمان ، تاريخ اليهود ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٤، جـ٢ ، ص ٢٦ .
٧٣- المرجع السابق ، ص ٢٠ .
٧٤- أحمد شلبى ، ص ٩٤ .
٧٥- جمال حمدان ، ص ٦٩ .

الفصل الثاني

الفكر الديني والفلسفي

مقدمة :

عندما يكون موضوعنا فى التأريخ التربوى شعباً من شعوب الشرق الأوسط فى العصر القديم ، فلابد أن يحتل "الدين" مركز الصدارة إذا أردنا لهذا التأريخ ألا يكون سرداً لتطور التربية والتعليم ، وإنما بحثا عن "الأصول" ، ذلك أن الدين ظل – وما يزال – هو المحرك الأساسى لجملة البنى الاجتماعية فى هذه الأزمنة ، سواء أكان ديناً سماوياً أو وضعياً .

وإذا كنا ننطلق من هذه الحقيقة على وجه العموم ، إلا أننا عندما يكون موضوعنا هو بنى اسرائيل ، فلابد أن يزداد التأكيد عليها خاصة وأن حاضر هؤلاء القوم ونحن فى أواخر عام ١٩٩٦ إنما يقوم على أساس دينى بغض النظر عما إذا كان التصور المعاصر قد انحرف عن الطريق وامتلأ بالأساطير والخرافات ، فيكفى اسم الدولة الحالى "اسرائيل" ، ويكفى اختيار المكان ، بل وكثير من المنطلقات التى يقوم عليها الخطاب السياسى .

الدين اليهودى

الدين اليهودى ، عبارة أطلقت على الطقوس الدينية التى كان يمارسها سكان مملكة "يهودا" الذين سبوا من أورشليم إلى بابل عام ٥٨٧ ق.م ، وأطلق هذا الأسم فى المنفى ، أى فى بابل فقط ، فهو لم يكن يعرف قبل ذلك التاريخ . إذا فعبارة "الدين اليهودى" ، ليست عبارة ذات مدلول وفحوى ، إنما هى جغرافية صرفة ، مثل عبارة "الدين الهندوسى" أى الدين المتبع فى الهند، أما كلمة "يهودا" ، فمع أنها كانت تطلق على إحدى القبائل قبل قيام الدولة المعروفة بهذا الإسم ، فهى لم تطلق كإسم لتلك الدولة إلا بعد انفصال الشمال

عن الجنوب ، وقيام دولة "اسرائيل" فى الشمال و"يهودا" فى الجنوب . وكانت مملكة يهودا تشمل لواءى القدس والخليل ، وكانت عاصمتها أورشليم [١].

وحصر الدين اليهودى بالتوراة ، وأصبح ديناً كتابياً بالمعنى الحرفى بعد عودة اليهود من منفاهم فى القرن السادس . ولا شك أن قسماً من النصوص التى تتألف منها التوارة كان يؤلف أدباً دينيا قبل ذلك ، إلا أن جمع النصوص فى كتاب واحد ، وصبغه بطابع التقديس ، لم يتم إلا فى عهد نحميا فى القرن الخامس ، وعلى يد الكاتب "عزرا" ، فالتوارة ، أو " القانون" ، أو النصوص التى تتألف منها ، هى الأسفار الخمسة التالية : التكوين ، الخروج ، اللاويين، العدد ، التثنية ، وقد سميت "حاميشاحو مشى طوراه" ، أى أسفار القانون الخمسة أو Pentateuch [٢].

والدين العبرى هو ما كان يدين به اليهود قبل سقوط أورشليم بيد البابليين ، ففى ذلك الوقت لم يكونوا يعرفون باسم "اليهود" ، بل باسم "العبريين" ، سواء كانوا مواطنى مملكة يهودا ، أو مملكة اسرائيل بعد انفصالها عام ٩٢٢ ق.م ، أو مواطنى يهودا وحدها بعد أن انصهرت اسرائيل فى قلب الامبراطورية الآشورية على يد سرجون الثانى عام ٧٢٢ ق.م، أم مواطنى الدولة المتحدة إبان حياتها بين سنة ١٠٠٠– وسنة ٩٢٢ ق.م [٣].

وقد مثلت اليهودية تطوراً فى التفكير الدينى ، يشير (خليفة) إلى بعض منه فيما يلى [٤]:

١- انتهت فى الديانة الجديدة ، العلاقة ، أو الرابطة الدموية التى تربط بين الإله ومن يعبدونه . وكما هو معروف كانت الآلهة القديمة سامية وغير سامية ، متصلة بشعوبها اتصلاً دمويا ، وكانت الآلهة فيما بينها تكون ما يشبه الأسرة الواحدة أو مجموعة من الأسر ، وترتبط الآلهة بعلاقات أسرية ، بعض الآلهة فيها آباء ، وبعضها أمهات ، وبعضها الآخر أبناء وبنات.

٢- لم تعد فكرة الخلق نتيجة طبيعية لعملية التقاء جنسى بين الآلهة، كما حدث مع آلهة العالم القديم ، وأصبحت عملية الخلق فى التفكير الدينى الجديد عملية تعود إلى الإرادة الإلهية ، كما أن الخلق أصبح خلقاً من العدم [٥].

٣- انتهت أيضا فى الفكر الدينى الجديد فكرة الإله الحى الميت ، أى الإله الذى يموت ويبعث من جديد [٦].

٤- انتهى أيضا الصراع القديم بين الآلهة ، وقام النظام الجديد على فكرة الإله الواحد العادل[٧] ،(وإن انحرف التفكير اليهودى عن هذا بعد ذلك) .

٥- أصبح الإله هو المسيطر على الطبيعة ، وهو أيضا المسيطر على التاريخ وحركته [٨].

التصور اليهودى لله :

يظهر من التأمل فى أقدم سفرين من أسفار التوراة ، وهما سفر التكوين وسفر الخروج أن فكرة الألوهية ظلت مضطربة فى عقولهم إلى نهاية المرحلة التى تم فيها تدوين هذين السفرين ، أى إلى نهاية القرن التاسع ق.م (بعد موسى بنحو خمسة قرون) فتصوروا الله تعالى فى صورة مجسمة ، ووصفوه بكثير من صفات النقص والضعف والكذب والغفلة والجهل ، وظهر تصورهم هذا فى كثير مماورد فى هذين السفرين [٩] .

من ذلك ما يذكره سفر التكوين من أن لله تعالى أولاداً من الذكور، وأن هؤلاء الذكور قد فتنهم جمال بنات الآدميين اللاتى كان عددهن قد كثر فى الأرض ، فاتخذوهن خليلات ، وولد لهم منهم نسل امتاز ببسطة كبيرة فى الجسم ، وهم الجبابرة الذين سكنوا الأرض قبل الطوفان [١٠].

ومن ذلك أيضا ما يذكره سفرالتكوين عن يعقوب وأنه لقى شخصاً (نستدل من السياق أنه هو الله) ، ذات ليلة وأخذ يصارعه حتى بزغ الفجر ، بدون أن يستطيع الله سبيلا إلى التغلب على يعقوب ، وحينئذ ضرب حُقّ فخذ يعقوب فانخلع ولما بلغ الوهن من الله مبلغه طلب إلى يعقوب أن يخلى

سبيله لأنه قد طال أمد المصارعة وطلع الفجر . ولكن يعقوب لم يقبل أن يطلقه إلا إذا باركه ، فقبل اللـه تعالى شرطه وباركه ، وسأله عن اسمه ، فقال: يعقوب ، فقال الله لن تسمى بعد الآن يعقوب ، بل تسمى (اسرائيل) لأنك كنت قوياً على الله (١١) ، (وهذا هو أحد معانى اسرائيل فى العبرية) .

وقد صرحت التوارة بأن موسى وأخاه هارون أعلنا لبنى اسرائيل عن اسم الإله الذى جاءا يدعوانهم إليه وعرفاهم بهذا الإله أنه إله الآباء إبراهيم وإسحق ويعقوب ، أى أنه ليس من قبيل الوثنيين المصنوعة بأيدى الناس والمشخصة فى كيان مادى منظور ، بل هو منزه عن ذلك مطلقا ، فإبراهيم هو أول من عرفه واهتدى إليه من آبائهم بعد طوفان نوح ، لم يشر إلى صورة له يعرفونه بها ، ولا ترك لهم رسماً بعينه ، ولا كياناً مشخصاً يماثله، وإنما ذكره بالتمجيد والتقديس ، متسامياً به عن كل صورة ومثال ، وكذلك فعل من بعده إسحق ، ثم يعقوب الذى خرجوا من نسله .

وهذا إذن يعنى أنهم ملزمون أن يتبعوا نهج هؤلاء الآباء بشأن ذلك الإله الذى دعاهم موسى وهارون إليه (١٢).

وفعلا تشهد التوارة بأن موسى وأخاه عندما أبلغاهم بأنهما مرسلان إليه من قبل هذا الإله ذاته ، وبما يلزمهم فى ذلك ، أنهم أقروا لهما بالرسالة وآمنوا به وتعرفوا فيه على إله آبائهم .

غير أنه قد بقى لديهم الاعتقاد بأن لهم إلاهاً خاصاً بهم ، وهو إله اسرائيل ، وأنهم هم أولاده وأحباؤه ، وأن لغيرهم من الأمم آلهة أخرى، وأن إلههم فى صراع مع هذه الآلهة . ولم يتخلص إلههم هذا كل التخلص من صفات الحوادث ، بل ظل عالقاً به فى نظرهم بعض هذه الصفات (١٣) ، فمن ذلك أن سفر اللاويين يذكر فى أكثر من موضع أن الضحايا المحرقة (وهى التى تحرق أجزاؤها فى المذبح تحت إشراف أحد اللاويين) يرتاح بها الإله ويفيد منها ، وينتعش من رائحة الدخان المتصاعد من حرقها ، وأنه يغضب كل الغضب ، إذا لم تقدم إليه ، أو إذا قدمت إليه فى صورة غير الصورة المقررة فى شريعتهم ، وأنه قد يصب حينئذ سوط عذابه على المقصرين أو

غير المراعين لمراسم التقديم فيرسل عليهم نارا تحرقهم ، كما فعل مع ولدين من أبناء هارون لم يحسنا تقديم الأضحية [١٤].

أما عن اسم الإله (يهوه) ، فلا يعرف له معنى على وجه اليقين ، فقد فسره بعض العلماء بأن معناه (هو الذى يكون) ، وفسره آخرون بأن معناه (هو الذى يوجد) – بكسر الجيم – أى هو الخالق ، وهناك تفسيرات أخرى غير هذا [١٥]. وكانت عقيدة الإيمان بإله واحد هو يهوه قد أصيبت بهزة عنيفة فى نفوس العبريين ، ذلك لأنهم بعد أن استقروا فى أرض فلسطين الخصبة أرض كنعان ذات الحضارة العريقة والمدنية القديمة ، عاشوا أول أمرهم حياة عزلة وانفصال عمن يحيط بهم ، لأن البون شاسع بين العقليتين : عقلية اليهود الصحراوية وعقلية الكنعانيين الحضرية ، وبالتالى كان الفرق شاسعاً بين العقيدتين . لكن مع مرور الزمن ، أخذ اليهود يخرجون من عزلتهم ويمتزجون بسكان البلاد الأصليين ، فأخذوا عنهم ، إلى جانب ما أخذوه ، بعض المعبودات أمثال (بعل) إله الخصوبة ، وإن كان قد عز عليهم أن يتركوا (يهوه) ويعتنقوا عبادة إله أعدائهم ، ولكن وطن الإسرائيليين الجديد الغنى بتربته وحاصلاته اضطرهم إلى تقديس إله يتناسب والبيئة الجديدة ، فوفقوا بين القديم والحديث واحتفظوا بيهوه وخلعوا عليه صفات (بعل) وأصبح (يهوه) ليس إله حرب وحسب ، بل إله الخصوبة والنسل ، ومن هنا كانت الطقوس التى يعبد بها مزرية لا تتفق وأخلاق أمة راقية كوضع اليد على عضو التناسل اذا أراد أحد أن يقسم به ، حتى يحل القسم وتتحقق الغاية[١٦].

ويرجح (ديورانت) ، أن اليهود الفاتحين لأرض كنعان عمدوا إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه فى الصورة التى كانوا عليها ، وجعلوا منه آلهـا صارماً ذا نزعة حربية ، صعب المراس ، ثم جعلوا لهذه الصفات حدوداً تكاد تبعث الحب فى القلوب ، ذلك أن هذا الإله لا يطالب الناس بأن يعتقدوا أنه عالم بكل شئ ، وشاهد ذلك أنه يطلب إلى اليهود أن يميزوا بيوتهم بأن يرشوها بدماء الكباش المضحاة لئلا يهلك أبناءهم علم منه مع من يهلكهم من أبناء المصريين . كذلك لا يرى أنه معصوم من الخطأ ، ويرى أن أشنع ما يقع فيه من الأخطاء هو خلق الإنسان ، ولذلك تراه يندم بعد فوات الفرصة على

خلق آدم . وتراه من حين لآخر شرهاً ، غضوباً ، متعطشاً للدماء ، متقلب الأطوار "وقصارى القول أنه لم يكن للأمم القديمة إله آدمى فى كل شئ كإله اليهود هذا"[١٧].

أما (لوبون) ، فإنه يؤكد أنه قد كان للآلهه (يهوه) و (بعل) و(عشيرا) ، طبائع وصفات خاصة بالكواكب والجو والشمس كما كان لجميع آلهة (كلدة).

وظلت عبادة الشمس والقمر والنجوم قائمة زمناً طويلاً لدى جميع أمم سوريا ، "ولدى بنى اسرائيل على الخصوص" [١٨].

وفى زمن حزقيال ، حوالى أواخر أيام مملكة يهوذا ، كان يمكن أن يرى، حتى فى هيكل أورشليم ، يهود كانوا يسجدون أمام الشمس مولين وجوههم شطر المشرق وكانت عبادة الشمس تختلط (أننذ بعبادة الحيوانات) ، وذلك لما كان من تصوير القوم على جدران معبد (يهوه) صور الزحافات والبهائم والأشياء الكريهة وجميع آلهة آل اسرائيل الفاضحة كما روى النبى ذلك .

ومع ذلك أسفر الإصلاح اليهودى الذى قام به الملك يوشيا قبل ذلك بسنوات قليلة عن تطهير الهيكل من الأصنام التى كان حافلاً بها [١٩]. فقد أمر ذلك الملك الكهنة كما جاء فى سفر الملوك : "أن يخرجوا من هيكل الرب جميع الأدوات المصنوعة للبعل والعشتاروت ولجميع جنود السماء فأحرقها" .

"وأزال الخيل التى أقامها ملوك يهوذا للشمس من عند مدخل بيت الرب وأحرق مراكب الشمس" .

ولكن شعب اسرائيل كان قد بلغ من الغرق فى الإشراك ما كان يتعذر معه على عزيمة ملك أو خطب نبى تخليصه منه .

وأمر يهوه ، القادر على كل شئ ، الحال بكل مكان بأن يصنعوا له صندوقاً يقبع فيه ، وبيّن أوصافه وحدد مقاييسه وعين اسم النجار الذى يعهد إليه فى صنعه ونوع الخشب الذى يتخذ منه وصور التماثيل التى يحلى بها غطاؤه ، وأسهب فى ذلك غاية الإسهاب [٢٠] ، ومن ذلك قوله: "وتصنع

غطاء من ذهب نقى ، طوله ذراعان ونصف وعرض ذراع ونصف وتصنع كروبين من ذهب صنعة خراطة تصنعهما على طرفى الغطاء ، فاصنع كروباً واحدا على الطرف من هنا وكروباً آخر على الطرف من هناك .. وأنا أجتمع بك هناك وأتكلم معك من على الغطا من بين الكروبين اللذين على تابوت الشهادة بكل ما أوصيك به إلى بنى اسرائيل"[٢١].

وقد كان هذا الإله الثاوى فى الصندوق محرم الرؤية واللمس على الناس باستثناء الكهنة وحدهم ، فمن انتهك هذا التابو فجزاؤه الموت الزؤام : "وضرب أهل بيتشمس لأنهم نظروا إلى تابوت الرب ، وضرب من الشعب خمسين ألف وسبعين رجلا"[٢٢] .

أما فى الوصايا العشر فنلاحظ أن نص الوصية الأولى يقول :

"أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية ، لا يكن لك آلهة أخرى أمامى "[٢٣].

وبالرغم من أن هذه الوصية تدعو إلى توحيد الألوهية ، فإن هذا التوحيد ليس مطلباً موجهاً إلى البشر جميعاً ، بل إلى بنى اسرائيل وحدهم [٢٤].

ولم يصل التوحيد إلى مجال العالمية إلا على يد الأنبياء أمثال عاموس وأشعيا، ومن الفقرات الدالة على التوحيد فى التوارة وفى أسفار الأنبياء ، حيث كنا قد شهدنا حركة إصلاح دينى تتجه بهم إلى فكرة التوحيد :

- "الرب هو الإله . ليس آخر سواه"[٢٥].
- "أنت هو الإله وحدك لكل الأرض أنت صنعت السموات والأرض"[٢٦] .
- "أيها الرب إلهنا خلصنا من يده فتعلم ممالك الأرض كلها إنك أنت الرب الإله وحدك"[٢٧].

ويظهر أنه بعد أن قربت عقيدتهم من التوحيد وتنزيه الإله من النقص ارتكست مرة أخرى ارتكاساً كبيراً فى العهد الذى ألف فيه التلمود (القرون الستة الأولى بعد الميلاد) .

فأسفار التلمود تظهر إلـه اسـرائيل متصفـا بكثـير مـن صفـات الحـوادث وصفات النقص ويبدو ذلك على الأخص فيما يذكره التلمود عن حسـن الإلـه وضخامة أعضائه وما يرونـه عـن نشـاطه وأعمالـه فـى الليـل والنهـار وعـن حالته بعد هدم الهيكل وتشريد بنى اسرائيل وما يقرره بصـدد تخصيـص أيـام من كل عام لعبادة إله آخر صغير ، وبصـدد حـرص الإلـه علـى أن تقدم لـه أضحية من الآدميين [٢٨] .

وورد فى بعض أسفار التلمود أن الله يقضى الساعات الثلاث الأولى من النهار فى مذاكرة الشريعة ، والساعات الثلاث الثانيـة فـى شئون الحكم بيـن الناس ، والساعات الثلاثـة التاليـة فـى تدبير العيش للخلـق . وأمـا السـاعات الثلاث الأخـيرة فيقضيهـا فـى اللعـب مـع الحـوت ملـك الأسـماك !!. وأمـا سـاعات الليـل فيقضيهـا الإلـه فـى مذاكـرة التلمـود مـع الملائكـة ومـع ملـك الشياطين الذى يصعد إلـى السـماء كـل ليلـة ثـم يهبـط منهـا إلـى الأرض بعـد انتهاء هذه الندوة العلمية [٢٩] .

ويشير التلمود كذلك أن الله يندم على تركه اليهود فى حالة التعاسة حتى إنه يلطم ويبكى كل يوم ، فتسقط من عينيه دمعتان فى البحر ، فيسـمع دويهـا من بدء العـالم إلـى نهايتـه ، وتضطـرب الميـاه وترتجـف الأرض فـى أغلـب الأوقات فتحصل الزلازل [٣٠] .

وأما تخطئة القمر لله ، فإنه قـال لـه أخطـأت حيـث خلقتنـى أصغـر مـن الشمس ، فأذعن الله لذلك واعترف بخطئه وقال : اذبحوا لى ذبيحة أكفر بهـا عن ذنبى لأنى خلقت القمر أصغر من الشمس .

والله ليس معصوماً من الطيش – كما يقول التلمود – لأنه حين يغضـب يستولى عليه الطيش ، كما حدث منه يـوم أن غضـب مـن بنـى اسـرائيل فـى الصحراء وحلف أن يحرمهم من الحياة الأبدية ، لكنه ندم بعد ذلك بعد إفاقته، ولم ينفذ ذلك القسم لأنه عرف أنه يخالف العدالة[٣١] .

البعث

تهتم اليهودية بالأعمال أكثر من اعتنائها بالإيمان ، وهى فى جوهرها أسلوب حياة لا عقيدة تعتقد ، وهى فى هذا تختلف عن المسيحية التى تعنى أكثر بالإيمان ، فالإتجاه الخلقى عند اليهود فى التصرفات اليومية أهم من الاعتقاد السليم . وتختلف اليهودية عن المسيحية كذلك فى مجال تفكيرها ، فمجال اليهودية ليس فيما وراء هذا العالم ، ذلك أنهم يرون أن الإنسان العائش على هذه الأرض هو مجال الإهتمام وفى دائرة المعارف العبرية ، يقرر كوهلر أن اليهودية ليست عقيدة أو نظاماً من العقائد يتوقف على قبولها الفداء أو الخلاص فى المستقبل ، ولكنها نظام للسلوك البشرى وناموس البر الذى يتحتم على الإنسان اتباعه [٣٢] .

وقرر الفكر اليهودى بناء على هذا أن الجزاء يكون حسب الأعمال لا حسب الاعتقاد "أشهد السموات والأرض على أنه سواء كان المرء يهودياً أم وثنياً ، رجلا أو امرأة ، حرا أو مقيدا ، فإنه سينعم بالجزاء حسب أعماله ودون سواها [٣٣]" .

ولما كانت اليهودية دين أعمال لا دين إيمان ، فمن الواضح تبعا لذلك ألا تتكلم عن الآخرة والبعث والحساب ، فتلك أمور تتوقف على العقيدة .

ومن هنا فمن خلال دراسة العهد القديم نجد أنه لم يمس العالم الآخر من قريب أو بعيد ، وكأنه اكتفى بالعقوبات الشديدة التى تنزل بالمجرمين ، أو لعله تأسى بديانة أخناتون ، دون ما سبقها من الديانات المصرية التى كانت تؤمن بالحياة الثانية ، بعد الموت . والمعروف أن اخناتون أغفل العالم الآخر بسبب محاربته الديانات الشعبية التقليدية ، حيث يحتل إله الأبدية (أوزوريس) مكاناً رئيسياً ، وربما كان بدوره أنشط أدوار الآله ، فإذا كان موسى (العهد القديم) من رجال اخناتون ، أو أحد دعاته ، واذا كان (الخروج) فى عهد أعداء اخناتون ، فقد كان على كتّاب العهد القديم أن يراعوا هذه العلاقات السياسية [٣٤] !.

وإن أول إشارة إلى البعث لانكاد نجدها قبل سفر (دانيال) . وإذا كان دانيال قد أشار إلى البعث وإلى الحساب والجزاء بقوله : "كثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء إلى الآبدية ، وهؤلاء إلى العار ، إلى الآزدراء الأبدى" (٣٥) ، فهذا دليل على تحول فى العلاقات السياسية والثقافية ، أو دليل على ما أصاب (التوارة) من تحريف ، إذ إنه يدون أثر الإتصال بالديانة الزرادشتية ، زمن الأسر الطويل ، وإبان الإتصال بدولة الفرس فى عهد قورش (المخلص) ، وهو احتمال يؤكده المؤرخ اليهودى الفريسى يوسيفوس بقوله : إن الفريسيين قد سلموا الشعب وصايا وفرائض تسلموها من الآباء ، وليست مما جاء فى شريعة موسى " (٣٦) .

ومن ثم لا يجد من بين فرقهم الشهيرة من يؤمن باليوم الآخر ففرقة الصادوقيين تنكر قيام الأموات وتعتقد أن عقاب العصاة وإثابة المتقين إنما يحصلان فى حياتهم . وفرقة الفريسيين تعتقد أن الصالحين من الأموات سينشرون فى هذه الأرض ليشتركوا فى ملك المسيح الذى سيأتى فى آخر الزمن ، لينقذ الناس من ضلالهم ويدخلهم جميعا فى ديانة موسى ، أى أن بعث هؤلاء سيحصل فى الحياة الدنيا ، فمهما يكن من خلاف بين الفرقتين فإنهما تتفقان فى إنكار اليوم الآخر (٣٧).

وقد ورد فى بعض فقرات التلمود ذكر للجنة والنار ، ولكن فى صورة مضطربة أدنى إلى الخرافة والأساطير ، منها إلى حقائق العقيدة، فتذكر هذه الفقرات أن الجنة تأوى إليها الأرواح الذكية وأنه لا يدخلها إلا اليهود ، وأن أهلها يطعمون من لحم أنثى الحوت المملحة ، كما يتناولون لحم طير كبير لذيذ الطعم ولحم أوز سمين وأن شرابهم فيها نبيذ معتق عصره الله فى اليوم الثانى من الأيام التى خلق فيها العالم ، وأن النار لغير اليهود من المسلمين والمسيحيين ومن إليهم . ويظهر أن بعض فرق غير شهيرة من فرق اليهود كانت تذهب فى عقيدتها إلى ظاهر ما يقرره التلمود فى هذه الفقرات ، فكانت تفسرها بمدلولها الحقيقى لا بمدلولها المجازى (٣٨).

وتجئ عبارة قريبة من "الآخرة" ألا وهى "يوم الرب" ، فعلى الرغم من كل ما يبدوفى العالم من دنس ، وما يبدو من شعب اسرائيل من إصرار على

التفريط فى عهده مع الرب ، فإن الرب أخيراً سيكون له مع الدنيا يوم عظيم، يذكره النبى عاموس فى القرن الثامن الميلادى للمرة الأولى بقوله : "ويل للمتمنين يوم الرب . لم ذالك ؟ إن يوم الرب لكم ظلمة لا نور ، كما إذا هرب إنسان من وجه الأسد فلقيه الدب ، أو دخل البيت وأسند يده إلى الحائط فلسعته حية ، أليس يوم الرب ظلمة لا نوراً؟ بل هو ديجور لا ضياء له" [٣٩].

ويبدو من فحوى هذا الكلام أن عاموس لم يخترع عبارة "يوم الرب" ولا الفكرة الكامنة فيها ، بل وجدها عقيدة شائعة بين قومه وفى عصره ، ولم يزد على أن نقلها منسوبة إلى أصحابها . ويبدو أن اليهود على عهد عاموس كانوا قد خلطوا بكثير من الحيلة والدهاء ، قضيتهم بقضية الله ، فهم ينتظرون يوم الرب ليحمل لهم انتصار شعب اسرائيل على الأمم الأخرى التى ستكون قد دانت لهم بالخضوع ، أما عاموس نفسه فواضح أنه يرى أن يوم الرب سوف يمتاز بانتصار العدالة الإلهية التى سيرتعد منها الشعب الاسرائيلى نفسه رعبا بسبب ما اقترفه من جرائم وآثام [٤٠].

ويشير جوستاف لوبون إلى أن اليهود ، على خلاف معظم الشرقيين كانوا يخشون الموت لما لا يبصرون وراءه سوى راحة كئيبة فى مكان مظلم[٤١] ، فقد راودت اليهود فكرة غامضة عن عالم تحفه الظلال ، عالم سفلى مظلم أطلقوا عليه (شيول) ، أو الهاوية ، وكان هذا العالم المظلم خارجاً عن سلطان يهوه ، واقتصر دين اسرائيل على الاهتمام بهذا العالم وشئونه[٤٢].

فحين جاء إخوة يوسف إلى يعقوب أبيهم بقميص يوسف ملطخاً بالدم ، حزن يعقوب ومزق ثيابه وقام أبناؤه يعزونه فأبى أن يتعزى وقال : "إننى أنزل إلى ابنى نائماً إلى الهاوية ، وبكى عليه أبوه" [٤٣] .

وجاء : "ولكن إن ابتدع الرب بدعة وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وكل ما لهم فهبطوا أحياء إلى الهاوية تعلمون أن هؤلاء القوم قد ازدروا بالرب"[٤٤]. وفى الهاوية تنقطع صلة الإنسان بالرب "لأنه ليس فى الموت ذكرك . فى الهاوية من يحمدك"[٤٥] ، ويوصى داود ابنه سليمان بأن يقضى

على يؤاب بن صروية فيقول له "... ولا تدع شيبته تنحدر بسلام إلى الهاوية"(٤٦).

ولا يكاد يخلو سفر من أسفار الكتاب المقدس من ذكر الهاوية على أنها العدم الذى لا حياة بعده " (٤٧).

وفى الأطوار الأخيرة من تطور الدين اضطر القوم إلى قبول عقيدة قيامة الأموات والحياة بعد الموت ، ولئن كان لدين الفرس بعض الأثر فى هذا التطور فإن هذه العقيدة كانت فى الواقع نموا داخليا فى هذا الدين ، وكان مردها إلى عوامل ثلاثة (٤٨):

أولها : الإحساس بعدالة الله ، وذلك من أجل النتيجة المنطقية التى أقحمها الإختبار البشرى على العقول ومؤداها أنه لابد أن يكون لله مجال أوسع من هذا العالم يزكى فيه عدله "وبعد أن يفنى جلدى هذا وبدون جسدى أرى الله"(٤٩).

ثانيها : الرقى المطرد فى الدين الشخصى وعلاقة الإنسان بالله "الله ليس إله أموات بل إله أحياء ، لأن الكل يحبون" ، وليس مستساغاً ولا مقبولاً أن أنفس البشر التى تستمع بمثل هذه الصلة مع الله تنحدر إلى اللاشيئية عند الموت " أما أنا فبالبر أنظر وجهك ، أشبع اذا استيقظت بشبهك"(٥٠).

ثالثها : توقع مجئ ملكوت الله بعد كل أسباب الفشل والخيبة التى عانتها الأمة ليحقق آمالها ، حتى يكون لهم نصيب فى ذلك اليوم المجيد كما قال اشعيا (٥١).

شعب الله المختار !!

الاعتقاد بتميز اليهود عن سائر أديان وأجناس وفئات البشر غيرهم، جزء أساسى من التفكير الاسرائيلى ، وذلك استنادا إلى ما ورد فى التوراة من وعود قالوا أن الله وعدها إياهم !(٥٢) ، فمن ذلك :

- "وقال الرب لإبرام : اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك ، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة وأبارك مباركك ، ولاعنك ألعنه ، وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض ... [٥٣]".

- "أنا الله القدير ، سر أمامي وكن كاملاً ، فاجعل عهدى بينى وبينك، وأكثرك كثيراً جداً . أما أنا فهو ذا عهد معك وتكون أبا لجمهور من الأمم وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمما ، وملوك منك يخرجون. وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم ، عهداً أبديا لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك ، كل أرض كنعان ملكاً أبدياً ، وأكون إلههم"[٥٤].

- "فتحفظون جميع فرائضى وجميع أحكامى وتعملونها لكى لا تقذفكم الأرض التى أنا آت بكم إليها لتسكنوا فيها . ولا تسلكون فى رسوم الشعوب الذين أنا طاردهم من أمامكم ، لأنهم قد فعلوا كل هذا فكرهتهم، وقلت لكم ترثون أنتم أرضهم وأنا أعطيتكم إياها لترثوها ، أرضا تفيض لبناً وعسلاً ، أنا الرب إلهكم الذى ميزكم عن الشعوب"[٥٥].

- "لأنك شعب مقدس للرب إلهك ، وقد اختارك الرب لتكون له شعبا خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض"[٥٦]...إلى غير ذلك من نصوص مشابهة .

وبحث الرب عن علامة مميزة لهذا (الشعب) من غيره ، فاهتدى إلى (الختان) ، وكان أن عاهد الرب إبراهيم " يختن كل ذكر ، وأما الذكر الأغلف الذى لا يختن فى لحم غرلته ، فتقطع تلك النفس من شعبها"[٥٧].

وينبغى ملاحظة أن هيرودوت الملقب بأبى التاريخ أخبرنا أن عادة الختان قد مورست منذ زمن طويل فى مصر ، وثبتت صحة هذا القول بفحص موميات المصرينن القدماء ، بل حتى من الرسوم الموجودة على جدران المقابر [٥٨].

وتحرص التوراة على بث النزعة إلى التطهير العرقي ، وهكذا فإن إبراهيم حين يكبر ويشيخ يحدث "عبدى كبير بيته المستولى على ما كان له" قائلا " ، "أستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض ألا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم ، بل إلى أرضى وعشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى إسحق"(٥٩).

وزيادة فى الحيطة والحرص على الطهارة والنقاء "أعطى إبراهيم إسحق كل ما كان له – مع أنه ليس بكره – وأما بنو السرارى اللواتى كانت لإبراهيم – ومنهن هاجر أم اسماعيل جد العرب – فأعطاهم إبراهيم عطايا ، وصرفهم عن إسحق شرقا إلى أرض المشرق ، وهو بعد حى"(٦٠) ، حتى لا يختلط نسل إسحق بغيره من نسل إبراهيم ، أو اسماعيل خاصة(٦١).

ويعتقد اليهود فيما سطره لهم حاخاماتهم أن اليهودى جزء من الله، كما أن الابن جزء من أبيه ، ولذلك جاء فى التلمود أنه إذا ضرب أمى (غير اسرائيلى) اسرائيليا فالأمى يستحق الموت . وأنه إذا لم يخلق اليهود انعدمت البركة من الأرض ، ولما خلقت الأمطار والشمس ، بل لما أمكن لباقى المخلوقات أن تعيش (٦٢).

والفرق بين درجة الإنسان والحيوان كالفرق بين اليهودى وباقى الشعوب.

وقال الرابى "كرونير" لا فرق بين الأجنبى والخارج عن دين اليهود على حسب التلمود ، والغريب هو الذى لا يختن ولا فرق بينه وبين الوثنى . واليهودى يتنجس إذا لمس القبور ، طبقا لما جاء بالتوارة ما عدا قبور سواهم من الأمم لأنهم يعتبرون بهائم لا أبناء آدم (٦٣).

وجائز لبنى اسرائيل على حسب تعاليم التلمود أن يغشوا الكفار لأنه يقول يلزم أن تكون طاهرا مع الطاهرين ودنسا مع الدانسين .

ويرى اليهود أن الإمتياز الذى حصل عليه الشعب اليهودى هو فى الوقت نفسه مسئولية عليهم ، وعدم رعايتهم هذه المسئولية بأمانة وصدق جعلهم هدفا للإنتقام ، ولذلك فإنهم يفسرون ما نزل بهم من ضرر بأنه عقاب

لهم على عدم حملهم الأمانة وعدم سيرهم بمقتضى ما منحوه من امتياز وتفوق . ويضيف مفكروهم - دفاعاً عما أصابهم من ويلات - أن اليهود لم يكونوا أكثر الناس خطايا ، ولا أبعدهم عن الصواب ، ولكن المصائب لحقت بهم أكثر من غيرهم لأن اختيارهم وتفضيلهم على سواهم ، كان يحتم عليهم أن يكونوا أكثر طاعة وأكثر استجابة ، فلما عصوا كان عقابهم أقسى مما نزل بسواهم على نفس العصيان (٦٤).

جاء فى التوراة : "أن الرب تراءى لسليمان .. وقال له ... إن كنتم تتقلبون أنتم أو أبنائكم من ورائى ولا تحفظون وصاياى ، فرائضى التى جعلتها أمامكم ، بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها ، فإنى أقطع اسرائيل عن وجه الأرض التى أعطيتهم إياها ، والبيت الذى قدسته لإسمى أنفيه من أمامى ويكون اسرائيل مثلاً وهزأة فى جميع الشعوب .. وهذا البيت يكون عبرة ، كل من يمر عليه يتعجب ويصفر، ويقولون : لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت ، فيقولون من أجل أنهم تركوا الرب إلههم الذى أخرج آباءهم من أرض مصر وتمسكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها . لذلك جلب الرب عليه كل هذا الشر" (٦٥).

وقد لعب الآباء الدومنيكان دوراً بارزاً فى الحملة الرامية إلى دحض الكتب الربانية اليهودية والتعاليم التلمودية ، فعكفوا على تعليم اللغة العبرية ، مثلما تعلموا العربية أيضا ، بغية الوصول إلى كتب اليهودية ومجادلتهم أو وضعهم فى مأزق حرج. وتأتى الكتب التى أعدها الراهب الدومينيكى رايموند مارتن (١٢٢٥-١٢٨٤) فى طليعة المحاولات التى عرفها القرن الثالث عشر فى هذا الشأن (٦٦).

والنقطة التى تستوقفنا هنا هى هذا الجدل الذى يرجع إلى منتصف القرن الثالث عشر خاصاً بتلك العبارة الشهيرة الواردة فى التلمود على لسان الربانى شمعون بن يوحاى : "اقتلوا من الأجانب أفضلهم وهشموا الرأس بين أحسن الأفاعى" (٦٧) ، هكذا وردت العبارة أثناء المناظرة التى جرت فى باريس سنة ١٢٤٠م بين المرتد نيقولاس دونين وبين الشارح التلمودى

الحاخام يحييل ، ثم ذكرها رايموند مارتن فى كتابه "خنجر الإيمان" أو "سيف الدين" Pugio Fidei الذى نشره عام ١٢٧٨.

وقد وردت العبارة المشار إليها فى صيغة أخرى بكتاب الحاخام نافيطوس أو"نافيطوس" حيث قال : "أنه يلزم أن يخرج النخاع من رأس الحية الأكثر وداعة ، فاقتلوا الأجود فيما بينهم ، أعنى من بين المسحيين"[٦٨]، و نجد الصيغة التالية فى النص الذى نشره حبيب فارس فى كتابه (صراخ البرى فى بوق الحرية والذبائح التلمودية "(مطبعة الجامعة ، مصر ، ١٨٩١، ص ص ٢٣٤ - ٢٣٥) ، يقول : "إننا نفهم من هذه العبارة أنه لابد من استخراج النخاع من رأس الحية الأكثر وداعة ، ونفهم أن المسيحيين يخفون أعز أولادهم فى منازلهم كما أخفى المصريون أنجب خيولهم فى بيوتهم . فعلينا إذا أن نسعى فى طلب أجود الأولاد وأزكى الدم ، وكل يهودى منا عليه واجب قتل مسيحى بالطريقة التى يقدر عليها" [٦٩].

النزعة الأسطورية والخرافية :

سجلت التوراة غير قليل من المعتقدات المؤسسة على المذهب الحيوى والسحر العاطفى ، ارتضاها أحبار بنى اسرائيل وأدمجوها فى أسفارهم المقدسة [٧٠].

- فالأبن يرث من أبيه آثامه كما يرث منه قسمات وجهه ، ومن ثم كان الأبن يؤخذ بجريرة أبيه .
- ومن الميسور أن تنقل الآثام كما تنقل الأثقال من كاهل إلى كاهل ، ومن هنا نشأ منسك نقل الذنوب من بنى الإنسان إلى تيس يطلقه الكاهن فى القفر :

"ويضع هارون يديه على رأس التيس الحى ويقر عليه بكل ذنوب بنى اسرائيل وكل سيئاتهم مع كل خطاياهم ويجعلها على رأس التيس ويرسله بين من يلاقيه إلى البرية ، ليحمل التيس عليه كل ذنوبهم إلى أرض مقفرة فيطلق التيس فى البرية"[٧١].

- اذا أغلى اللبن أصيبت البقرة التى أدرته بجفاف ضرعها ، فثم صلة بين أنثى الحيوان ولبنها تظل قائمة بعد أن تدره [٧٢] ، ولهذا نجد إحدى الوصايا الموسوية العشر (فى صيغتها القديمة) تنهى عن الجمع بين اللحم واللبن على مائدة واحدة "لا تطبخ جدياً بلبن أمه"[٧٣] .

وبعد الطوفان ، حدث الرب نوحا - عليه السلام - بقوله :

"وضعت قوسى فى السحاب ، فتكون علامة ميثاق بينى وبين الأرض ، ويكون منى أنشر سحاباً على الأرض ، وتظهر القوس فى السحاب ، أنى أذكر ميثاقى الذى بينى وبينكم وبين كل نفس حية فى كل جسد ، فلا تكون أيضا المياه طوفاناً لتهلك كل ذى جسد"[٧٤].

والتاريخ يحدث بأكثر من طوفان غير طوفان نوح ، ومع أن قوس قزح كثيراً ما يظهر عقب المطر ، فإن المطر فى أحيان كثيرة يستمر مع ظهوره وبعد ظهوره ، ولكن مع هذا يمكن فهم العبارة على أساس أن ظهور هذا القوس مؤذن بإنقطاع المطر ، وتكون الصورة جرت فى إطار رمزى ، أو على سبيل (حسن التعليل) ، أو يقصر المطر على الطوفان الذى قد يتسع مدلوله لهذا الذى يتكرر حدوثه فى شرق آسيا ، وفى أنحاء مختلفة من العالم التى تفيض فيها مياه البحار والأنهار مع شدة العواصف فتجتاح أقطاراً ودولاً كبرى [٧٥].

وقد لا يكون اعتراض على العبارة فى إطار الواقع الفنى ، لكن أن يظهر الرب قائداً لبنى اسرائيل فى صورة من الصورة المرئية ، فيتحركون بحركته "قد ظهرت لهم عينا لعين ، وسحابتك واقفة عليهم ، وأنت سائر أمامهم بعمود سحاب نهاراً ، وبعمود نار ليلاً" [٧٦] ، فهذا ليس من الخيال البيانى فى شئ ، مجازاً أو استعارة أو كناية ، ولعله أدخل فى حساب الأسطورة ، إذا كانت الأسطورة صورة الحقيقة فى إطار خيال فطرى يأخذ طابع الرمز ، أو الإنطباع الداخلى ، فى بساطة أو بدائية .

ومثل هذا الحكم ينطبق على ما ورد فى سفر (التكوين) ، مما يتصل بقصة الخلق ، وقصة الطوفان ، وأسطورة بابل ، وغيرها من قصص الآباء

الأولين ، إذ يرى كثير من المؤرخين أن معظمها يستمد أصوله من الأساطير المصرية القديمة أو البابلية أو الأشورية (٧٧) .

ويزخر التلمود بشتى أنواع الخرافات ، منها :

- ***التنجيم*** : يعتقد التلمود اعتقاداً جازماً بأن التنجيم علم يتحكم فى حياة الإنسان ، فالنجم يجعل الإنسان ذكياً أو غنياً . يقول الحاخام شانينا Canina "إن تأثير النجوم تجعل الرجل ذكياً ، وتأثيرها يجعله ثرياً . و(بنو اسرائيل) ، تحت تأثير النجوم" (٧٨)، ولكن الحاخام يوحنان Johannan اعترض عليه قائلاً "(بنو) اسرائيل ليسوا تحت تأثير النجوم، واستند فى ذلك إلى ما جاء فى التوارة من ضرورة ألا يسير اليهودى على طريق غير اليهودى وألا يفزع من آيات السماء" (٧٩).

  ويقول التلمود : "إن كسوف الشمس آية سوء للشعوب ، وخسوف القمر آية سوء لبنى اسرائيل ، لأن اسرائيل تعتمد فى بقائها على القمر ، وشعوب الأرض تعتمد على الشمس" (٨٠).

- والتلمود يمتلئ بطقوس السحر والشعوذة والعرافة ، يقول الحاخام راوهونا Rav Huna " كل منا يوجد على شماله ألف (من العفاريت) ويجد على يمينه عشرف آلاف" (٨١) !

وجاء فى التلمود أيضا ، أن مساء كل يوم جمعة تدخل روح جديدة فى الأجسام (الميتة فى القبر) وتبقى حتى انتهاء السبت ، حيث تغادر الجسم ، ولزم إتيان هذه الروح الجديدة بسبب الرغبة المتزايدة فى الأكل والشرب . وأما بعد الموت فتحلق الروح على الجثة ثلاثة أيام ، تنوى الرجوع إليها ولكنها عندما ترى أن شكل الوجه تغير تتركها وتذهب بعيداً (٨٢).

ويؤكد صبرى جرجس (٨٣) ، أن الإنطباع العام الذى يبقى فى نفس قارئ التوارة ككتاب تاريخ أنها لا تكاد تزيد عن كونها مجموعة من الخرافات والقصص التى صيغت فى جو أسطورى حافل بالإثارة مجافٍ للعقل والمنطق ، غاص بالمتناقضات ، مشبع بالسخط ، مفعم بمشاعر العدوان والتعطش إلى الدماء . وهذا الإنطباع الذى يصطدم على الفور بما

كان القارئ يتوقع أن يجد فيها ككتاب تاريخ يصبح مفهوماً ومعقولاً اذا نحى عنها هذه الصفة ونظر إليها فى ضوء العصر الذى روت أخباره والحضارات التى اتصلت بها من ناحية والأفراد الذين قاموا على كتابتها والأهداف التى قصدوا إليها من ذلك من ناحية أخرى ، فإنها فى هذا الضوء تعكس تفكيراً بشرياً محضاً من اللون الذى كان سائداً فى الشرق الأدنى القديم فى ذلك الحين ومرادفاً لأمثاله من الأساطير والطقوس والإتجاهات الفكرية والعقائدية المميزة لحضارات ذلك العصر . كل ذلك فى إطار سمات نفسية تغذيها نزعات الجشع والغرور والاستعلاء وتحركها دوافع الجنس والعدوان الذى لا يهدأ حتى مع الدم المراق !

ولم يكف نمو سلطان الكهنة وانتشار التربية الدينية لتكرير عقول العبرانيين من الخرافات والأوهام ومن عبادة الأوثان ، بل ظلت تلل التلال ، والحراج مأوى للآلهة الأجنبية ، ومشهداً للطقوس الخفية، وظلت أقلية كبيرة من الشعب تسجد للحجارة المقدسة ، أو تعبد بعل وعشتروت ، أو تتنبأ بالغيب على الطريقة البابلية ، أو تقيم الأنصاب وتحرق لها البخور ، أو تركع أمام الحية النحاسية أو العجل الذهبى ، أو تملأ الهيكل بضجيج الحفلات الوثنية ، أو ترغم أطفالها على أن "يجوزوا فى النار "من قبل التضحية ، بل إن بعض الملوك أنفسهم مثل سليمان وأهاب كانوا "يتملقون" الآلهة الأجانب ، وقام رجال صالحون كإليا واليشع ينادون بإبطال هذه العادات ، وإن لم يصبحوا بعد كهنة ، وحاولوا أن يهدوا الناس إلى الطريق الحق باستقامتهم وحثهم على الاقتداء بهم [٨٤].

الفكر السياسى والاجتماعى :

كان بنوا اسرائيل خلال الألف الثانية قبل الميلاد رعاة أغنام ، وانخرطوا فى قبائل وعشائر وأسر ، ويقال للقبيلة "سبط ، ويطلق على العشيرة "حى" و "عم" وبالأخص "مشفحة" من سفح أى صب وأراق . وتعرف الأسرة "بالبيت" . وقد يصل عدد العشيرة إلى ثلاثمائة شخص، ويتساوى أعضاءها فى الحقوق والواجبات ويلتزمون بالأخذ بالثأر ويتعرضون لثأر الغير . فالعشيرة هى الوحدة الاجتماعية ويعتقد أعضاؤها

أنهم من دم واحد ، ويعتبرون أنفسهم أخوة ، وتقوم الرابطة بينهم على أساس من التضامن الاجتماعى ، ويحتفل بها عن طريق الختان الذى يولد رابطة الدم بين العضو والعشيرة [٨٥].

ثم تحول بنو اسرائيل من حياة الرعى إلى الزراعة عندما اغتصبوا أرض كنعان واستقروا فيها ، فسرعان ما تلاشت الملكية وظهرت تدريجياً الملكية الفردية ربيبة الزراعة الراقية فى العالم .

وقد حلت – نتيجة لتلاشى الملكية الجماعية – الأسرة محل العشيرة ، الأسرة القاصرة على الأبوين وأولادهما المقيمين تحت سقف واحد وزال التضامن السابق بين الأعضاء ولم تزر وازرة وزر أخرى، فبعد أن كان "يهوه" يتعقب ذنوب الآباء فى الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع أصبح لا يقتل الآباء عن الأبناء ولا الأبناء على الآباء ، وإنما يجازى كل امرئ وفقا لما أتاه [٨٦].

واذا كان مبدأ (المساواة) ، قد ساد فى بداية استقرار بنىاسرائيل فى أرض كنعان وفق شريعتهم ، إلا أنهم لم يلبثوا أن تنكروا لهذه الشريعة واعتدى كل منهم على حقوق الآخر ، فاختل الميزان ، وظهر بينهم الأغنياء والفقراء ، ولم تفتأ الهوة تزداد اتساعاً بين أولئك وهؤلاء حتى أصبحوا طبقتين متميزتين متعاديتين ، وقد حدث ذلك على الخصوص فى عهد ملوك اليهود ولا سيما فى عهد سليمان ، ولم يكن الفقراء ولا سيما الأرامل واليتامى يلقون على العموم من الأغنياء الذين كانت منهم الطبقة الحاكمة إلا كل ظلم وعنت ، ولذلك قال أشعيا النبى أنهم " لا يقضون لليتيم ، ودعوى الأرملة لا تصل إليهم" [٨٧] ، وقال حزقيال النبى أنهم " اضطهدوا اليتيم والأرملة ... شعب الأرض ظلموا ظلماً وغصبوا غصباً واضطهدوا الفقير والمسكين وظلموا الفقير بغير حق"[٨٨] . وقال عاموس النبى " من أجل إنكم تدوسون المسكين وتأخذون منه هدية قمح ، بنيتم بيوتاً من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها ، وغرستم كروما شهية ولا تشربون خمرها .. أيها المضايقون البار الآخذون الرشوة الصادون البائسين عن الباب"[٨٩] ، وقال : "ويل للمستريحين فى صهيون والمطمئنين فى جبل السامرة .. المضطجعون

على أسرة من العاج .. والآكلون خرافاً من الغنم .. الشاربون من كؤوس الخمر .. يقول رب الجنود إني أكره عظمة يعقوب وأبغض قصوره .. ها أنذا أقيم عليكم يابيت اسرائيل يقول الرب إله الجنود أمة فيضا يقونكم من مدخل حماه إلى وادي العربة" (٩٠).

وكان ثمة في المجتمع اليهودي طبقة أخرى تفوق طبقة الفقراء في التعاسة والبؤس ، وهي طبقة العبيد ، إذ كان العبد عند اليهود كما كان عند غيرهم من الشعوب في تلك العصور يعتبر من أملاك سيده ، التي يملك حق التصرف فيها كيف يشاء ، فضلاً عن أن أخلاق اليهود كانت تجعل حياة عبيدهم أسوأ من حياة العبيد لدى أي شعب آخر من الشعوب(٩١). وكان اليهود اذا هاجموا مدينة فاستسلمت لهم دون قتال ، يأخذون كل أهلها عبيداً ، كما أنهم كانوا يستعبدون أسرى الحروب النازلين عندهم من الشعوب الأخرى ، وكانوا أحيانا يسخرون كل الأجانب المقيمين في بلادهم تسخير العبيد .

ويحرم الزواج بين اليهود وغيرهم ، ويسمي اليهود في كتب الشريعة الاسرائيلية "كفاراً" يستوي في ذلك المسلمون والمسيحيون والوثنيون والزنادقة ، وعلى هذا يعتبر الزواج المعقود بين يهودي وكافرة أو العكس باطل ، والحياة الزوجية القائمة بينهما تعتبر فجوراً وزناً مستمرين ، والأولاد الذين يولدون من هذه المعاشرة المرذولة يعتبرون أبناء زناً (٩٢).

ومن طرائف الشريعة الخاصة بالأحوال الشخصية ، أن أرملة اليهودي الذي مات ولم ينجب منها ، يجب تزويجها لأخيه الأعزب على وجه الإجبار ، فإذا أنجب منها فإن المولود لا يحمل اسمه وإنما يحمل اسم أخيه الميت وينسب إليه وإذا امتنع أخو المتوفي عن هذا الزواج ، فإنه يشتهر به ويخلع من المجتمع الاسرائيلي ، وتسمي الشريعة الاسرائيلية المرأة التي تؤول إلى أخي زوجها الميت "يبامة"(٩٣)، جاء في التوارة "إذا أقام أخوان معا، ثم مات أحدهما وليس له عقب ، فإن زوجة الميت لا تصير إلى الخارج لرجل أجنبي ، بل أخوه يدخل عليها ، ويتخذها زوجة له ، ويقيم عقباً لأخيه، ويكون البكر الذي تلده منه هو الذي يخلف اسم أخيه الميت فلا يندرس اسمه من اسرائيل ، فإن لم يرض الرجل أن يتزوج إمرأة أخيه ، تصعد إمرأة أخيه

إلى الباب ، إلى الشيوخ ، وتقول قد أبى أخو زوجى أن يقيم لأخيه اسما فى اسرائيل ، ولم يرضنى زوجة ، فيستدعيه شيوخ مدينته ويكلمونه فى ذلك ، فيقف ويقول أنى لا أرضى أن اتخذها ، فتتقدم إليه إمرأة أخيه ، بحضرة الشيوخ ، وتخلع نعله من رجله وتبصق فى وجهه ، تجيب قائلة هكذا يصنع بالرجل الذى لا يبنى بيت أخيه ، فيدعى فى آل اسرائيل بيت المخلوع النعل"(٩٤).

وتثبت التوراة قانون القصاص صراحة على أنه المبدأ الأساسى لقانون العقوبات ، وهذا المبدأ يكرر ويؤكد فى مواضع أخرى من التشريع العبرى ، وهو مأخوذ عن عادة سادت النظام القبلى القديم ، وقد ورد فى قانون حمورابى فاستقر فى تشريعات الشرق الأدنى القديم، وهو مرتبط بمبدأ المسئولية الجماعية ، أى أن تشترك الأسرة كلها (أوالعشيرة أو القبيلة على حسب الأحوال) ، فى واجب الثأر للفرد منها إذا ناله ضرر من شخص لا ينتمى إلى الجماعة (٩٥) .

أما بخصوص (المرأة) فيقول "بابا بترة" : ما أسعد من رزقه الله ذكوراً، وما أسوأ حظ من لم يرزق بغير الإناث ، نعم لا ينكر لزوم الإناث للتناسل إلا أن الذرية كالتجارة سواء بسواء ، فالجلد والعطر كلاهما لازم للناس إلا أن النفس تميل إلى رائحة العطر الزكية ، وتكره رائحة الجلد الخبيثة ، فهل يقاس الجلد بالعطر (٩٦) ؟

وقد ورد بالتوارة : "درت أنا وقلبى لأعلم وأبحث ولأطلب حكمة وعقلاً، ولأعرف الشر أنه جهالة ، والحماقة أنها جنون ، فوجدت أمرّ من الموت المرأة التى هى شباك وقلبها أشراك ، ويدها قيود" (٩٧).

الفكر الفلسفى

فيلون : ابتداء من نهاية العصر القديم ، وربما كان ذلك فى أواسط القرن الثانى ق.م – وطوال القرنين الميلاديين الأول والثانى ، لدينا دلالات واضحة على قيام مدارس يديرها معلمون خصصوا أنفسهم لها وحياتهم كلها. فى هذا الوقت قامت بالاسكندرية مدارس تعلم الفلسفة الأفلاطونية ، وتحيى

فى عقول الشباب الاهتمام بهذه الفلسفة . وأدى هذا الإحياء منذ بدايته تقريبا إلى نشأة مفكرين ربما لم يكونوا فلاسفة بالمعنى الدقيق ، وإن كانت لهم أصالة واضحة فى تفكيرهم ، وفى إفادتهم من فلسفة أفلاطون التى تعلموها بالمدرسة ، وفى توجيههم لتلك الفلسفة إلى أغراض لم تكن كلها فلسفية ، وعلى رأس هؤلاء "فيلون" اليهودى السكندرى الذى توفى عام ٤٠ م [٩٨].

ويمتاز فيلون عمن سبقه من المفكرين اليهود بأننا نجد لديه لأول مرة الحقيقة الدينية وقد وضعت فى صيغة فلسفية ، والمبادئ العقلية الصرفة التى تقوم عليها الحقيقة الدينية ، كما نجد المعارضة بين ما يقتضيه العقل وبين ما يقوم به النقل واضحة مشعوراً بها كل الشعور ، فقد كان التفكير اليهودى فى الاسكندرية إلى ما قبل ذاك التاريخ لا يكاد يتجاوز هذه التأثيرات البعيدة التى غزت الاسكندرية فى ذلك العصر ، مما أدى إلى قيام نهضة فى الفكر اليهودى فى الاسكندرية كان مظهرها الأول ترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية[٩٩] ، ولكن الشخصيات التى عنيت بالوقوف موقفاً خاصاً بإزاء هذه الحقائق التى أتت بها الفلسفة اليونانية لم تكن بذات نتيجة كبيرة ، ولذلك جاءت أبحاثها أقرب ما يكون إلى اللاهوت وعلم الكلام منها إلى الفلسفة - بالمعنى الصحيح ، وإنما نجد ذلك ممثلا لأول مرة عند فيلون الذى استطاع أن يجمع بين الثقافة اليونانية - وقد حصّل معظم أجزائها واستطاع أن يحيط بها إحاطة كبيرة - وبين التفكير اليهودى الذى كان يؤمن به إلى جانب هذا إيمانا كبيراً ، فلم يكن له حينئذ أن يرفض الواحد لحساب الآخر ، وإنما كان ممثلا لذلك النوع من الفكر الذى هو خليط بين الفلسفة والدين أو بين التفكير العقلى والفهم النقلى ، مما يجعل لفيلون فى هذا الباب أهمية خاصة ، خصوصاً إذا لاحظنا أننا نستطيع أن نعده النموذج الأعلى الأول لكل تيار فكرى سار فى هذا الاتجاه مما تراه واضحا كل الوضوح فيما بعد فى الفلسفة المسيحية أو فى الفلسفة الإسلامية[١٠٠].

وقد وجد فيلون فى "التأويل الرمزى" وسيلة للتوفيق بين التفكير الدينى الذى يقوم أصلا على "الإيمان" ، وبين التفكير الفلسفى الذى يقوم على "العقل" بالدرجة الأولى .

فلقد كان يهود الاسكندرية يشرحون التوراة شرحاً رمزياً ، على غرار شرح الفيثاغوريين والأفلاطونيين والرواقيين لقصص الميثولوجيا وعبادات الأسرار ، فقالوا أنها تمثل قصة النفس مع الله ، تدنو النفس مع الله بقدر ابتعادها عن الشهوة فتصيب رضاه ، وتبتعد منه بقدر انصياعها للشهوة فينزل بها سخطه . وكانوا يؤلون الإصحاح الأول من سفر التكوين مثلا بأن الله خلق عقلا خالصا فى عالم المثل هو الإنسان المعقول ، ثم صنع على مثال هذا العقل عقلاً أقرب إلى الأرض (آدم) ، وأعطاه الحس (وهى حواء) معونة ضرورية له ، فطاوع العقل والحسّ وانقاد للذة (الممثلة بالحية التى وسوست لحواء) ، فولدت النفس فى ذاتها الكبرياء (وهو قابيل) وجميع الشرور ، وانتفى منه الخير (وهو هابيل) وماتت موتاً خلقياً . وعبور البحر الأحمر يؤول بأنه رمز لخروج النفس من الحياة الحسية ، وسبعة أغصان الشمعدان بأنها رمز للسيارات السبع ، والحجران الكريمان اللذان يحملهما الكاهن الأكبر ، بأنهما رمز للشمس والقمر أو لنصفى الكرة الأرضية ، والآباء الذين يعود إليهم إبراهيم ، بأنهم رمز للكواكب ، أو للعناصر الأربعة، أو للمثل ، والفصح بأنه رمز لترك النفس للجسم وشهواته (١٠١) ، ... الخ.

يصطنع فيلون هذا الضرب من التأويل ، غير أنه يقف فيه عند حد، ويقبل المعنى الحرفى ، لإيمانه الوطيد بالله وشريعته وبالتقاليد القومية وإن كان يتابع الفلسفة أحيانا على خلاف قصد الشريعة.

والغاية من الفلسفة عند فيلون ، هى أن تكون مؤدية إلى الخلاص. والخلاص هنا يجب أن يفهم بالمعنى الدينى ، أى تخلص المتناهى (الإنسان)، من حالة التناهى (الحسية والمادية) للوصول إلى حالة اللامتناهى (حياة الروح وعالم الله) ، وهو ما سيعبر عنه فى المسيحية فيما بعد بفكرة الخلاص من الخطيئة . وإذا كانت تلك غاية الفلسفة ، فعليها أن تبين لنا الطريق المؤدى إلى هذا الخلاص ، وهذا الطريق هو إمكان عودة الفانى إلى حالة اللامتناهى ، ويمكن أن يسلك فى مرحلتين: مرحلة الشك ، ثم مرحلة التصوف ، وكل تصوف من هذا النوع إنما تسبقه حالة شك (١٠٢) ، وذلك أن الإنسان فى نظرية المعرفة، إنما عليه أن ينظر فى نفسه فإدراك المرء لذاته، يجب أن يكون نقطة البدء فى كل تفسير فلسفى ، وحينما يبحث الإنسان فى

ذاته ، يكون نقطة البدء فى كل تفسير فلسفى وحينما يبحث الإنسان فى ذاته يجد أنه قابل لكثير من الأغلاط .

وتحصيل (الخلاص) إنما يتم بأن يتجه الإنسان بعد ذلك إلى التشبه بالله: ذلك أنه يجب على الأنسان أن يتخلص من الحال التى هو عليها ولا يتم له ذلك إلا بأن يفنى نفسه فى الله ، وهذا الفناء يتم عن طريق التصوف [١٠٣].

والسبيل إلى هذا ثلاثى : فهو يكون **أولا** عن طريق المجاهدة ، **وثانيا** عن طريق العلم ، **وثالثا** عن طريق اللطف الواهب للقداسة . والدرجة الأولى هى أدنى الدرجات ولذا لا تليق فى الواقع إلا بالمريدين ، فهى أدنى من التعليم أو العلم ، لأننا فى حالة العلم نصل إلى إدراك الخلاص بطريقة واعية ، فنستطيع أن نعرف بالضبط الطريق المؤدية إليه ، وهى فى مرتبة أدنى من "اللطف الواهب للقداسة" ، لأن هذا النوع الأخير يأتى إلى الإنسان مباشرة عن الله ، بدون أدنى حاجة إلى المجاهدة ، كما أنه مرتبة عليا من المعرفة ، ولهذا يقول فيلون : إن الدرجتين الأولى والثانية من شأن المريدين والسالكين ، أما الدرجة الأخيرة فمن شأن "الكمّل"[١٠٤].

ويذكر فيلون أنه وجد مشجعاً نحو المعرفة الحقة ونحو التصوف الحق . إنه وجد مثالاً عملياً حياً على هذه المعرفة ، أو على محاولة بلوغها واكتسابها عند جماعة يقول عنهم أنهم كانوا عاشين بالقرب من الاسكندرية وبجوار بحيرة مريوط ، جماعة من الناس وهبوا حياتهم لمعرفة الله ، وعملوا على التطهر من كل شئ عالمى فى سبيل تلك المعرفة [١٠٥] .

"إن بيوتهم غاية فى البساطة ، لا متباعدة كل التباعد ولا متقاربة كل التقارب . فى كل منها صوامع ، يعمل كل واحد منهم على الانفراد فيها لممارسة شعائر الحياة الكاملة . يعتكفون فيها للتفكير فى الله . ويصلون إليه فى اليوم مرتين : مرة فى الصباح ومرة فى المساء ، فعند طلوع الشمس يلتمسون أن تمتلئ قلوبهم بنوره السماوى ، وعند غروبها يلتمسون أن تتحرر من وطأة الإحساسات والمحسوسات ليتفرغوا كلية للحقيقة الكاملة" .

من هم الذين يتكلم عنهم فليون فى مواضع عدة من كتبه ؟

يغلب على الظن أنهم جماعة من أتقياء اليهود مارسوا حياة الزهد والعبادة فى أماكن معينة من فلسطين ، ثم فى مصر بالقرب من الاسكندرية ، ويرجح بعض المؤرخين أن منهم خرج هؤلاء الذين اكتشفت مخطوطاتهم أخيراً بقمران بالقرب من البحر الميت ، ومنهم أيضا خرج بعض تلاميذ المسيح . ومهما يكن من هذه الافتراضات ، فإن رهبان فيلون كانوا يمثلون فى نظره محاولة أنموذجية للتأمل الروحى الدينى ، ذلك التأمل الذى ينتهى عند الرؤية ، وعند الذوق أيضا . لذلك اعتبرهم فى نهاية المطاف الإنسانى ، فى غاية الرحلة التى تبدأ بالأفلاك وتنتقل إلى النفس (١٠٦) .

موسى بن ميمون : ورغم أن الفيلسوف التالى لم يعش العصر الذى نؤرخ له وهو العصر القديم حتى ظهور المسيحية ، إلا أننا اخترناه لسببين :

الأول : أن نظراته الفكرية تتناول التوراة والتلمود وهما أصل الثقافة والتربية والشخصية اليهودية .

الثانى: أن بنى اسرائيل لم تقم لهم قائمة بعد ظهور المسيحية كشعب موحد ، وإنما تفرقوا فى عديد من المجتمعات التى كان لابد أن تكتسب كل مجموعة منها خصائص المجتمع الذى أقامت فيه وتخضع لتطوره التاريخي . ولما لم يعد لهم "تاريخ" يجعلنا نكمله فيما بعد ، يكون من المهم التأمل فى صورة من صور الفكر اليهودى فى عصر اسلامى وبالتالى فهو يمثل نموذجاً لتفاعل ثقافيتن . فمثلما تمثل أراء فيلون التفاعل بين الثقافة اليهودية والثقافة اليونانية ، فإن آراء فيلسوفنا الحالى هى تعبير عن التمازج بين الثقافة الإسلامية والثقافة اليهودية.

أما فيلسوفنا المعنى فهو (***موسى بن ميمون***) الذى ولد بقرطبة عام ١١٣٩م (أو ١١٣٥ م كما يرى بعض آخر) ، وتوفى عام ١٢٠٥ م .

وقد درس جيداً آراء ابن طفيل وابن رشد ، وتتلمذ عليهما ، واستوعب جيداً كتب أرسطو (١٠٧).

وأهم ما كتبه هو *"دلالة الحائرين"* ، ويستوقفنا فيه أنه كتبه بهدف (التعليم) وذلك بناء على إلحاح تلميذه يوسف بن عقنين ، وذلك بعد أن ذاع صيته بين اليهود بفضل سابق نشره كتابين عن تفسيِر المشنا والتشريع الاسرائيلى . وهنا لا بد لنا من التوقف طويلا أمام مقدمة (دلائل الحائرين) لمعرفة هذا القصد التعليمى [١٠٨].

" أيها التلميذ العزيز ، لما مثلت بين يدى وقصدت إلىّ من أقاصى البلاد للقراءة علىّ ، عظم شأنك عندى بشدة حرصك على الطلب . ولما رأيت فى أشعارك ومقاماتك التى وصلتنى وأنت مقيم بالاسكندرية من شدة الاشتياق للأمور النظرية ، وقبل أن أمتحن تصورك قلت : لعل شوقه أقوى من إدراكه ، فما قرأت علىّ ما قرأته من علم الهيئة وما نقدم لك مما لابد منه زدت بك غبطة لجودة ذهنك وسرعة تصورك ، ورأيت شوقك للتعليم عظيماً، فتركتك للإرتياض فيه لعلمى بما لك ، فلما قرأت علىّ ما قد قرأته من صناعة المنطق تعلقت آمالى بك ورأيتك أهلا لأن تكشف لك أسرار الكتب النبوية حتى تطلع منها على ما ينبغى أن يطلع عليه الكاملون ، فأخذت ألوح لك تلويحاً وأشير لك بإشارات فرأيتك تطلب منى الإزدياد . وسُمْتنى أن أبين أشياء من الأمور الإلهية ، وأن أخبرك بمقاصد المتكلمين وطرائقهم .. وآمرك أن تأخذ الأشياء بترتيب قصداً أن يتضح لك الحق بطرقه ، لا أن يقع اليقين بالعرض . ولم أمتنع طول اجتماعك بى إذا ما ذكر نص من نصوص الحكمة فيه تنبيه على معنى غريب - من تبيان ذلك لك ، فلما قدر الله الإفتراق ، وتوجهت إلى حيث توجهت أثار فى تلك الاجتماعات عزيمة كانت قد فترت ، وحركتنى غيبتك لوضع هذه المقالة لك ولأمثالك ، وقليل ما هم ، وجعلتها فصولا منثورة ..." .

ولم يقصد موسى بمصنفه هذا ، جمهور الناس ، أو المبتدئين بالنظر لأنه يرى "أن يخفى عنه ويمنع من التعرض له كما يمنع الطفل عن تناول الأغذية الغليظة ورفع الأثقال" ، بل كان نصب عينيه "الجماعة من الذين أخذوا أنفسهم بالكمال الإنسانى وإزالة الأوهام السابقة ، وهو ما ألف الكتاب إلا لمن تفلسف وعرف ما قد بان من أمر النفس وجميع قواها" ، كما لم يقصد به "تفهم حملته للجمهور ولا تعليم من لم ينظر إلا فى علم الشريعة ،

بل وضع لمن هو كامل فى دينه وخلقه ونظر فى علوم الفلسفة وعلم معانيها، وجذبه العقل الانسانى وقاده ليحله فى محله ... [١٠٩].

والهدف الأسمى الذى يرمى إليه موسى بن ميمون هو أن يلقى أشعة من أنوار الفلسفة والمنطق والعقل على الإيمان والشعور "العقل الفائض علينا هو الصلة بيننا وبين الله تعالي" . وهو يقصد إلى التوفيق بين الدين والفلسفة و"الحكمة المقولة بإطلاق فى كل موضوع هى الغاية، هى إدراكه تعالى" . كما يقصد إلى التوفيق بين موسى كليم الله وأرسطوطاليس زعيم الفلاسفة حتى ينظر العالم إلى الدين عن طريق المنطق والعقل وحتى لا يطلب الحق والعلم فى أفق الدين وحده بل فى ميدان الفلسفة أيضا ، وقد رفع بذلك الفلسفة والفلاسفة إلى مصف واحد مع الدين وكبار مفكرى الدين [١١٠].

والشريعة فى نظر ابن ميمون ترمى إلى صلاح النفس وصلاح البدن . أما صلاح النفس فهو بأن تتوفر للجمهور آراء صحيحة بحسب طاقته ، يكون بعضها صريحاً وبعضها بمثال ، إذ ليس فى طاقة الجمهور من العامة أن يدرك ذلك الأمر على ما هو عليه . وأما صلاح البدن فهو بإصلاح أحوال المعايش ، وهذا يتم فيه بشيئين ***أحدهما*** : رفع الظلم وهو أن لا يبيح كل شخص من الناس لنفسه ما يريد وما تصل إليه قدرته ، بل يقصده إلى ما به نفع الجميع ، ***والثانى:*** إكساب كل شخص من الناس أخلاقً نافعة فى المعاشرة حتى ينتظم أمر المدينة . ولا يحصل القصد الأول ، أى صلاح النفس الذى هو الأشرف إلا بعد حصول الثانى ، أى صلاح البدن . وقد برهن ابن ميمون على أن للإنسان كمالين هما : كمال الجسد وكمال النفس ، فكماله الأول أن يكون صحيحاً على أحسن حالاته الجسمية ، وكما له الآخر هو أن يكون ناطقاً بالفعل أى أن يكون له عقل بالفعل ، فالشريعة الحقة إنما جاءت لتفيدنا الكمالية ، أى صلاح أحوال الناس بعضهم مع بعض برفع الظلم وبالتخلق بأخلاق الكريم الفاضل حتى يحصل كل واحد على كماله الأول ، وصلاح الاعتقادات وإعطاء آراء صحيحة حتى يحصل على الكمال الآخر [١١١].

ومن جملة أغراض الشريعة الموسوية الكاملة كما فسّر ابن ميمون إطراح الشهوات والتهاون بها وكبحها بقدر الإمكان ، وأن لا يقصد منها إلا الضرورى .ومن المعلوم أن معظم شره الجمهور ، إنما هو النهم فى الأكل والشرب والنكاح ، وهذا هو المعطل لكمال الإنسان لأن تتبع مجرد الشهوة يبطل التطلعات النظرية ، ويفسد البدن ، ويقضى على الإنسان قبل عمره الطبيعى له ، ويكثر الهموم والتباغض والتنازع، فلذلك كان من لطف الله جل اسمه أن شرع شرائع تعطل تلك الغاية وتصرف الفكرة عنها بكل وجه ومنع من كل ما يؤدى للشره ولمجرد اللذة وهذا مقصد كبير من مقاصد الشريعة (١١٢).

ويختتم ابن ميمون كتابه بمثل يلخص فيه آراءه كلها ، وهو يفعل هنا ما فعله من قبل أفلاطون في مثال (الكهف) ، فهنا يقول فيلسوفنا اليهودى : أن السلطان في القصر وأهل طاعته كلهم ، منهم قوم فى المدينة ومنهم خارج المدينة ، وهؤلاء الذين فى المدينة منهم من قد استدبر دار السلطان ووجهه متجه الى طريق أخرى ، ومنهم من هو قاصد دار السلطان ومتجه إليه وطالب دخولها والمثول أمامه ، لكنه إلى الأن لم يرقط سوى الدار ، ومن القاصدين من وصل إلى الدار وهو يدور حولها بطلب بابها ، ومنهم من دخل الباب وهو يسير في الدهليز ، ومنهم من انتهى الى أن دخل قاعدة الدار وأصبح مع الملك في موضوع واحد ، غير أنه لم يكن يراه أو يكلمه ، ولكنه بعد دخوله الدار لابد له من سعى آخر يسعاه حتى يحضر بين يدى السلطان ويداه على بعد أو على قرب أو يسمع كلامه أو يكلمه (١١٣)، ومن ثم يشرح ابن ميمون هذا المثل الذى ابتكره فيقول :

أما الذين هم خارج المدينة فهم الذين لا عقيدة عندهم نظرية أو تقليدية ، وحكم هؤلاء كحكم الحيوان غير الناطق ، وما هؤلاء عندى فى مرتبة الإنسان وهم من مراتب الوجود أو دون مرتبة الإنسان وأعلى من مرتبة القرود إذ قد حصل لهم شكل الإنسان وتخطيطه وتمييز فوق تمييز القرود .

وأما الذين هم فى المدينة واستدبروا دار السلطان ، فهم أهل رأى ، ونظر ولكن لهم آراء غير صحيحة ، اما من غلط وقع لهم في حيال نظرهم

أو من خطـأ فـي التقليد ، فهم مـن أجل تلك الآراء كلما أبعدوا فـى السير ازدادوا بعداً عن دار السلطان وهؤلاء شر من الأولين بكثير ، وقد تدعو الضرورة فى بعض الأزمنة لقتلهم ومحو آرائهم حتى لا يضلوا .

وأما القاصدون دار السلطان والدخول عنده لكنهم لم يروا قط الدار فهم جمهور أهل الشريعة من عامة الناس الذين يحافظون على فرائض الدين ، وأما الواصلون إلى الدار الذين يطوفون حولها فهم الفقهاء الذين يقلدون الآراء الصحيحة تقليداً ويتفقهون في العبادات ، ولم يلموا بنظر فى أصول الدين ، ولم يبحثوا بوجه عن تصحيح اعتقاد (١١٤) .

فأما الذين خاضوا فى النظر فى أصول الدين فقد دخلوا الدهليز والناس هناك مختلفوا المراتب بلا شك ، فأما من حصل له البرهان على كل ما تبرهن وتيقن من الأمور الألهية وقارب اليقين فيما لا يمكن فيه إلا مقاربة اليقين ، فقد أصبح مع السلطان فى داخل الدار .

وبالتالى فان المتعلم ما دام يشتغل بالعلوم الرياضية وبصناعة المنطق ، فانه يكون من جملة من يدور حول الدار يطلب بابها ، فإذا فهم الأمور الطبيعية ، فقد دخل الدار وهو يمشى في دهاليزها ، فإذا أكمل الطبيعيات وفهم الإلهيات فقد دخل الى السلطان وأصبح معه فى دار واحدة ، وهذه هى درجة العلماء وهم مختلفو الكمال .

فأما من أمعن بفكره بعد كماله فى الإلهيات ومال بجملته نحو الله عز وجل وأضرب عما سواه وجعل أفعال عقله كلها في اعتبارات الوجود للاستدلال منها عليه ليعلم تدبيره لها على أى جهة يمكن أن يكون ، فأولئك هم الذين مثلوا في مجلس السلطان ، وهذه درجة الأنبياء .

أما من فكر فى الله وأكثر من ذكره بغير علم بل قلد فيه غيره فانه خارج الدار وبعيد عنها لايذكر الله حقيقة ، ولا يفكر فيه لأن ذلك الأمر الذى فى خياله والذى يذكره بفمه ليس مطابقاً لموجود أصلا ، بل هو مخترع خياله ، وإنما ينبغى الأخذ بهذا النوع من العبادة بعد التصور العقلى ، فإذا أدرك الانسان الله وأفعاله حسب ما يقتضيه العقل، أخذ بعد ذلك فى الانقطاع

إليه ، ويسعى الى التقرب منه عن طريق القراءة فى الكتب الدينية ، والصلاة والفرائض ، وعدم الالتفات الى أمور الدنيا حتى ترفع العوائق الحائلة بيننا وبينه ونحصل على الغبطة من إدراك الأمور [١١٥].

وليس جلوس الانسان وحركاته وتصرفاته وهو وحده فى بيته كجلوسه وحركاته وتصرفاته بين يدى ملك عظيم ، ولا كلامه وانبساطه وهو بين أهله وأقربائه ككلامه في مجلس الملك ، لذلك يكون من الكمال الانسانى أن يعلم أن الملك العظيم الملازم له أعظم من كل شخص ، وذلك الملك الملازم هو العقل الفائض علينا الذى هو الصلة بيننا وبينه تعالى ، وكما أدركنا بذلك الضوء الذى أفاضه علينا ، فإنه بذلك الضوء اطلع علينا ، وبه كان سبحانه وتعالى معنا دائماً، ومن حيث ورع الكاملين وخشوعهم أتى من خوف الله وتقواه بطرق حقيقية لا خيالية ، وجعل باطنهم كظاهرهم ، كما جعلهم ينهون عن السير بالكبرياء ، إذ جلاله تعالى يملأ أطراف الأرض جميعاً ، فالمقدر أننا دائماً بين يديه ، لذلك كان العلماء يتحرجون من كشف رؤسهم لكون الانسان مجاوراً ربه ، وكانوا يقلون من الكلام ، هذا هو الغرض من أعمال الشريعة كلها ، وبملازمة تلك الجزئيات العملية وبتكرارها ، تحصل رياضة للفضلاء الى أن يكملوا الكمال الانسانى فيخافون الله تعالى ويرهبون ويفزعون اليه ، ويعلمون أنه معهم ، فيفعلون بعد ذلك ما يجب [١١٦].

وهكذا تسير تربية الإنسان اليهودى كما ينبغى أن تكون فى تصور صاحبنا موسى بن ميمون.

الهوامش

١- اسماعيل راجي الفاروقي : أصول الصهيونية في الدين اليهودي ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣/٦٣ ، ص١.
٢- المرجع السابق ، ص ٢ .
٣- المرجع السابق ، ص ٣ .
٤- محمد خليفة حسن أحمد : ظاهرة النبوة الإسرائيلية ، دار الزهراء ، القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ١١٣ .
٥- المرجع السابق ، ص ١١٤ .
٦- المرجع السابق ، ص ١١٥ .
٧- المرجع السابق ، ص ٢ .
٨- المرجع السابق ، ص ١١٨ .
٩- المرجع السابق ، ص ١١٩ .
١٠- على عبد الواحد وافى : اليهودية واليهود ، مكتبة غريب ، القاهرة ، ١٩٧٠، ص ٣١ .
١١- سفر التكوين ، الإصحاح السادس .
١٢- سفر التكوين ، الإصحاح ٣٢ .
١٣- حسنى يوسف الاطير : على هامش الحوار بين القرآن واليهود، دار الأنصار ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ٩ .
١٤- على عبد الواحد وافى ، ص ٣٥ .
١٥- سفر اللاويين ، الإصحاح العاشر . وكذلك الأول والثانى والسادس والسابع والعاشر .
١٦- سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ، د.ت ، ص ١٤٨ .

١٧- محمود أحمد المراغى : إشعيا ، بنى اسرائيل وأزمة الكيان اليهودى القديم ، دار العلوم العربية ، بيروت ، ١٩٩٢ ، ص ٣٣٧.
١٨- قصة الحضارة ، م١ ، ح٢ ، ص ٣٤٠ .
١٩- اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ، ص ٦٥ .
٢٠- عصام الدين حفنى ناصف : اليهودية فى العقيدة والتاريخ ، دار العالم الجديد ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ١١٤ .
٢١- سفر الخروج ، الإصحاح ٢٥ .
٢٢- سفر صموئيل ، الإصحاح ٦
٢٣- سفر الخروج ، الإصحاح العشرين .
٢٤- رشاد عبد الله الشامى ، الوصايا العشر فى اليهودية ، دار الزهراء، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ص ١٤٨ .
٢٥- سفر التثنية ، الإصحاح الرابع .
٢٦- سفر أشعيا ، الإصحاح : ٣٧ .
٢٧- سفر الملوك الثانى ، الإصحاح ١٩ .
٢٨- على عبد الواحد وافى : اليهود واليهودية ، ص ٣٧ .
٢٩- المرجع السابق ، ص ٣٨ .
٣٠- التلمود ، شريعة اسرائيل ، نصوص من التلمود نشرتها لجنة كتب سياسيه ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، الكتاب الثامن عشر ، ص ١٨ .
٣١- المرجع السابق . نفس الصفحة .
٣٢- أحمد شلبى ، ص ٢٠٥ .
٣٣- المرجع السابق . نفس الصفحة .
٣٤- كامل سعفان : اليهود ، تاريخ وعقيدة ، ص ١٦٧ .
٣٥- سفر دانيال ، الإصحاح ١٢ .
٣٦- المرجع السابق ، ص ١٦٨ .
٣٧- على عبد الواحد وافى ، ص٤٦ .
٣٨- المرجع السابق ، ص ٤٧ .
٣٩- سفر عاموس ، الإصحاح الخامس .

٤٠- حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى ، أطواره ومذاهبه ، ١٩٧٥ ، ص ١١٠ .
٤١- جوستاف لوبون ، اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ، ص ٥٧ .
٤٢- محمود أحمد المراغى ، أشعيا بنى بنى اسرائيل ، ص ٣٤٤ .
٤٣- سفر التكوين ، الإصحاح ٣٧ .
٤٤- سفر التكوين ، الإصحاح ١٦ .
٤٥- مزمور ٦ .
٤٦- سفر الملوك الأول ، الإصحاح الثانى .
٤٧- محمود أحمد المراغى ، ص ٣٤٥ .
٤٨- المرجع السابق ، ص ص ٣٤٦ - ٣٤٦ .
٤٩- سفر اللاويين ، الإصحاح ٢٠ .
٥٠- المزمور ١٧ .
٥١- سفر إشعيا ، الإصحاح ٢٦ .
٥٢- زكى شنودة : المجتمع اليهودى ، ص ٥٤٢ .
٥٣- سفر التكوين ، الإصحاح ١٢ .
٥٤- سفر التكوين ، الإصحاح ١٧ .
٥٥- سفر اللاويين ، الإصحاح ٢٠ .
٥٦- سفر التثنية ، الإصحاح ١٤ .
٥٧- سفر التكوين ، الإصحاح ١٣ .
٥٨- كامل سعفان : اليهود ، تاريخ وعقيدة ، ص ١٦٩ .
٥٩- سفر التكوين ، الإصحاح / ٢٤ .
٦٠- سفر التكوين ، الإصحاح / ٢٥ .
٦١- اليهود ، تاريخ وعقيدة ، ص ١٧١ .
٦٢- التلمود ، شريعة اسرائيل ، ص ٢٨ .
٦٣- المرجع السابق ، ص ٢٩ .
٦٤- أحمد شلبى ، ص ٢١٩ .
٦٥- سفر الملوك الأول ، الإصحاح ٩ .

٦٦- أسعد رزوق : التلمود والصهيونية ، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٠ . ص ٥٦ .
٦٧- المرجع السابق ، ص ٥٧ .
٦٨- المرجع السابق ، ص ٥٨ .
٦٩- المرجع السابق ص ٥٩ .
٧٠- عصام الدين حفنى ناصف ، ص ٤١ .
٧١- سفر اللاويين ، الإصحاح /١٦ .
٧٢- عصام الدين حفنى ناصف ، ص ٤٤ .
٧٣- سفر الخروج ، الإصحاح ٣٤ .
٧٤- سفر التكوين ، الإصحاح / ٩ .
٧٥- كامل سعفان : دراسة فى التوراة والإنجيل ، دار الفضيلة ، القاهرة، ١٩٩٣ ط١٢ .
٧٦- سفر العدد ، الإصحاح / ١٤ .
٧٧- دراسة فى التوارة والإنجيل ، ص ١٢٢ .
٧٨- طفر الإسلام خان : التملود : تاريخه وتعاليمه ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٧٤ .
٧٩- سفر إرميا ، الإصحاح الثانى .
٨٠- ظفر الإسلام خان ، ص ٧٥ .
٨١- المرجع السابق . نفس الصفحة .
٨٢- المرجع السابق . ص ٧٧ .
٨٣- صبرى جرجس : التراث اليهودى الصهيونى ، ص ٥١ .
٨٤- قصة الحضارة ، م١ ، ح٢ ، ص ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .
٨٥- ثروت أنيس الأسيوطى : نظام الأسرة ، ص ١٥١ .
٨٦- المرجع السابق ، ص ١٧٧ .
٨٧- سفر إشعياء ، الإصحاح الأول .
٨٨- سفر حزقيال ، الإصحاح ٢٢ .
٨٩-سفر عاموس ، الإصحاح الخامس .
٩٠- سفر عاموس ، الإصحاح السادس .
٩١- زكى شنودة ، المجتمع اليهودى ، ص ٤٩٧ .

٩٢- حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص ٢٣٢ .
٩٣- المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .
٩٤- سفر التثنية ، الإصحاح / ٢٥ .
٩٥- الحضارات السامية القديمة ، ص ١٧٠ .
٩٦- أحمد شلبى ، ص ٣٠ .
٩٧- سفر الجامعة ، الإصحاح السابع .
٩٨- نجيب بلدى : تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية وفلسفتها ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٧٩ .
٩٩- عبد الرحمن بدوى : خريف الفكر اليونانى ، النهضة المصرية، القاهرة ، ١٩٤٣ ، ص ١٢٣ .
١٠٠- المرجع السابق ، ص ١٢٤ .
١٠١- يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٦ ، ص ٢٤٨ .
١٠٢- خريف الفكر اليونانى ، ص ١٤٥ .
١٠٣- المرجع السابق ، ص ١٤٦ .
١٠٤- المرجع السابق ، ص ١٤٧ .
١٠٥- تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية ، ص ٨٦ .
١٠٦- المرجع السابق . نفس الصحفة .
١٠٧- اسرائيل ولفنسون : موسى بن ميمون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، مقدمة الشيخ مصطفى عبد الرازق .
١٠٨- المرجع السابق ، ص ٦٤ .
١٠٩- المرجع السابق ، ص ٦٥ .
١١٠- المرجع السابق ، ص ٦٦ .
١١١- المرجع السابق ، ص ١١٠ .
١١٢- المرجع السابق ، ص ١١٥ .
١١٣- المرجع السابق ، ص ١١٧ .
١١٤- المرجع السابق ، ص ١١٨ .
١١٥- المرجع السابق ، ص ١١٩ .
١١٦- المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

الفصل الثالث

مصادر تربية بنى اسرائيل

اعتمد بنو اسرائيل فى تربية شخصيات أجيالهم الجديدة ، جيلاً إثر جيل على مجموعة من المصادر بعضها اكتسب الصبغة الدينية مثل العهد القديم والتلمود وهما (نصوص) مكتوبة شكلت نبعاً كان ومايزال، يمد مختلف القائمين بأمر تكوين الشخصية الاسرائيلية - فى عصورها القديمة خاصة - بعديد من الأفكار والقيم والإتجاهات والمعارف ، والبعض الآخر (ممارسات)، و(وقائع) و (أحداث) يمكن تناولها جملة، وكما يمكن تصنيفها الى فئتين ، إحداهما تتصل بالخبرة التاريخية التى مر بها بنو اسرائيل ، والثانية تتصل بمؤثرات ثقافية جاءتهم من المجتمعات والثقافات والحضارات التى عاشوا فى كنفها . وبطبيعة الحال فالفئتان متصلتان ، متفاعلتان .

العهد القديم :

وإنه لمما يؤكد ما يشكله العهد القديم من جوهرية كمصدر للتربية الاسرائيلية ، ما يشير إليه كبير من كبار رجال الدين المسيحى في مصر في قوله : "والعهد القديم ... هو بمثابة مدرسة تربوية ... وانطلاقاً من هذا فنحن لا نرى فى العهد القديم نظريات أو مبادئ ، بل نماذج حية ، إيمان يحمله أشخاص مثل إبراهيم وإسحق ويعقوب ، البطاركة الأوائل ، ثم الملوك مثل داود الى الأنبياء الكبار منهم والصغار ... هؤلاء جميعاً ليسوا مجرد شهود فحسب للإيمان ، بل يشتركون فى إحداث الإخلاص ... وكلهم يمثلون حلقات مترابطة" [١].

لم يكن في وسع اليهود بعد عودتهم من الأسر البابلى أن يقيموا لهم دولة حربية ، ذلك أنهم لم يكن لهم من العدد ومن الثروة ما يمكنهم من إقامة هذه الدولة ، ولما كانوا فى حاجة إلى نوع من الإدارة يعترفون فيه بسيادة

الفرس عليهم ويهيئ لهم في الوقت نفسه سبيل الوحدة القومية والنظام ، فقد شرع الكهنة فى وضع قواعد حكم دينى يقوم كما كان يقوم حكم يوشيا على المأثور من أقوال الكهنة وتقاليدهم ، وعلى أوامر الله . وفى عام ٤٤٤ ق.م.، دعا (عزرا) ، وهو كاهن عالم، اليهود إلى اجتماع عام وخطير ، وشرع يقرأ عليهم من مطلع النهار إلى منتصفه "سفر شريعة موسى" . وظل هو وزملاؤه اللاويون سبعة أيام كاملة يقرءون ما تحتويه ملفات هذا السفر ، ولما فرغوا من قراءتها أقسم الكهنة والزعماء والشعب على أن يطيعوا هذه الشرائع ويتخذوها دستورا لهم يتبعونه ، ومبادئ خلقية يسيرون على هديها ويطيعونها الى أبد الآبدين . وظلت هذه الشرائع من تلك الأيام إلى يومنا هذا، المحور الذى تدور عليه حياة اليهود ، ولازال تقيدهم بها طوال تجوالهم من أهم الظواهر فى تاريخ العالم [٢].

ترى ماذا كان " كتاب شريعة موسى " هذا ؟ لم يكن هذا الكتاب هو بعينه (كتاب العهد) الذى قرأه يوشيا من قبل ، لأن هذا العهد قد جاء فيه بصريح العبارة أنه قرئ على اليهود مرتين كاملتين فى يوم واحد ، على حين أن قراءة الكتاب الآخر قد احتاجت الى أسبوع كامل، وكل ما فى وسعنا أن نفعله أن نحزر أن الكتاب الكبير كان يحتوى على جزء هام من أسفار العهد القديم الخمسة يسميها اليهود "تورة" ويسميها غيرهم (البنتاتوش) والأولى لفظ عبرى معناه الهدى أو الرشاد، والثانية كلمة يونانية معناها : الملفات الخمسة [٣].

وقد اعتمد اليهود من أسفارهم تسعة وثلاثين سفراً أطلق عليها فى العصور المسيحية اسم (العهد القديم) للتفرقة بينها وبين ما اعتمده المسيحيون من أسفارهم التى أطلقوا عليها اسم (العهد الجديد) واعتبروا هذه الأسفار التسعة والثلاثين ، أسفاراً مقدسة أى موحى بها .

ويراد بكلمة العهد فى هاتين التسميتين ما يرادف معنى (الميثاق) ، أى أن كلتا المجموعتين تمثل ميثاقاً أخذه الله على الناس ، وارتبطوا به معه [٤].

ويرجح أن اسم (العهد القديم) مستمد من رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس ، إلا أن أكثر الأسماء شيوعاً على العهد القديم التسمية بـ " الشريعة والأنبياء " أو " موسى والأنبياء " أو " موسى " فقط [٥].

وأسفار العهد القديم غير متفق عليها ، فبعض أحبار اليهود يضيفون أسفاراً لا يقبلها أحبار آخرون ، فإذا جئنا إلى المسيحية وجدنا النسخة الكاثوليكية تزيد سبعة أسفار عن النسخة البروتستانتينية [٦].

وتقسم أسفار العهد القديم التي يعترف بها البروتستانت ثلاثة أقسام: القسم الأول : " التوراة .. ويشمل أسفاراً خمسة هى : التكوين ـ الخروج ـ اللاويون (الأحبار) ـ العدد ـ التثنية ، وتلك هى التى يطلق عليها أسفار موسى.

القسم الثانى: " أسفار الأنبياء " وهى نوعان :

١- أسفار الأنبياء المتقدمين : وتشمل الأسفار الأتية : يشوع (يوشع ـ ابن نون) ـ قضاة ـ صموئيل الأول ـ صموئيل الثانى ـ الملوك الأول ـ الملوك الثانى .

٢- أسفار الأنبياء المتأخرين : وتشمل الأسفار الأتية : إشعيا ـ إرميا ـ حزقيال ـ هوشع ـ يوئيل ـ عاموس ـ عوبديا ـ يونان (يونس) ـ ميخا ـ ناحوم ـ حبقوق ـ صفنيا ـ حجى ـ زكريا ـ ملاخى .

القسم الثالث : " الكتابات " وهذا القسم يتشعب إلى أنواع ثلاثة:

١- الكتب العظيمة وتشمل الأسفار الآتية : المزامير (الزبور) ـ الأمثال (أمثال سليمان) ـ أيوب .

٢- المجلات الخمس : تشمل الأسفار الآتية : نشيد الأناشيد ـ راعوث ـ المراثى (مراثى إرميا) ـ الجامعة ـ أستير .

٣- الكتب : وتشمل الأسفار التالية : دانيال - عزرا - نحميا - أخبار الأيام الأول - أخبار الأيام الثانى .

وهناك سفران لا يبدو لهما صلة ببنى اسرائيل ، وهما سفر أيوب وسفر يونان ، فأيوب من بنى عيسو وليس من أبناء اسرائيل كما يظهر من نصوصه . ويونان تفيد عبارته أنه نبى مرسل إلى (نينوى) لا إلى بنى اسرائيل ، ومحتويات السفرين قريبة من المحتويات التى أشار إليها القرآن الكريم (٧).

ومن الأسفار ما هو طويل كثير الإصحاحات كسفر المزامير الذى يصل إلى مائة وخمسين مزموراً ، وإشعيا الذى يحوى تستة وستين إصحاحاً ، وإرميا وهو يتكون من اثنين وخمسين إصحاحاً ، والتكوين وبه خمسون إصحاحاً ، ومنها ما هو قصير كسفر عويديا وبه إصحاح واحد ، وحجى وبه إصحاحان ، وصفنيا وحبقوق وناحوم ، وكل منها يتكون من ثلاثة إصحاحات .

ويمكن القول إنه فى القرن العاشر قبل الميلاد تقريباً ، تم تحرير النص المعروف بالرواية (اليهودية) - نسبة إلى الإله (يهوه) - وهى التى شكلت فيما بعد بنية الأسفار الخمسة التى عرفت باسم أسفار موسى ، وهو يعالج الفترة من أصل العالم إلى موت يعقوب ، هو صادر عن مملكة الجنوب ، ثم أضيف إلى هذا النص الرواية (الإلوهيمية) نسبة إلى الإلة (إلوهيم) ، ثم الرواية الكهنوتية (٨).

من نهاية القرن التاسع حتى أواسط القرن الثامن ق.م. تكوّن وذاع النفوذ النبوى مع إيليا واليشع ، وهى أيضاً فترة النص الإلوهيمي ، الذي يعالج الأحداث الخاصة بإبراهيم ويعقوب ويوسف . ويرجع سفرا يشوع والقضاة ، وكتابات إليا واليشع ، إلى هذه الفترة .

أما رسائل صفنيا وحبقوق فيرجع تاريخها إلى ما قبل النفى الأول إلى بابل سنة ٥٨٧ ق.م ، وكان حزقيال يمارس النبوة فى أثناء النفى ، وكتابه لم

يدون بشكله الحالى إلا بعد موته ، وقد دونه الكتبة الذين أصبحوا ورثته الروحيين .. وقد قام نفس هؤلاء الكتبة بتدوين رواية ثالثة لسفر التكوين ، وهى الرواية الكهنوتية التى أوردت الجزء الخاص بالخلق بعد موت يعقوب[٩].

وبعد العودة من الأسر البابلى أعيد بناء معبد القدس ، واستؤنف النشاط النبوى ، ومن هنا كانت كتب حجاى وزكريا وأشعيا الثالث وملاخى ودانيال وباروك ، وقد كتب هذا الأخير باليونانية .

وفترة ما بعد النفى هى فترة كتب الحكمة ، إذ حررت الأمثال فى سنة ٤٨٠ ق.م وحرر سفر أيوب فى القرن الخامس ق.م تقريباً ، كما يرجع تاريخ سفر الجامعة إلى القرن الثالث ق.م تقريباً ، وهو عصر نشيد الانشاد وكتابى أخبار الأيام ، وكتب عزرا ونحميا . أما كتاب (بن سيراخ) فقد ظهر فى القرن الثاني ق.م ، وأما سفر الحكمة وسفر المكابيين فقد كتبت فى القرن الأول ق.م ، وأسفار راعوث وأستير ويونس وطوبيا ويهوديت فيصعب تأريخ تحريرها [١٠].

وهذه المعلومات لابد أن نأخذها بتحفظ نظراً لأن الأدلة اليقينية على صحتها لم تتوافر بدرجة كافية .

ومن الملاحظ أننا أشرنا هنا إلى بعض الأسفار التى لا توجد فى الطبعة التى بين أيدينا .

أما لغة العهد القديم فهى العبرية أى (لغة كنعان) أو (يهودية) ، إلا أن العهد القديم لم يخلص للعبرية بل أفسح صدره فى بعض أجزائه للغة الآرامية، وبعد السبى البابلى جاء العبريون بالخط المربع وقد يطلق عليه أيضا الخط الآشورى واستخدمها عزرا فى كتابة العهد القديم [١١].

وأسفار العهد القديم لم تدون على الأحجار شأنها شأن الوثائق القديمة أو على ألواح من الفخار أو الرصاص ، بل دونت على هيئة أعمدة وكتبت من اليمين إلى اليسار ، وهى على شكل لفائف لا كتب . أما المادة المستخدمة

للكتابة بها فمختلفة ، فمنها قلم الآردواز أو المداد. وكان الكاتب عادة يتمنطق بأدوات الكتابة ، وورد فى سفر إرميا [١٢] ، أن الملك يواقيم كان يجلس فى بيته الشتوى على الفرن ويقرأ كتابات النبى إرميا ، ولما يفرغ من قراءة ثلاثة أعمدة أو أربعة يفصل ما قرأه بمدية ويلقى به فى نار الفرن وهكذا حتى أحرق جميع النص .

أما مادة الكتابة فكانت أوراق البردى ، واستخدم اليهود فى عصور متأخرة إلى جانب البردى الرق أو الجلد ، وظلت المخطوطة فى هيئة كتاب، ونظام اللغة مازال متبعاً فى المعابد مع التوراة وإستير. إلا أن غلو مادة الكتابة وكثرة التكاليف اضطر القوم إلى الإدخار واستغلال كل فراغ فكان هذا من دواعى وقوع كثير من الأخطاء سواء فى المفردات أو الجمل [١٣] . كما درج بعض النساخ على التعليق على النص دون الإشارة فضمت تعليقاتهم خطأ إلى المتن .

وسفر المزامير أعظم الأسفار الشعرية فى العهد القديم ، وهو يشتمل على ١٥٠ أغنية تختلف تاريخاً ، بعضها شخصى الطابع وبعضها جماعى ، فيها تسبيح بالله ودعاء له أن يعين المرء فى الملمات المختلفة التى تنزل به . وكثير من المزامير لها طابع الطقوس قصد بها الترتيل فى الصلوات [١٤].

ولنمثل لشعر المزامير بهذا الرثاء الذى أنشده أحد رجال المنفى حين خطر بباله معبد أورشليم [١٥]:

١- كما يشتاق الأبل إلى جداول المياه ، هكذا تشتاق نفسى إليك يا الله.

٢- ظمئت نفسى إلى الله ، إلى الإله الحى ، متى أجى وأبدو أمام الله؟

٣- صارت لى دموعى خبزاً نهاراً وليلاً ، إذ قيل لى طول اليوم : أين إلهك؟

٤- هذه الأمور أذكرها ، فأسكب نفسى فى داخلى : كيف كنت أذهب مع جميع الناس وأقودهم إلى بيت الله بصوت ترنم وحمد ، جموع تحتفل بالعيد .

٥- لماذا أنتِ متهالكة يا نفسى ؟ ولماذا تئنين ؟ أعقدى أملك على الله لأنى سأمدحه بعد ، فهو خلاص وجهى وإلهى .

وهناك سفر رائع آخر من الشعر العبرى هو مراثى إرميا ، وهى مثال لنمط أدبى ليس بغريب على الشرق الأدنى القديم ، فهذه مرثية أورشليم بعد سقوطها [١٦]:

١- كيف تجلس وحدها المدينة التى كانت كثيرة السكان ؟ كيف صارت كأرملة ؟ تلك التى كانت عظيمة بين الأمم وسيدة بين البلدان ، كيف صارت تحت الجزية ؟

٢- تبكى فى الليل بكاءً ، ودموعها على خديها . ليس لها من يعزيها بين جميع محبيها . كل أصحابها غدروا بها ، صاروا لها أعداء .

٣- نفيت يهوذا لسبب المذلة ، وكثرة العبودية . هى تسكن بين الأمم . لا تجد راحة . كل مطارديها أدركوها فى مضايق الطريق .. .

وتشكك كثير من المصادر الإسلامية فى نسبة الأسفار الخمسة المكونة للتوارة إلى موسى ، كما تشكك فى أن ما كتبه الأنبياء وغيرهم فى سائر الأسفار العهد القديم موحى بها من الله عز وجل .

ولسنا فى مجال التحقيق فى هذه القضية فهذه ليست مهمتنا فكما قلنا من قبل أن العهد القديم إذ شكل ينبوعاً أساسياً سقى التربية اليهودية فلابد من التوقف عنده بغض النظر عما إذا كان مافيه هو بالفعل موحى به من الله أم لا ، ومن هنا فسوف نعرض لأمثلة من صور التشكيك بإيجاز دون تفصيل أو مناقشة مع بيان وجهة نظر الدفاع .

ولم يقتصر النقد على الباحثين الإسلاميين ، فهناك غيرهم مثل : فون جراف Von Graf وكوهنن Kuenen وويلها وزن Welhausen فى أواسط القرن الماضى ، فهؤلاء دفعهم حب الاستطلاع لدراسة القرآن الكريم بحثاً وراء ما يلقى الضوء على العهد القديم الذى كانوا يدرسونه بقصد تفهمه تفهماً علمياً نقدياً تحليلياً ، وفى دراستهم للقرآن الكريم تشبعوا بالمبدأ القرآنى القائل بأن بنى اسرائيل تلاعبوا فى كتابهم المقدس ، وأنهم حرفوه حاذفين منه ما حذفوه ومضيفين إليه ما أضافوا لطمع غير خلقى فى نفوسهم، فزعزع هذا المبدأ ما نشأوا عليه من إيمان بأن التوراة هى نفسها فى كل حرف من حروفها من صنع الله ، وأخذوا عندئذ ، بدلا من الحيرة فى تفسير النزعات المختلفة التى تنم عنها نصوص التوراة يتبينون مختلف الأيدى وراء هذه النصوص ، فراحوا يبحثون عن أصولها وعن الأحوال التاريخية التى أدخلت هذه المواد فى التوراة تحت ظروفها ، فكانت علوم التوراة النقدية التى عرفها القرن الأخير (١٧).

ويؤكد باحثون أن بالتوارة مزيج من مصادر مختلفة كثيرة ، ومزيج مماثل فى ما وعته الذاكرة الشعبية اليهودية عن صاحب التوراة.

ويبدو أن اليهود قد أرادوا بهذا التخليط أن يجعلوا من موسى ستاراً يخفون وراءه أشياء لم يقل بها ولم يدع إليها ، منها أنه لم يرسل بشريعة لا إلى فرعون ولا إلى قومه من المصريين ، بل لبنى اسرائيل وحدهم ، فهو لم يطالب فرعون ولا المصريين بالإيمان قط (١٨) .

ومن الجدير بالذكر احتمال ألا يكون هذا التخليط قد حدث عمداً وبتخطيط الفكر الواعى ، فإن التوراة الموسوية كانت قد فقدت من المجتمع اليهودى لعدة قرون ، بحيث صار من المحتمل أن يكون نصها الذى كتبه عزرا - عزير عند العرب - مختلفاً جداً عما أنزل على موسى ، فبين الرجلين ما يقرب من ألف سنة من الزمان ، بل إننا نشعر أن موسى بعد أن مات لم يحتفظ العبريون من ذكراه بشئ !

أضاعوا الرجل وأضاعوا توراته ، بحيث مرت أجيال وأجيال لا يذكره منهم أحد ، ولا يعرفون حتى مكان قبره ، وفى نفس الإصحاح الأخير من التوراة التى ورد فيها هذا ، يرد نص آخر يستحق التأمل عند قوله : "فصعد موسى إلى جبل نبو من فيافى موآب إلى رأس الربوة المواجهة لأريحا ، فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان، وجميع نفتالى ، وأرض أفرايم ومنا وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربى ، والجنوب، والمرج ، بقعه أريحا مدينة النخل ، إلى صوعر ، وقال له الرب هذه هى الأرض التى أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب، قائلا : لنسلكم أعطيها ، وقد أريتك إياها بعينك ، ولكنك إلى هنا لا تعبر، "ففى هذا النص نلاحظ أنه بالرغم من موت موسى فى شرق الأردن ، ووجود القوم الذين خرجوا معه من مصر فى نفس تلك الناحية ، فإن الراوية يرى أرض فلسطين وقد سكنتها أسباط اليهود، دان ونفتالى وإفرايم ومنسا ويهوذا .. وهو أمر لا يمكن تصوره إلا بعد إنتهاء عهد القضاة والدخول فى حقبة الملوك شاؤل وداود وسليمان ، أى بعد موسى بما لا يقل عن ثلاثمائة سنة [١٩].

وإطلاق اسم (أسفار موسى الخمسة) على التوراه لا يشير فقط إلى الإهتمام بموسى بل افتراض نسبتها إليه واعتباره مؤلفها . وهذه عقيدة اليهود منذ عهد فيلون السكندرى (القرن الأول ق.م الأول الميلادى) ويوسيفوس اللذين عاصرا المسيح وأعلنا أن موسى هو مؤلف التوراة . إلا أن التلمود يقرر أن الآيات الثمانى الواردة فى التوراة والخاصة بموت موسى هى من وضع يشوع ، ويسترسل التلمود ويذكر أن موسى كتب فى كتابه الفصل الخاص ببلعام وأيوب . وهذه عبارة غريبة حقاً ، فلماذا اختصها التلمود بالذكر وهى جزء من التوراة ويمنحها هذه الأهمية [٢٠].

والملاحظة الجديرة بالذكر أن المزامير تتحدث أحياناً عن شريعة (يهوه) أو شريعة الله ، ولا تذكر شريعة موسى التى كثيراً ما نجدها فى الأسفار التاريخية [٢١].

وتقدم التوراة للدارسين شواهد أخرى تؤيد الرأى القائل بأن التوراة التى بأيدينا ليست لموسى ، ففى التوراة عبارات تتعلق بموسى لا يمكن أن تصدر

عنه كهذه الآية: "وأما الرجل موسى فكان حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض" ، أو "وأيضا الرجل موسى كان عظيماً جداً فى أرض مصر فى عيون فرعون وعيون الشعب" . وكذلك الخبر الخاص بوفاته ، "فمات هناك موسى عبد الله فى أرض موآب حسب قول الله ودفنه فى الجواء فى أرض موآب مقابل ..." .

وهناك شواهد أخرى فى التوراة تؤيد حقيقة أن موسى ليس صاحب التوراة كتلك الشواهد الجغرافية التى لم تعرف إبان حياة موسى، وهذه التعبيرات الجغرافية تشير ولا شك إلى أن المؤلف يقيم فى شرق الأردن . وهناك أيضا إصطلاحات فلكية تحتم صدورها من فلسطين لا من سيناء مثل لفظ (نجب = جنوب) و (يم) = بحر = الغرب) (٢٢).

وغير التعبيرات الجغرافية نجد أخرى تاريخية مثل اسم مدينة (دان) ، فهو لم يكن معروفاً فى عصر موسى ، كذلك مجموعة القرى المعروفة باسم (يائير)، والتى لم تظهر إلى الوجود إلا فى عصر القضاة كما قلنا ، كما أن تسمة مدينة (لوز) لايتفق والقصة الواردة فى سفر القضاة ، والخبر الوارد والقائل بأن الكنعانيين كانوا يقيمون فى البلاد ، يفيد أن الكنعانيين وقت تأليف هذه التوراة كانوا قد رحلوا أو أقاموا كرعايا تحت سيادة الإسرائيليين ، علماً بأننا كثيراً ما نجد ذكرهم سادة لهم اليد العليا (٢٣).

ولرحمت الله الهندى دراسة موسعة نقداً للعهد القديم من جوانب كثيرة ، وعلى سبيل المثال :

- الآية التاسعة من الإصحاح الرابع والعشرين من سفر صموئيل الثانى هكذا : "وأتى يوآب بعدد وحساب الشعب للملك ، وكان عدد بنى اسرائيل ثمانمائة ألف رجل بطل ، يضرب بالسيف ، ورجال يهوذا عدتهم خمسمائة ألف رجل مقاتلة" والآية الخامسة من الإصحاح الحادى والعشرين من السفر الأول من أخبار الأيام هكذا: "ودفع إحصاء القوم إلى دواد وكان عدد بنى اسرائيل ألف ألف ومائة ألف رجل جاذب سيف، ويهوذا أربعمائة ألف وسبعون ألف رجل مقاتلة" ، فبينهما

اختلاف فى عدد بنى اسرائيل بمقدار ثلاثمائة ألف وفى عدد يهوذا بقدر ثلاثين ألفا [٢٤].

- الآية الثالثة عشرة من الإصحاح الرابع والعشرين من سفر صموئيل الثانى هكذا :"وأتى جاد إلى داود وأخبره قائلا : إما أن يكون سبع سنين جوعاً لك فى أرضك" الخ وفى الآية الثانية عشرة من الإصحاح الحادى والعشرين من السفر الأول من أخبار الأيام هكذا (أما ثلاث سنين جوع) الخ ففى الأول سبع سنين ، وفى الثانى ثلاث سنين ، وقد أقر مفسروهم أن الأول غلط [٢٥].

- وفى الاصحاح التاسع من سفر الخروج هكذا "ففعل الرب هذا الكلام فى الغد ومات كل بهائم المصريين ، ولم يمت واحدة من ماشية بنى اسرائيل" ، فيعلم منه أن بهائم المصريين ماتت كلها . ثم فى هذا الإصحاح :"من خاف كلمة الرب من عبيد فرعون هرب بعبيده ودوابه إلى البيوت ، ومن لم يخطر على باله قول الرب ترك عبيده ودوابه فى الحقول" ، بينهما اختلاف [٢٦].

والذى يخلص إليه جميع من تناولوا العهد القديم أنه ليس مما أوحى به إلى موسى عليه السلام ومن جاء بعد من أنبياء بنى اسرائيل .

وقد دافع كتاب مجهول المؤلف عما أثير حول العهد القديم ، وكان من بين مظاهر الدفاع :

- أحيانا يبدو شئ من التناقض بين عبارتين فى الكتاب ، والسبب فى هذا وقوع خطأ أو عدم تدقيق فى الترجمة ، ففى حالة كهذه كل من له إلمام باللغة الأصلية يمكنه بكل سهولة حل المشكلة والخطأ فى مثل هذه الأحوال لا يرجع إلى أصل الكتاب بل إلى الترجمة ، فاللغتان العبرانية واليونانية المعطى بهما الكتاب أصلا لهما إصطلاحات خاصة بهما ، وكثيراً ما يتعذر ترجمة هذه الإصطلاحات إلى ما يعادلها فى اللغات الأخرى [٢٧].

- لا يخفى أنه لا توجد بين أيدينا نسخ الأسفار الأصلية ، بل النسخ التى نسخت فيما بعد ، فمن المحتمل وقوع بعض هفوات فى الهجاء وغيره أثناء النسخ ولا يغرب عن ذهننا أن أصل الكتاب هو الموحى به . وتعتبر النسخ التى نسخت فيما بعد موحى بها فى كل ما كان فيها مطابقاً للأصل – هكذا يقول هذا الكتاب – ولكن كما يوجد تشابه من الحروف فى كل لغة هكذا الحال أيضا فى اللغتين العبرانية واليونانية ، مما يجعل النسخ عرضة لكتابة حرف بدلاً من حرف آخر (٢٨).

التلمود :

التلمود وثيقة من أهم الوثائق فى التراث الاسرائيلى ، وتعنى كلمة التلمود بالعبرية "المعرفة" أو "التعليم" . وقد كان التلمود ولا يزال موضع التبجيل ككتاب مقدس يقف على قدم المساواة فى نظر الكثير من اليهود مع التوارة ، بالإضافة إلى أنهم يعدونه موسوعة ضخمة لاغنى عنها فى دراسة اليهودية ، موسوعة تتضمن الدين والشريعة والتاريخ والآداب والتأملات الميتافيزيقية والعلوم الطبيعية والفلك والقصص الشعبى ممتزجة جميعا بألوان مختلفة من الفكر الخرافى. والتلمود على هذا النحو يغطى كل جوانب النشاط فى حياة اليهود الذين جعلوا من دراسته وسيلة للتجمع والإلتقاء فكرياً وروحياً، على الرغم مما صاروا إليه بفضل سلوكهم ، من تشتت فى أرجاء العالم جميعاً(٢٩) .

ويرجع التلمود فى نشأته أساساً إلى شريعة موسى التى كان رجال الدين اليهودى يقررون أنها لم تكن مقصورة على النصوص المدونة فى الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم ، بل تضمنت أيضا شريعة شفوية انتقلت من المعلمين إلى تلاميذهم جيلاً بعد جيل مع ما كان يضاف إليها من زيادات وتعديلات . ويعد الخلاف حول ما إذا كانت هذه الشريعة الشفوية هى الأخرى من عند الله انتهى الأمر باليهود إلى قبول الرأى الذى كان ينادى به الفريسيون من أنها مع الأسفار الخمسة مقدسة ينبغى التمسك بها والعمل بمقتضاها .

وعلى الرغم من هذه المكانة التي يحتلها التلمود في تكوين الشخصية اليهودية ، فإنه لمن الملاحظ أن العرب الذين جاءوا على ذكر التلمود واقتبسوا في كتاباتهم شيئا من تعاليمه أو عربوا بعض محتوياته لم يتعرفوا إلى التلمود مباشرة ولا هم قرءوا فيه بل سمعوا عنه أو قرأوا ، تاركين الردود والمناظرات لنفر ضئيل من علمائهم الأندلسيين الكبار . ومما لاريب فيه أن أهم الأسباب التي تعلل هذا الأهمال يرجع إلى اللغة التي كتب بها التلمود . فالعرب لم يجدوا من ضرورة إلى تعلم اللغة العبرية كوسيلة تمكنهم من التعرف إلى كتاب التلمود . بينما نجد الفقهاء والعلماء المسلمين يناقشون التوارة ويمحصون ما دونه اليهود في أسفار موسى الخمسة بمقارنته مع مضمون النصوص والآيات القرآنية . والسبب في ذلك يرجع إلى توافر نصوص وترجمات عربية لكثير من أسفار التوارة [٣١] .

ويرجع اهتمام الغرب المسيحي بكتاب التلمود إلى زمن القرون الوسطى، حين أخذ يتبدى في مظاهر معينة منذ أواسط القرن الثاني عشر على وجه التقريب والمقصود بقولنا "الغرب المسيحي" هو الكنيسة الكاثوليكية برؤسائها الروحيين وكبار رجالها الزمنيين بين ملوك أوربا وأمرائها على حد سواء [٢٩].

وربما كان حبيب فارسي ، الصحافي اللبناني الأصل ، ومنشئ جريدة "صدى الشرق" السياسية ، صدرت في القاهرة ربيع ١٨٩١ ، واستمرت حتى منتصف عام ١٨٩٢ ، من أوائل الذين كشفوا عن بعض تعاليم التلمود[٣٢] .

ويمكن القول أن كتاب الدكتور (أوغست روهلنغ) عن (اليهود التلمودي) يؤلف دون مبالغة تلك النافذة التي أطل منها العرب ، طيلة سبعة عقود من الزمن الحاضر ، على عالم التلمود والأواصر التي تشد اليهودي إليه ، فما من كتاب عربي يأتي على ذكر التلمود أو يأخذ على عاتقه مهمة الكشف عن الجذور التلمودية للأخلاق التي يتحلى بها اليهود ، إلا ونجد مؤلفه يستبيح لنفسه شيئا من هذا "الكنز المرصود" وهو الكتاب المشار إليه ، أو يستند إلى الأقوال المعلومات الواردة في كراس الدكتور "روهلنغ" .

ومما لاريب فيه أن الترجمة العربية التى قام بها الدكتور يوسف نصر الله عن النص الفرنسى وأصدرتها مطبعة المعارف بمصر سنة ١٨٩٩ تحت عنوان (الكنز المرصود فى قواعد التلمود) هى مبنية على واحدة من الترجمات الفرنسية الثلاث التى تمت لكتاب روهلنغ الذى كتب فى الأصل باللغة الألمانية سنة ١٨٧١ .

وهناك كتاب أعيد طبعه ونشره المكتب الاسلامى فى بيروت سنة ١٩٦٩ تحت عنوان (همجية التعاليم الصهيونية) للأب بولس حنا سعد ، أما الطبعة الأولى ، فكانت سنة ١٩٨٣ . والرسالة تريد إرجاع الصهيونية وتعاليمها إلى التلمود "هذا الكتاب المعبر عن عقيدة اسرائيل كما هى فى التلمود بلا زيادة ولانقصان" وقد اعترف الأب سعد بأنه اعتمد اعتماداً كاملاً على كتاب روهلنغ (٣٣) .

وهناك ثلاثة معانى لكلمة تلمود (٣٤) .

أولا: التلمود بمعنى التعليم والتعلم والدرس Midrash

ثانيا: تدل كلمة "تلمود" كما هى الحال فى عبارة "تلمود لومار" Talmud Lomar التى يتكرر استعمالها فى اصطلاحات (التنائيم) (٣٥) - على التدريس بواسطة نصوص الكتاب المقدس والإستنتاجات التفسيرية المستخلصة من دراسة تلك النصوص أى أنها تشير إلى طريقة خاصة فى التعلم والمحاجة ، حيث يتم شرح الأصول الشرعية ، والأحكام الفقهية بالإستناد إلى نصوص التوارة وتفسيرها الإثباتى .

ثالثا:التلمود بمعناه اللاحق : كمصنف للأحكام الشرعية أو مجموعة القوانين الفقهية لليهودية .

غير أن الدلالة الأخيرة هى الأكثير شيوعاً وشمولاً منذ منتصف القرن الثامن الميلادى ، لذا يصح اعتبار "التلمود" بمعناه الحرفى مرادفاً للتعليم القائم على أساس التقليد السماعى أو الشفهى : أما التسمية التى تطلق عادة على مجموعة الكتب والأسفار التى تحوى سجل التشريعات والمجادلات والأخبار

والقصص والأقوال الحكيمة فإنها تعتبر "التلمود" بمعناه الواسع والشامل للدلالة بذلك على الأعمال والآثار التى أنتجتها المدارس الدينية اليهودية فى فلسطين وبابل خلال الفترة الممتدة من القرن الثالث إلى القرن الخامس للميلاد ، أى أثناء العصر المعروف بعصر الأمورائيم [٣٦] .

لكن ، كيف نشأ التلمود ؟

كانت هناك فرقة من اليهود (الفريسيين) نرى أن التوراة ليست هى كل الكتب المقدسة ، وإنما هناك بجانبها روايات شفهية تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل .. وتلك الروايات هى التى تعرف بالتلمود . وبعد المسيح بمائة وخمسين سنة خاف أحد الحاخامات المسمى "يوضاس" أن تلعب أيدى الضياع بهذه التعاليم الشفوية وتلك الروايات المتناقلة ، فجمعها فى كتاب سماه (المشنا) ومعنى كلمة المشنا الشريعة المكررة لأن المشنا تكرار لما ورد فى توراة موسى ، وليس المشنا إيضاحاً وتفسيراً وتكميلاً لهذه الشريعة ، بل هو تكرار لما ورد بها [٣٧].

وفى السنين التالية أدخل حاخامات فلسطين وبابل كثيراً من الزيادات على ما دونه "يوضاس" وأتم الربّى يهوذا سنة ٢١٦ م تدوين هذه الزيادات والروايات الشفوية ، وأصبحت كلمة المشنا تضم كل ما كتب من عهد يوضاس إلى عهد الربى يهوذا .

واستعصت المشنا على بعض القراء ، فأخذ علماء اليهود يكتبون عليها حواشى كثيرة ، وشروحاً مسهبة ، وسميت هذه الحواشى وتلك الشروح باسم "جمارا" ومن المشنا والجمارا يتكون التلمود .

وقد ألفت المشنا باللغة العبرية وألفت شروحها "الجمارا باللغة الآرامية ، فكان يدون المتن باللغة العبرية ، ثم يشرح بالآرامية .

وتسمى اللغة العبرية التى ألفت بها أسفار المشنا باللغة " الربانية" لأن فقهاء اليهود الذين يطلق عليهم اسم "الربانيين" هم الذين استخدموها فى تأليف

هذه الأسفار ، وهى تختلف اختلافاً غير يسير عن اللغة العبرية التى ألفت بها أسفار العهد القديم [٣٨].

وذلك أن تأليف أسفار المشنا قد حدث بعد أن انقرضت العبرية من لغة التخاطب لدى بنى اسرائيل وحلت محلها فى ألسنتهم اللغة الآرامية، واقتصر استخدام العبرية لديهم على ميادين الكتابة ، وخاصة فى شئون الدين. ومن ثم تمتار اللغة التى ألفت بها المشنا بشدة تأثرها باللغة الآرايـة . وكما يبدو فى كثير من مظاهر التأثر ببعض اللغات الآرامية الهندية - الأوربية التى احتك اليهود بأهلها احتكاكاً سياسياً أو ثقافياً وخاصة اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية .

ولكن هذا لا ينقص شيئاً من قيمتها اللغوية والتاريخية ، وذلك لأن ما بها من مفردات أجنبية لا يعد شيئاً مذكوراً بجانب ما استخدمته من المفردات العبرية التى لا يوجد بعضها فى العهد القديم .

وأما شروح المشنا المسماة الجمارا وهى التى ألفت باللغة الآرامية فقد قامت بها مدرستان :

إحداهما : مدرسة يهود فلسطين ، وقد ألفوا شروحهم هذه باللغة الآرامية : (الفلسطينية الحديثة) .

والأخرى: مدرسة يهود بابل ن وقد ألفوا شروحهم هذه باللهجة اللآرامية، (الجنوبية الشرقية)[٣٩].

ومن المؤكد أن المحاولات الأولى لرواية شرائع المشنا وتقييدها لم تبدأ إلا بعد السبى البابلى فى القرن الخامس ق.م بزمن طويل . وقد ظلت هذه الشرائع تروى بلا رقيب ولا حسيب ، وتسودها القصص الكاملة إلى القرن الأول ق.م ، ويقول "ميلتسيز" Mielziner إن أول جهد بذل لإقرار شئ من النظام والمنهج فى تلك الكتلة المختلطة من المرويات هو الذى قام به الإمام اليهودى "هليل" رئيس المجلس الدينى الأعلى "السنهدرين" فى أيام هيرودس ، أمير اليهود الذى ولد المسيح فى زمانه ، فهذا الإمام هو الذى خطط تقسيم

هذه المرويات إلى أقسامها الستة المعروفة ، ثم جاء من بعده إمام آخر هو "عقيبا" فنظم بعض التفاصيل الجزئية فى داخل هذه الأقسام الستة[٤٠] وجاء بعده الإمام "مئير" فأكمل نصوص المشنا وأضاف إلى نظامها مزيداً من الأحكام ، أما الذى قيدها كتابة فى وضعها الذى نعرفه فهو الإمام "يهوذا هاناسى".

ولم يكن عمل يهوذا هاناسى مجرد تبويب وتنظيم ، بل إنه أكمل المرويات وقام بعملية تمحيص وتدقيق أبعد بموجبها من المشنا مجموعة من النصوص سميت "البرانية" .

منذ هذا الوقت أصبحت هذه المجموعة من النصوص والشرائع تسمى "مشنا الربى يهوذا" تمييزا لها عن محاولات عقيبا ومئير .

ومع كل ذلك ما يزال علماء اليهود حتى الآن يشكون فى أن يكون الرب يهوذا قد قيد المشنا بالكتابة ، ويعتمدون فى ذلك على نصوص جاءت فى التلمود تبدو صريحة فى النهى عن كتابتها كقوله "إن الأمور التى تروى شفاهة ليس لك الحق فى إثباتها بالكتابة" لكن الرأى المعتمد عموما هو أن يهوذا قد كتب المشنا بأكملها .

ويتكون المشنا من ستة مباحث تسمى "سيدرايم" ، أى "أحكام" وهى[٤١] :

١- زيرائيم Zeraim (البذور:Seeds) ، ويتضمن اللوائح الزراعية ،١١ رسالة .
٢- مؤئيد Moed(الأيام المقررة) ، يحتوى على لوائح الأعياد والصيام ، ١٢ رسالة.
٣- نشيم Nashim (المرأة) يتضمن قوانين الزواج والطلاق والنذور والناذر ، ٧ رسائل .
٤- نيزيكين Nezekin (الأضرار) يشمل القوانين المدنية والجنائية ١٠ رسائل .
٥- كودا شيم Kodashim (الأشياء المقدسة) . عن قوانين الصلاة ، ١١ رسالة) .

٦- توهاروث Toharoth (الطهارة) عن قوانين الطهارة والنجاسة . ١٢ رسالة .

ويبلغ عدد هذه الرسائل ٦٣ رسالة ، وكلها مقسمة إلى فصول وجمل (٤٢) والتلمود يشار إليه أحيانا بكلمة شاس shas وهى اختصار للكلمة العبرية Shishah Sedorim ، أى "الأحكام السنة" .

وبالإضافة إلى هذه الرسائل الست ، توجد رسائل تلمودية صغيرة.

وهناك ست رسائل أخرى ، تضاف إلى طبعات التلمود الجديدة(٤٣)!!

كما أن هناك سفر مماثل للتلمود تماماً يسمى "ميدراش" Midrash وهو يجمع الحكم والقصص والأحكام التى جمعها ، أو اختلقها الحاخامات بعد إتمام التلمود ، فدونوها فى هذا السفر مخافة أن تضيع(٤٤).

وعندما انتهى الربى يهودا هناس من تقييد نص المشنا فى صورته النهائية تركزت جهود العلماء اليهود على شرحها فى مراكز تجمعهم التقليدية فى العراق ، حيث استمر تجمعهم هناك كجالية أجنبية ، منذ السبى البابلى ، كما ظهر لهذا النص شراح فى فلسطين من ملوك اليهود التى بقيت هناك بعد السبى ، أو بعد الأحداث الكثيرة التى توالت على فلسطين ، كما أن كثيراً من هؤلاء اليهود كانوا قد جاءوا إليها متسللين، للحج أو للزيارة أو الإقامة ، بحسب الظروف (٤٥).

فى هاتين الناحيتين من الشرق الأوسط بدأت طبقات متعاقبة من أحبار اليهود تشرح نص المشنا شرحاً مستفيضاً ، تودع من خلاله كل ما أرادت الاحتفاظ به وأشاعته بين اليهود من شرائع وفتاوى وحكايات وأساطير وخرافات وتفريعات واستطرادات فى كل علم وفن ودون

ترتيب أو تخطيط ، مكونة بذلك القسم الثانى من التلمود وهو (الجمارا).

وكان معلمو الجمار يسمون (أمورائيم) - المتكلمون - أى الذين انطلقت ألسنتهم فى المدارس اليهودية شارحين وباسطين ، فى ما يشبه المحاضرات الشفوية ، التى ينصت إليها التلاميذ ليصبحوا بدورهم ، عندما يصلون إلى النضج العلمى ، طبقة أخرى من الأمورائيم ، وعلى ذلك فإن طبقات الأمورائيم هى الاستمرار الدينى والفكرى فى ظل الجمارا لطبقات التنائيم فى ظل المشنا [٤٦].

وقد أدى قيام شرح المشنا (الجمارا) فى بيئتين مختلفتين ومستقلتين هما فلسطين غربا والعراق شرقاً إلى ظهور تلمودين اثنين لا واحد : التلمود الغربى ، وهو الذى يسمى التلمود الأورشليمى ، تمسحا فى مدينة القدس وتبركا بها ، والتلمود الشرقى ، وهو الذى يسمى التلمود البابلى تذكيراً بقوة البحث الدينى فى العراق منذ السبى البابلى وعلى أيام بختنصر ، ولأن العراق كان يسمى منذ ذلك الوقت عند اليهود "بابل"[٤٧].

ويعتبر اليهود التلمود من قديم الزمان كتاباً منزلاً كالتوراة ، ما عدا طائفة اليهود القرائين ، فإنهم لا يعتقدون ذلك . ولكن اذا أمعن الإنسان النظر رأى أن اليهود يعتبرون التلمود أفضل من التوراة ، ولم لا [٤٨]؟ وقد جاء فى صحيفة من التلمود أن من درس التوراة فعل فضيلة لا يستحق المكافأة عليها ، ومن درس "الجمارا" ، فعل أعظم فضيلة .

وجاء فى كتاب "شاغيجا" أن من احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت ، أما من يحتقر أقوال التوراة فإنه لا ينال عقاباً ، ولا خلاص لمن ترك تعاليم التلمود واشتغل بالتوراة فقط ، لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء فى شريعة موسى . وقد جاءت أقوال

الحاخامات وعلماء اليهودية مطابقة لهذا المبدأ ، فقال العالم "بشاى" لا يلزم أن تختلط بمن يدرس التوراة والمشنا دون الجمارا [٤٩].

وجاء فى التلمود أن الله أعطى موسى الشريعة على طور سيناء وهى التوراة والمشنا والجمارا ، ولكنه أرسل على يد موسى الكليم التلمود شفاها حتى إذا حد ث فيما بعد أن تسلطت أمة أخرى على اليهود يوجد فرق بينهم وبين باقى الوثنيين [٥٠] ، وزعموا (أن الله لا شغل له فى الليل غير تعلم التلمود مع الملائكة)، ومع ملك الشياطين، فى مدرسة السماء .

(وفى النهار يطالع الله الشريعة فى ثلاث ساعات ، ويحكم فى ثلاث ، ويطعم العالم فى ثلاث ، ويلعب مع الحوت فى ثلاث) ، ذلك لأن زمن النهار إثنا عشرة ساعة [٥١].

ومن ثم كان عقاب من خالف تعاليم التلمود الحرمان الذى نصه [٥٢]:

(بناء على حكم إلهنا ، إله الآلهة ، يحرم فلان بن فلان من المحكمتين ، محكة أول درجة ، والمحكمة العليا ، ومن القديسين والملائكة ، ومن الجمعيات الكبيرة والصغيرة ، ويضار بالقروح والأمراض الخبيثة كلها ، ويكون منزله مسكنا للجن ، ويكون نجمه مظلما فى السماء ، ومن المغضوب عليهم ، ويطرح جسده للوحوش المفترسة والثعابين ، ويفرح أعداؤه ، ومن يريد له الشر ، وتعطى أمواله من الذهب والفضة لغيره ، وتسقط تلك الأموال تحت سلطة العدو ، ويلعن أولاده حياته ، ويكون ملعونـاً من فم عبد بريون وعشتاربال وصندلفون وعزرائيل وغسيل وباشتيل ، ويسقط ولا يقوم ويلفظ من قبور بنى اسرائيل ، وتعطى إمرأته لغيره ويميل إليها آخرون بعد موته ، ويسقط هذا الحرمان على فلان بن فلان ، ويكون من نصيبه ، أما أنا وبنو اسرائيل فتكون لنا بركة الله وسلامه ، آمين) .

إن الذى جعل اليهود ويتشبثون بتعاليم التلمود هو الإنهيار المفاجئ لشوكتهم وإغلاق كل مدارسهم مرة واحدة ، الأمر الذى جعلهم يبحثون عن تعاليم جديدة للمرحلة القادمة ، ووجدوها فى التلمود (الذى يعلمهم على مواصلة الحياة بالإنغلاق والسيطرة على المجتمع تمهيداً لاقامة امبراطورية عالمية) ، يقول د. جوزيف باركلى [٥٣] : "رغم أن أى مجمع (يهودى) عام لم يتبن التلمود رسميا إلا إن اليهود الأرثوذكس (مستقيمى العقيدة) تبنوه ، لأنه زودهم بشئ شعروا بحاجتهم إليه" .

وفى رأى د.أ فابيان أن التلمود "أسهم بقوة فى حفظ (اليهود الدينى القومى) ، بأن مكنه من أن يتأقلم مع كل زمان ومكان ، فى كل دولة ومجتمع ، وفى كل درجة من الحضارة " . وينقل (فابيان) قول جينز برج L. Ginzberg : "أعطى التلمود اليهودىّ جنة روحية خالدة ، يلجأ إليها كيفما شاء ، هارباً من العالم الخارجى بكل ما فيه من حقد ومظالم. وعلى صفحات التلمود وجدت أجيال اليهود المتعاقبة إشباعاً لأعمق أمانيها الدينية . وكذلك وجد اليهود فى التلمود نافذتهم لأسمى استلهاماتهم الفكرية . ورغم أن العالم قد انقطع عن قرونه الماضية ، فإن التلمود لا يزال – بعد التوراة – القوة الروحية والأخلاقية المثمرة فى الحياة اليهودية" [٥٤].

والحق أننا نجد العديد فى المصادر اليهودية من الأقوال التى تبين دوراً التلمود والتى تنسج على منوال عام أحدها التالية : "لم يحافظ شعب اسرائيل على السبت فحسب ، بل أن السبت هو الذى حافظ على شعب اسرائيل" . لذا تطالعنا عبارات لا حصر لها فى معرض التأكيد بأن (التلمود) هو الذى صان الشعب اليهودى وحافظ عليه أكثر مما حافظ هذا الشعب على التلمود وصانه" . بينما نجد اسرائيل براهمز يرود ذلك القول مع تعديل ظفيف ، حيث يعلم : "لقد بقى اليهودى على قيد الحياة عبر التلمود ، ولا يزال التلمود حيا فى حياة اليهودى" [٥٥] .

يقول المؤخ اليهودى الألمانى هاينزيخ غريتس عن التلمـود البـابلى بأنه " كان الأثير الـذى صـانهم مـن الفسـاد ، وتلـك القـوة الدائبـة التـى تغلبت على الخمول وتبلد الملكات العقلية ، لا بل ذلك النبع الأزلى الذى أبقى الذهن دائم التوقد والنشاط . وبكلمة واحدة ، فإن التلمود هو مربـى الأمة اليهودية ومعلمها" . أمـا هـذه التربيـة التلموديـة ، فلـم تكـن تربيـة سيئة أبدا - على حد قولـه - لأنهـا أثمـرت أحسـن النتـائج وأفضلهـا ، فالتلمود هو صاحب الفضل الأول فى تحقيق الإنجازات التالية [٥٦] .

أولا : لقد أنمى التلمـود وتعليمـه لـدى اليهـود درجـة مـن الأخـلاق لا يستطيع الأعداء إنكارهـا عليهـم ، وذلـك رغـم التـأثير المزعـج لكل من العزلة والإهانة والإضعاف المنظم للمعنويات .

ثانيا : صان الحياة الدينية والأخلاقية فى اليهودية وأسهم فى ترقيتهـا ورفع مستواها .

ثالثا : كان بمثابة الراية التى التفت حولها الجاليات اليهودية المنتشـرة فى مشارق الأرض ومغاربها ، وصـانت اليهـود مـن الإنشـقاق والإنقسامات الطائفية .

رابعا : أسـهم التلمـود فـى تعريـف الأجيـال اللاحقـة إلـى تـاريخ الآبـاء والأجداد .

خامسا: أنتج حياة فكرية عميقة الغور ، بحيث حافظت تلك الحياة علـى اليهـود المضطهديـن والمحروميـن مـن الجمـود والركـود ، وأنارت لهم شعلة العلم .

وهكذا نجد أن المؤرخين والباحثين اليهـود يجمعـون علـى الإشـادة بدور التلمود فى الحياة اليهودية ويعترفون بمنزلته وأثره البعيد ، لكنهـم يتجنبـون إيـراد كـل إشـارة مـن شـأنها أن تبيـن لنـا بصـورة مباشـرة وصريحة شيئاً يسيراً عن النواحى المظلمة فى تسلط التلمـود وطغيانـه الجـائر علـى الحيـاة اليهوديـة طيلـة قـرون ، فـالتلمود صـاحب الفضـل

الأكبر فى تربية اليهود وطبعهم بطابع معين مثلما أنه ساهم إلى حد بعيد فى إبقاء الصلات حية بين اليهود وتقاليدهم وبنى لهم عالماً قائماً بذاته(٥٧) .

ويعترف (برنارد لوزار) بأن التلمود بمثابة " المعلم الأكبر" لليهود. إن له دوره فى تكوين اليهود وتحويل "الأفراد المتحررين من أصول متفرقة "إلى" شعب واحد" ، فالتلمود اذن هو ذلك "القالب" الذى صنع "النفس اليهودية" وصاغ خصائصها :

ومع ذلك فقد اعترف المؤرخ اليهودى "جريتس" Graetz بعدد من الشوائب فى التلمود صنفها إلى فئات أربعة (٥٨).

١- يحتوى التلمود على الكثير من التفاهات والمعابثات التى يعلاجها الربانيون بقدر كبير من الجدية والخطورة .

٢- يعكس التلمود شتى الممارسات والآراء الخرافية التى كانت سائدة فى مكان ولادته الفارسى ، وهى تؤمن بفعالية العلاجات العجيبة والعقاقير الشيطانية والسحر والرقيات والتعاويذ ، إلى جانب تفسير الأحلام : وهذه كلها من الأمور التى تتنافى مع روح الديانة اليهودية .

٣- يتضمن التلمود أيضا أمثلة متفرقة ومنعزلة على الأحكام والمراسيم القاسية ضد أبناء الأمم والديانات الأخرى .

٤- ويحبذ التلمود ، أخيرا ، شرحاً وتفسيراً مغلوطا للكتاب المقدس ، فيقبل التفسيرات الخاطئة التى ينفر منها الذوق السليم ويأباها .

الخبرة التاريخية :

إذا كنا قد عرضنا فى الفصل الأول لمحات عن تاريخ بنى اسرائيل فإننا فى الجزء الحالى لا نسعى الى تكرار ما قلناه .

فى الفصل الأول اقتصر دورنا على التسجيل والتصوير ، أما هنا فنحن نبحث عن (الأثر) و (الدلالة) لما حدث على تربية الاسرائيلى على أساس أن (الخبرة التاريخية) تشكل مصدراً أساسياً لهذه التربية ، بل لكل أمة ولكل شعب . فكما أن شخصية الانسان الفرد ، إنما هى محصلة جملة الخبرات التى مر بها فى حياته ، فكذلك تربية شخصية هذه الجماعة التى هى موضوع دراستنا .

وبنظرة إجمالية على الخبرة التاريخية لبنى اسرائيل ، أكد (لوبون) أن اليهود لم يكن لهم فنون ولا علوم ولا صناعة ولا أى شىء تقوم به حضارة . واليهود لم يأتوا قط بأية مساعدة مهما صغرت فى شيد المعارف البشرية ، واليهود لم يجازوا قط مرحلة الأمم شبه المتوحشة التى ليس لها تاريخ . وإذا ما صارت لليهود مدن فى نهاية الأمر ، فلما أدت اليه أحوال العيش بين جيران بلغوا درجة رفيعة من التطور ، بيد أن اليهود كانوا غاية في العجز عن أن يقيموا بأنفسهم مدنهم ومعابدهم وقصورهم فاضطروا فى إبان سلطانهم ، أى فى عهد سليمان الى الاستعانة بالخارج ، فجلبوا منه لذلك الغرض بنائين وعمالاً ومتفنين لم يكن من بنى اسرائيل مثيل لهم [٥٩].

وعلى ما كان من هزال تلك القبيلة السامية الصغيرة الكئيبة فى نشوئها العقلى ، مثلت بالديانات التى صدرت عن معتقداتها دوراً بلغ من الأهمية فى تاريخ العالم يتعذر معه عدم الاكتراث لها فى تاريخ الحضارات .

ويوجز البيردى بورى أستاذ العهد القديم فى كلية اللاهوت البروتستانتية فى جنيف ، رسالته للدكتوراه (الوعد الالهى والخرافة الشعائرية فى أدبيات يعقوب) على النحو التالى [٦٠]:

"أن الموضوع التوراتى لهبة البلاد يستمد أصوله من (الوعد الأول) أى الوعد الالهى لابراهيم بحسب المأثور فى سفر التكوين ،

فأقاويل سفر التكوين تنقل لنا فى مرات عديدة وبأشكال مختلفة : أن الله وعد الآباء وذرياتهم بملكية الأرض التى كانوا فى سبيلهم الى التوطن فيها" ، ويستطرد البيردى بورى قائلاً : إن معظم المفسرين قد أخذوا الوعد المعطى للآباء بمعناه الكلاسيكى على أنه إضفاء للشرعية ـ بعد الأحداث ـ على الغزو الاسرائيلى لفلسطين ، أو على أنه امتداد للسيادة الاسرائيلية فى عهد داود . بعبارة أخرى ، فقد أدخل الوعد ضمن أحاديث الأباء بغية اتخاذ هذه الملحمة السلفية كتمهيد وكإعلان عن العصر الذهبى الداودى والسليمانى (٦١).

وهكذا فإننا لسنا فى حل من التأكيد على أنه فى فترة من فترات التاريخ ظهر الرب أمام شخصية تاريخية تسمى إبراهيم وأنه قد منحه الصكوك الشرعية لامتلاك أرض كنعان . ومن الناحية القانونية ، فإننا لا نملك أى صك للهبة موقعة من (الله) ، بل ولدينا من الأسباب القوية ما يجعلنا نفكر فى أن المنظر الوارد فى سفر التكوين على سبيل المثال، لا يعكس حادثة تاريخية .

فهل من الممكن ، والحال هذه تفعيل وعد الآباء ؟ فإذا كان معنى تفعيل الوعد هو استخدامه كصك من صكوك الملكية أو لوضعه فى خدمة المطالبات السياسية ، فهو ليس كذلك ، فليس هناك أية سياسة لها حق ادعاء كفالة الوعد وضمانه (٦٢).

والمتتبع للروايات الاسرائيلية سرعان ما يدرك أن هناك خيطاً رفيعاً يربط بين كل هذه القصص وتلك الروايات ، ألا وهو فكرة (الشعب المختار) فأبناء اسرائيل ، فى هذه الروايات ، لا يتساوون مع باقى البشر ، وإنما هم ـ بسبب نسبهم ـ أصبحوا يحتلون مكانة خاصة بين الشعوب . ويبدو أن أحد الأسباب التى أدت الى ذلك هو أن هذه القصص تمت صياغتها أيام السبى البابلى ، عندما لم يكن هناك كيان سياسى أو اجتماعى مستقل لسلالة اسرائيل ، فأراد الكتبة استثارة النزعة القومية لدى بنى اسرائيل فى محاولة لإحياء كيانهم ، وهذا ما

حدث عندما أعاد الكهنة بناء ـ معبد القدس وتكوين دولة يهوذا ، مع ظهور الديانة اليهودية فى القرن السادس ق.م [٦٣] ، ورغم أن الاله "ايل" الذى تحكى عنه التوراة ، كان رمزاً للقوة والبطش والانتقام والعافية ، فلم تعمل هذه الصفات المخلوعة على (ايل) أدنى أثر من امتثال أو خضوع على أبناء يعقوب ، بل بالعكس نجد أن الأول من أبناء يعقوب نسب إلى الأب أنه صارع إنساناً فغلبه ولم يبال بالاله (إيل) ، ولذا فهو يستحق أن يطلق عليه من عند هذا الحادث (يسرائيل) مؤلفامن " يسر" العبرية التى لم تكن قد استقرت أو اصطلح على قواعدها بعد ، بمعنى " ساد " أو " غلب " و " ايل " وهو الاله القوى القاهر عندهم ، فكان المعنى " غلب الله " القوى القادر[٦٤] . وعلى ذلك التقدير الذى يمكن أن يستفاد من الجو العام للآيات التوراتية التى تحدثت عن ظروف نشأة تسمية (يعقوب) بـ (اسرائيل) دون أن تفصح صراحة عن هذا المشار اليه ، فإن هناك بعض آيات توراتية ترجع منشأ التسمية الى موقف يعقوب مع ربه الذى قال له ساعتها : " اسمك يعقوب لا يدعى اسمك يعقوب فيما بعد ، بل يكون اسمك اسرائيل" .

وعند هذه المرحلة بالذات كانوا يحرصون على أن يقسموا بهذا الاسم (اسرائيل) وأن ينادوا بأبناء اسرائيل ، حتى يخلعوا على أنفسهم بهذا الوصف معنى القوة والقدرة ، واكتساب صفات الغلبة ليتيسر لهم أن يحيوا الحياة التى يريدون وبالأسلوب الذى يحبون وتتعلق به عواطفهم [٦٥].

ولعل سائلاً يتساءل : لم اختار الله معجزة لموسى عليه السلام من نوع السحر ؟، ولعل الجواب على ذلك إنما يأتى من دراستنا للتاريخ المصرى فى عصور القديمة ، حتى نستطيع أن ندرك الحكمة من نزول الآية والمعجزة بالصورة التى شاء الله أن تنزل بهما ، فما كانت لتتزل إلا فى أمر من واقع حياة الناس وما يدور بأذهانهم فتكون محققة فى أعينهم على غير قاعدة ولا قياس لخارق من الأعمال ، طالما

فكروا فيه وسمروا به وضربوا به أغوار الوهم وتخيلوه ، وقد ورد لنا عن الحياة المصرية القديمة من أحاديث السحر والسحارين ما كان الناس يخرجون به الى عالم الغيب من عالم الشهادة ، ومن دنيا الواقع الى آفاق الخيال[٦٦].

وهكذا كانت معجزة موسى من نوع السحر الذى برع فيه المصريون ، ومن هنا كان للسحرة أثر فى التفكير والسلوك الاسرائيلى فى الفترات التالية .

وعلى الرغم من كل ما فعله موسى من أجل بنى قومه ، فإنهم تمردوا عليه فى سيناء عدة مرات ، وكان أبرزها أنهم شعروا بحرمانهم من طعام كانوا يحصلون عليه من مصر بقدر من الإرتياح . وليس هناك من ريب فى أن ذلك إن دل على شئ ، فإنما يدل على أن اليهود كانوا يفضلون الحياة الذليلة تحت سياط الرق والإستعباد ، بجوار قدور اللحوم ، على حياة الحرية والكرامة . تقول التوارة :"فتذمر كل جماعة بنى اسرائيل على موسى وهارون فى البرية ، وقال لهما بنو اسرائيل (ليتنا متنا بيد الرب فى مصر ، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع ، فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر ، لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع" [٦٧] ، ثم طفقوا يعددون ما كانوا يجدون فى مصر من الخير وألوان الطعام . تقول التوارة :"من يطعمنا لحماً ، قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجاناً ، والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم ، والآن قد يبست أنفسنا ليس شئ غير أن أعيننا إلى هذا المن"[٦٨].

وقد بدأ بنو اسرائيل يفكرون فى وطن يستقرون فيه ، وكان هذا الوطن هو أرض كنعان ، رغم أنها لم تكن لهم من قبل دار قرار ، إذ أنهم لم يقيموا فيها إلا لفترة وجيزة لا تتجاوز أيام اسحق ويعقوب ، ثم هاجروا منها بسبب سخط عم وطال ، فكانت أرض النيل الطيبة هى الملجأ أو المأوى ، فقدموا إليها بدعوة من يوسف الصديق بعد أن

أصبح عزيز مصر ، وفى تلك الفترة التى أقاموا فيها هناك فى الجنوب الفلسطينى لم يمتلكوا كما تقول توراتهم ، حتى مكان خيامهم أو موضع قبورهم ، وهاهم الآن بعد أن خرجوا من مصر ، يهيمون فى صحراء سيناء المقفرة ، وهنا فقط بدأت فكرة الوطن عندهم [٦٩].

ولكثرة مظاهر التمرد والعصيان والفسق التى ظهرت بين بنى اسارئيل كان طبيعيا أن يجئ حكم الله عليهم بالفناء والتشرد وهى الفترة التى عرفت باسم (التيه) ، تقول التوارة :"إن جميع الرجال الذين رأو مجدى وآياتى التى عملتها فى مصر وفى البرية وهربوا من الآن عشر مرات ولم يسمعوا لقولى ، لن يروا الأرض التى حلفت لآبائهم ، وجميع الذين أهانونى لا يرونها" [٧٠].

وتذكر التوراة أن هؤلاء القوم قد وقعوا فى أسر الآلهة الأسطورية فى المناطق التى نزلوا بها وبخاصة الإله (يهوه) إله البراكين الذى يظهر مغلفا بالسحاب نهاراً ، وبالنار ليلاً ، ويتابعهم حيثما ارتحلوا[٧١]. وكانت عبادته تتلخص فى إقامة مآدب صحراوية وذبائح وقرابين محروقة ، وكذلك الإلهة (عنات) إلهة الأساطير الكنعانية ذات الشهوة الدامية ، وعلى هذا تتمثل أوامر (الرب) فى صورة انتقامية رهيبة [٧٢] يقول الرب لموسى "متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى أنت داخل لتمتلكها ، وطرد شعوباً كثيرة من أمامك لا تقطع لهم عهد ولا تشفق عليهم ، ولا تصاهرهم" [٧٣] ، اما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيباً ، فلا تستبق منها نسمة ما" [٧٤] من أجل أنهم "لم يلاقوكم بالخبز والماء ، فى الطريق عند خروجكم من مصر"[٧٥].

وبعد ما قويت شوكة اليهود بقيادة (يشوع) أطلق الرب يده فى أصحاب الأرض قتلاً ونهباً ، وختلاً ورجماً وحرقاً وصلباً وتمثيلاً "حرقوا كل ما المدينة من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف وأحرقوا المدينة بالنار منع كل ما بها"[٧٦].

وإذا تحدثنا عن الناحية الدينية فى عهد سليمان ، فإن أبرز عمل قام به كان بناء الهيكل الذى استمر العمل فيه حتى السنة الرابعة من ملك سليمان على بنى اسرائيل . وكان بناء المعبد ، وكذلك القصر الخاص بسليمان قد تكلف نفقات باهظة ، كانت سبباً فى إرهاق الشعب بالضرائب فضلاً عن إرهاقهم الجسدى بالسخرة فى البناء وقطع الأخشاب والأحجار (٧٧).

ولا شك أن سليمان ببنائه المعبد كان قد أسس مركزاً روحياً قوياً لليهود ارتبطوا به حتى الآن .

وعلى أرض كنعان انتهت لدى بنى اسرائيل حياة الخشونة والبداوة والتنقل وافتتحوا عهد الدعة والحضارة والإستقرار ، وسكنوا المدن والقرى والمنازل والقصور التى ورثوها عن الكنعانيين وصدف معظمهم عن مهنة الرعى أو أصبحت لديهم فى المكان الثانى ، واتجهوا إلى زراعة المحاصيل وبساتين الفاكهة ، وتعقدت حياتهم ودقت أساليبها ، وتعددت أنواع الملكية لديهم فشملت الأراضى والرقيق والأنعام والمنقولات والنقود ، وأصبح لكل نوع من هذه الأنواع من نظمه وقوانينه ، أثاره الخطيرة فى الحياة (٧٨).

وقد أتاح الإستقرار والطمأنينة اللذان سادا المجتمع الإسرائيلى فى هذا العهد فرصاً كثيرة للإثراء واستثمار الأموال . وقد أفاد من هذه الفرص أكبر إفادة بعض طبقات وبعض أفراد من بنى اسرائيل ، فملكوا الضياع والقصور ، وغرقوا أهم ونساؤهم وأولادهم فى الترف والنعيم . وظهرت الفروق واسعة صارخة بينهم وبين سائر أفراد الشعب فى مآكلهم ومشاربهم وزينتهم ومساكنهم وسائر شئون حياتهم ، واستعلوا على غيرهم استعلاءً كبيراً (٧٩).

ولما كان الفقر ينشأ من الغنى ، ولما كان الفقراء لا يعرفون أنهم فقراء إلى حين يبصرون الأغنياء بعيونهم ، فإن حرب الطبقات لم يندلع لهيبها فى اسرائيل إلا بعد أن رأى الناس بأعينهم ثروات الغير الطائلة.

وكانت الثغرة الآخذة فى الإتساع بين ذوى الحاجة وذوى اليسار ، وكان النزاع الشديد بين المدن والريف وهو النزاع الذى يصحب على الدوام قيام المدنيات الصناعية ، من العوامل التى أدت إلى انقسام فلسطين بعد موت سليمان إلى مملكتين متعاديتين [٨٠].

وفى مملكة الشمال نلمح شيئا من الإضطراب السياسيى ، ذلك الاضطراب الذى كان أحيانا كثيرة يصل إلى حد الهمجية ، فلم يكن الملك الجديد الثائر يكتفى باغتصاب الحكم من سابقه ، بل كثيراً ما كان يلجأ إلى قتل الملك القائم ثم إنزال نفس المصير بجميع أهل بيته . ومن مظاهر هذه السياسة المضطربة فى اسرائيل أن قرابة نصف ملوكها ماتوا قتلى وضحايا للثائرين عليهم من أجل اغتصاب الحكم [٨١].

وقد صحب انقسام المملكة اضمحلال دينى ، هذه الأحوال هى السبب فى قيام الأنبياء ، وكان يميز دعوتهم العداء للتطور السياسى الدينى الذى شهده عهد الملكية ، وأدى الى تلوث دين يهوه القديم وفساده . وقد ندد الأنبياء بالبدع الوثنية ، وبذلك عارضوا السلطة الملكية معارضة صريحة . وقد لاحظ العلماء أن هذه النبوة تعبير عن انبعاث روح الحرية الموروثة عن حياة البداوة ، تلك الروح التى رأت فى الملكية بدعة منكرة ونظاماً منقولاًعن العالم الخارجي المعادى لاسرائيل[٨٢].

وقد قدر لتاريخ العبريين السياسى حتى النفى الى بابل ، أن تلازمه دون فكاك دعوة الأنبياء ، فقد تابعوا تقلباته جميعاً ، ونددوا دائما بسياسة الحكام ، وكانوا يدعون إلى نقاء القلب وتواضعه ، واستقامة السلوك ، والإخلاص للعهد المعقود - فى رأيهم - مع الله ، ويفسرون مصائب الدولة اليوم أو غداً

(كما يتنبأون) بأنها نتيجة لانحراف الناس عن الولاء لله بعد أن أضلهم الحكام .

وعلى الرغم من أن فترة السبى البابلى لم تكد تصل الى أكثر من سبعين عاماً إذ قد أنهت هزيمة البابليين أمام كورش الفارسى ، فقد كانت أكثر الفترات أهمية وحسماً فى التاريخ اليهودى كله . ومرجع ذلك فى المقام الأول الى أن أحبار اليهود أثناء سنة السبى الأول كانوا يرنون بأبصارهم وهم جلوس على شاطئ النهر صوب صهيون ، يبكون المجد الذى ولى ويتغنون بالمجد الذى يرجى ، فدفعهم ذلك الى كتابة الأسفار الخمسة الأولى من التوراة المسماة باسم (أسفار موسى الخمسة). وفى هذه الأسفار ، ومن خلال أساطير أخذوها من التراث البابلى ، وضعوا أساس السياسة المستقبلة للشعب اليهودى فى إطار مازعموا أنه عهد قطعه إلههم يهوه مع إبرام باعطاء نسله (أرض الميعاد) لأنه (شعبه المختار) . وقد ظل هذا المعنى يتردد خلال التوراة كلها وليس من الميسور تعقبه فى أسفار التوراة جميعا[٨٣].

ويعلل التلمود ما نزل باليهود بقوله : "عندما بلغت ذنوب اسرائيل مبلغها، وفاقت حدود ما يطيقه الاله العظيم ، وعندما رفضوا أن ينصتوا لكلمات وتحذيرات أرمياء" ، الذى وجه القول الى نبو خذ نصر ألا تظن أنك بقوتك وحدها استطعت أن تتغلب على شعب الرب المختار ، إنها ذنوبهم الفاجرة التى ساقتهم الى هذا العذاب[٨٤].

والمعروف أن هذه الذنوب ضد الكيان الاجتماعى اليهودى ، وليست ذنوباً ضد الشعوب الأخرى ، لأنها تعد أمجادا وانتصارات .. ومن ثم انحصرت الذنوب فى انتشار الزنى بالأخت وبالأم ، كما انتشر اللواط والمساحقة ، ومواقعة البهائم ، وخلطوا أفظع الملاذ بالطقوس المقدسة ، وعدت ضروب البغاء تكريماً لعشتروت ، وعد الانهماك فى السكر على بسط الأزهار وتحت ظلال الزيتون نوعاً من العبادة .

وتعلم اليهود من تجربة السبى البابلى والعودة الى أورشليم فى حكم المستعمر الفارسى والتشرد النهائى بسيف الدولة الرومانية ، أنهم غير

قادرين على حماية أنفسهم بأنفسهم ، وأنه لا حياة لهم ، إلا في ظل حاكم قوي يخدمونه بإخلاص ويساندونه ضد الشعب ، في مقابل منحهم امتيازات وضمان أمنهم ، فوقفوا أينما ذهبوا في صف الحاكم الرجعي يقاومون كل ثورة تقدمية ، لكن ما أن يطيح الشعب بالحاكم القديم حتى يسرع اليهود الى الحاكم الجديد يعدونه بنفس الإخلاص والوفاء، فهم دائماً مع الكفة الراجحة . وفي الفترة قبل هدم المعبد أخذوا يجمعون الأموال من بلاد الهجرة ثم يرسلون مدخراتهم الى أورشليم ، حتى صار المعبد مخزناً لثروات العالم ، فأثار مسلكهم هذا حقد الشعوب عليهم [٨٥].

ويجمل زكي شنودة في عدة فصول " أخلاقيات " بني اسرائيل من خلال مسيرتهم التاريخية :

- كان اليهود منذ نشأتهم الأولى من أكثر الشعوب شروراً وآثاماً ، ووحشية وإجراماً ، وخيانة وغدراً ، وخبثاً وخداعاً ، ورياء والتواء ، وخسة وجبناً ، وتعصباً وغروراً ، ونهماً وجشعاً ، وانغماساً في الدعارة ، والسلب والنهب ، يفرطون في أعراضهم ليصلوا الى أغراضهم ، ويبيعون ذمتهم وكرامتهم وشرفهم ، بل وديانتهم وإيمانهم بالله في سبيل قليل من المال ، أو قدر ضئيل من النفوذ والجاه . وكانوا على الدوام أهل شقاق ونفاق ، وتمرد وعصيان ، يثيرون الفتن أينما كانوا ، ويدبرون المؤمرات ضد الأمم الأخرى ويحيكون المكائد بعضهم ضد بعض ، حتى إذا غضب الله عليهم وعاقبهم ، راحوا يولولون شاكين باكين متمسكنين معترفين بشرورهم ملتمسين عفو الله عنهم وغفرانه لهم ، فإذا عفا عنهم وغفر لهم عادوا الى ما كانوا فيه .

- وكان اليهود - في معظم الأحوال - وعلى الرغم من أنهم شعب صغير ، أكثر الشعوب غروراً وتعصباً لجنسهم ، فهم ينظرون إلى غيرهم من الشعوب غير اليهودية نظرة التعالي والازدراء ، مهما كانت نشأتهم ، ومهما بلغت سطوتها أو حضارتها أو عراقتها أو اتساع رقعتها ، وكانوا يلقبون هذه بالأمم احتقاراً لها واستصغاراً لشأنها . وكانوا يعتبرون أرض هذه الشعوب نجسة ، إذا مسها يهودي تنجس ووجب عليه أن يبادر الى تطهير نفسه على مقتضى أحكام الشريعة ، فحين كان التاجر اليهودي يعود إلى بلاده كان يخلع

نعليه وينفض الغبار العالق بها من بلاء الأمم الأخرى ، ويغسل جسمه وثيابه(٨٧).

- أظهر اليهود أنهم كانوا من أكثر الشعوب ظلماً لغيرهم ولبعضهم البعض ، حتى لقد صرح أنبياؤهم منددين بهم موبخين إياهم على ما ارتكبوا من مظالم ، إذ جاء في سفر عاموس " ... لأني علمت أن ذنوبكم كثيرة وخطاياكم وافرة أيها المضايقون البارّ ، الآخذون الرشوة الصادون البائسين في الباب ، لذلك يصمت العاقل فيذلك الزمان لأنه زمان ردئ"(٨٨).

ويبلغ التعبير عن فشو الظلم ما جاء من نصح في سفر آخر "... لا تأتمنوا صاحبا ، لا تثقوا بصديق . احفظ أبواب فمك عن المضطجعة في حضنك لأنه الابن مستهين بالأب والبنت قائمة على أمها .. وأعداء الإنسان أهل بيته" (٨٩)!!!

- سيطرت على اليهود على الدوام نزعة عنيفة مخيفة الى القسوة الجنونية ، وولع حقود مضطرم بالقتل والذبح والشنق والخنق والحرق والرجم والتنكيل والتعذيب وتقطيع الأوصال وإبادة الناس بالجملة وإشعال النار في المدن واشاعة الدمار في كل مكان يقع في قبضتهم(٩٠).

- وإذ شاعت بين اليهود مظاهر الغدر والخيانة ، وكذلك الرياء والنفاق ، اكتملت لهم الصفات اللازمة للجواسيس ، فبرعوا في الجاسوسية والاندساس بين الشعوب لخداعها ، واستغلال ثقتها فيهم للاطلاع على أسرارها وخباياها ، ثم استخدام هذه الأسرار والخبايا في السطو على هذه الشعوب والقضاء عليها ، كما كانوا لا يتورعون عن أن يتجسسوا بعضهم ضد البعض الآخر في صراعهم الذى لم ينقطع أبداً (٩١).

- واشتهر اليهود في معظم عصورهم بالتمرد والعصيان وإثارة الشغب ، فكانوا على الدوام يتمردون على حاكمهم سواء أكان يهودياً أم غير يهودى . بل كانوا دائماً يتمردون على ربهم ويعصون ويثورون ، فلم تكن حياتهم تخلو أبداً من الخصومات والمنازعات والمشاحنات والاضطرابات والتدمير والتخريب وإشعال النار وسفك الدماء(٩٢).

أما جوستاف لوبون ، فقد أشار الى جوانب أخرى ، بعضها شبيه بما سبق والبعض الآخر يسير فى نفس الاتجاه على وجه التقريب ، فلقد أثبت اليهود عجزهم التام العجيب عن الاتيان بأدنى تقدم فى الحضارة التى اقتبسوا أحط عناصرها ، واليهود بعد أن جمعوا ثروات وفق غرائزهم التجارية القوية ، لم يجدوا بينهم بنائين ومتفننين ، قادرين على شيد مبان وقصور فاضطروا الى الاستعانة على ذلك بجيرانهم الفينيقيين على الخصوص كما تدل عليه التوراة ، واليهود قد اقتصرت معارفهم على تربية السوائم وعلى ملح الأرض ، وعلى التجارة بوجه خاص [٩٣].

وما كان فلاح اليهود ليدوم غير فترة قصيرة على ذلك ، فقد أسفرت غرائزهم فى النهب والسلب ، وقد أسفر تعصبهم عن عدم احتمال جميع جيرانهم لهم ، فلم يشق على هؤلاء الجيران أن يستعبدوهم . ثم إن اليهود عاشوا عيش الفوضى الهائلة على الدوام تقريبا ، ولم يكن تاريخهم الكئيب غير قصة لضروب المنكرات[٩٤].

والبؤس الأسود الذى صب من فوره على بنى اسرائيل هو الذى حال ، لا ريب ، دون انحلالهم التام وأدى الى محافظتهم على وحدتهم العجيبة ، وما أوحى به إليهم دوماً من كره عميق لمختلف الأمم التى اتصلوا بها ، صانهم من الزوال بانصهارهم فيها ، وما حدث من سحق الدول المجاورة إياهم ، ومن استعباد الدول الآسيوية العظمى لهم فى كل حين ، ومن استرسالهم فى الفتن الداخلية الدائمة ووقوعهم فى داء الفوضى العضال عند استردادهم ظلا من الحرية ، أوجب ظهور أحوال لا تعرف الروح البشرية معها سوى وساوس القنوط لما لا يكون لديها من عوامل الأمل ، فهناك كان يظهر أولئك المتهوسون وأولئك المتعصبون ذوو النفوذ العميق فى نفوس الجموع على الدوام ، فما كان لأمة من العرافين والملهمين والمجاذيب مثل ما كان لبنى اسرائيل[٩٥].

ثم يلخص لوبون الأمر لينتهى الى القول بأن تأثير اليهود فى تاريخ الحضارة صفر ، وانه واسع من الناحية الخلقية[٩٦].

المؤثرات الأجنبية :

إذا كانت التوراة هى المصدر الرئيسى وكذلك (الخبرة التاريخية) ، فإن هذا المصدر وذاك قد حفلا بعديد من المظاهر التى تشير الى تأثير واضح لبعض الثقافات والحضارات التى تواجد بها الاسرائيليون ، وتأتى فى مقدمتها الحضارة المصرية القديمة ، والحضارة البابلية ، ثم تأتى بعد ذاك مؤثرات أخرى هندية وفارسية ويونانية .

١ ـ *التأثير المصرى :* فمن الثابت أن موسى حظى بقسط وافر من التعليم والثقافة بكل عناية .. وهذا قول منطقى ، فبعد أن تبنته ابنة فرعون يصبح من الضرورى كأحد أفراد الأسرة المالكة أن يتعلم فى القصر الفرعونى ، ولابد أنه ، بحكم ميوله وعقليته ، قد ألم بالأسرار والطقوس المصرية[٩٧].

ولم يعط موسى اليهود ديانة جديدة فحسب ، وانما أعطاهم أيضاً عادة الختان [٩٨]، وهذه لها أهمية خاصة رغم أن قصة العهد القديم فى هذا الشأن تبدو متناقضة مع ما نذهب اليه ، فمن ناحية ترجع التوراة بهذه العادة الى عهد الآباء الأوائل كعلامة على ميثاق عقد بين الرب وإبراهيم ، ومن ناحية أخرى يذكر النص التوراتى فىعبارة غامضة أن الرب غضب على موسى لأنه أهمل هذه العادة المقدسة وكاد الرب أن يذبح موسى عقاباً له على ذلك ، ولكن زوجة موسى وهى امرأة من مدين أنقذت زوجها من غضب الرب بأن سارعت باجراء هذه الجراحة له . ويرى فرويد أن كل هذه تشويهات للحقيقة ينبغى أن لا تجرنا بعيداًعن الصواب ، ولكن الحقيقة تبدو رغم أى شئ واضحة لا شبهة فيها وهى أن منبع عادة الختان مصر ، فان هيرودوت الملقب بأبى التاريخ يخبرنا أن عادة الختان قد مورست منذ زمن طويل فى مصر ، وثبتت صحة هذا القول بفحص موميات المصريين القدماء ، بل حتى من الرسوم الموجودة على جدران المقابر ، وبقدر ما نعلم لم يمارس أى شعب آخر شرقى البحر المتوسط هذه العادة . ويمكن أن نؤكد فى ثقة أن الساميين والبابليين والسومريين لم يزاولوا الختان وكذلك فإن تاريخ التوراة يذكر نفس الشئ عن الكنعانيين[٩٩] .

ويشير فرويد الى دافع موسى فى أمر قومه بالختان ، بأنه عند خروج بنى اسرائيل من مصر لابد أن موسى قد شعر بأن اليهود الذين يغادر معهم وطنه ينبغى أن يكونوا بديلاحسناً للمصريين الذين تركهم وراءه ، وعلى أى حال ينبغى ألا يكونوا أقل شأناً منهم ، فهو يرغب أن يجعلهم " أمة مقدسة " ، كما يذكر ذلك صراحة نص التوراة ـ كعلامة على تدشينهم كأمة مقدسة أدخل اليهم هذه العادة التى تجعلهم على الأقل مساوين للمصرين ، وأكثر من ذلك ، فلابد أنه كان يرحب بأن تساهم هذه العادة فى عزلهم ومنعهم من الذوبان مع الشعوب الأجنبية الأخرى التى سوف يقابلونها فى تجوالهم ، تماماً مثلما ساهمت هذه العادة فى منع اختلاط المصريين بالأجانب[١٠٠].

ومن مصر اقتبس اليهود (تابوت العهد) أو (الناووس) السهل النقل المشتمل على (يهوه) فى شكل حجرين . ومما يذكر أن فرعون مصر ، وهو المساوى للآلهة ، هو الذى كان يحق له وحده أن يفتح الناووس وأن يرى الشعار المرهوب الحافل بالأسرار . وفىاليهودية كان يحق للحبر الأعظم وحده أن يدخل مرة واحدة فى العام الواحد قدس الأقداس حيث تابوت العهد[١٠١].

وعندما اتخذ قوم موسى (العجل) الهاً عبدوه ، فقد كان ذلك من تأثير الوثنية المصرية ذلك أن عبادة العجل فى مصر جد عميقة الجذور ، إذ ترجع الى ما قبل عصر موسى بكثير ، إلى أيام الأسرة الأولى حوالى عام٣٢٠٠ ق.م ، ثم استمرت حتى ظهور المسيحية وغلبتها عليها . ويذهب (والتر امرى) الى أن العجل كان فى نظر القوم رمزاً للقوة فىالحروب ، كما أنه رمز للاخصاب فى نفس الوقت ، وأن عبادته بدأت منذ أيام الأسرة الأولى اعتماداً على تصوير ملوك هذه الأسرة على هيئة ثيران . هذا وقد اشتهرت هذه العبادة باسم (مرور وعبى) – منفيس وأبيس فى تصحيف اليونان ـ حيث عبد الأول فى "أون" – عين شمس – رمزا لاله الشمس رع ، وعبد الثانى فى منف مدينة بتاح رمزا للاله بتاح ، وقد احتفظ المصريون فى معبد بتاح بالعجل المقدس (أبيس) دون أن تكون هناك علاقة بين الإلهين على الأقل فى العصور القديمة[١٠٢].

كذلك نذكر تلك الكلمات السابقة التى وجهها ذلك الملك الأهناسى المجهول الاسم الى ابنه "مريكارع " قبل عهد " موسى " بألف سنة وهى [١٠٣]" إن فضيلة الرجل المستقيم أكثر قبولاً من ثور الرجل الذى يرتكب الظلم " .

على أن ما أظهره ذلك الفرعون المسن من قوة البصيرة فى تعمقه الخلقى لم يكن أثره بالبداهة قاصراً على مصر ، ولابد أن لفافة البردى التى كانت تشتمل على نصائحه الحكيمة الموجهة الى ابنه قد وجدت سبيلها الى فلسطين ، لأن نفس هذه المعانى ، مكتوبة بكلمات مشابهة جداً للكلمات السابقة ، قد ظهرت فى أوائل التطور الخلقى العبرانى بالنص الآتى :

" أنظر ! أن الطاعة أفضل من التضحية .

والإصغاء أفضل من الكبش السمين " .

وهذا الحث على حسن الاصغاء يتردد صداه فىالآذان كأنه صدى نصائح " بتاح حوتب " الذى نصح بها ابنه منذ أكثر من ١٥٠٠ سنة قبل عهد صموئيل ، وبين له فيها قيمة الإصغاء[١٠٤].

وأما تفضيل الأخلاق على الشعائر الدينية ، فقد أورده حكماء العبرانيين فى كتاب الأمثال ، فى كلمات ليست هى أيضاً إلا صدى لكلمات ذلك الحكيم الأهناسى المصرى القديم ، فقد جاء فى سفر الأمثال : "فعل العدل والحق أفضل عند الرب (يهوه)من الذبيحة" [١٠٥].

ومما يوضح لنا أن الحكيم كان مقتفيا أثر الفكر المصرى القديم فى هذه النقطة ما ذكر قبل تلك الأية مباشرة فى نفس السفر " والرب (يهوه) وازن القلوب " إذ لم يكن فى الشرق القديم إلا عقيدة دينية واحدة تقول بأن الإله يزن القلب الانسانى ، وهى الديانة المصرية القديمة بما تشتمل عليه من المحاكمة الأوزيرية ، ثم إن وضع موسى ، كما ذكره وقرره (فيلون) أقرب ما يكون الى الواقع والفعل ، وهذا كلام موسى لقومه المغلوبين على أمرهم بحكم وأمثال أعدها وأخذها وتعلمها من مصر التى نهل من علمها وحكمتها

وأمثالها القديمة ، فإن نطقه بهذه الحكم التى وردت فى كتاب (فيلون) فإنما يقول ما تعلمه وتأمله وتفهمه وحفظه من مصريين حكماء سبقوه ، وقد انتشرت أقوالهم فى المعابد وعلى السنة الكهنة من مدرسيه فى عصره وقبله بزمن بعيد وقبل ظهور كتاب الأمثال الذى ألفه (سالمون ابن داود) فى العصور المتأخرة والذى نحى فيه مؤلفه نحو الحكماء المصريين وترجم جانباً كبيراًمن حكمهم والتى أتت عن ملوك وحكماء ، خاصة فى أسلوب توجيه هذه الحكم والأمثال الى الأبناء ، حقيقيين أو وهميين[١٠٦].

يقول بتاح حوتب الحكيم المصرى القديم من الأسره السادسة "ليست إرادة الانسان هى النافذة ولكنها مشيئة الله" ، ثم انظر ما ورد فى (فيلون) على لسان موسى بهذا المعنى أيضاً عندما يهدئ من روع قومه لما أن لحق بهم مطاردوهم قبيل عبورهم البحر الى سيناء " إن طريقة الله فى الدفاع ليست كما يفعل البشر " ، ثم قوله "ان المستحيل بالنسبة للبشر عند الله ممكن وفى مقدور يده " "الله بقدرته يجد مخرجاً حيث لا مخرج " .

وكذلك كانت تحتوى حكم أمونيموبى على كثير من أمثال هذه الحكم ، وهو حكيم عاش بين الأسرة ٢١ الى العصر الصائى ، وقد كان فضل هذه الأمثال والفلسفة كبيراً ، فقد أخذ عنها اليهود فى كتاب الأمثال الذى ألفه سالومون وسارفيه على هدى أمثالها وتثقف بها اليهود وحكماؤهم ، فوجود اليهود بمصر كان له الفضل الأكبر فى تفقههم هذه الحكم والأخذ بها .

والحق أن المقارنة بين أمثال أمونيموبي وأمثال سالومون ليست مقارنة بالمعنى الصحيح ، فالواقع أنها أمثال مصرية واحدة تشكلت بالبيئة المصرية التى ظهرت فيها وعرفها اليهود فى مصر فى الديانة المصرية التى كانوا يعتنقونها هم أنفسهم قبل ظهور اليهودية ، وفى التقاليد والأخلاقيات المصرية حتى ليقول (مونتييه) بحق إن جامع أمثال أمونيموبي فى حكمه طابع مصرى خالص لا تشوبه شائبة وأن أمثال سالومون فى أسسها أمثال مصرية وحسب قواعد الحكمة المصرية التى وضعها الأخلاقيون المصريون القدماء ، وإن الناشرين لهذه النصوص المصرية واليهودية قد ركزوا على التشابه التام بين

هذه الأقوال خاصة فى القسم الثالث من كتاب أمثال سالومون حتى " ليتصور المرء أحياناً أن أحد النصين ترجمة للأخر" .

ومن صور المقارنة نجد [١٠٩]:

أمونيموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
أمل أذنيك لتسمع أقوالى واعكف قلبك على فهمها لأنه شئ مفيد إذا وضعتها فى قلبك ولكن الويل لمن يتعداها	١٧- أمل أذنك واسمع كلام الحكماء ووجه قلبك إلى معرفتى. ١٨- لأنه حسن إن حفظتها فى جوفك ان ثبتت جميعا على شفتيك (سفر الأمثال / الإصحاح٢٢)

والمقصود من مثل تلك النصائح قد عرفته "الأمثال" ، وهو ما أشار إليه أبونيموبى من أن المهارة العملية أصل جوهرى فى المعاملات الرسمية ، كما نرى فى نص كل منهما :

أمونيموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
لأجل أن ترد على تقرير لمن قد أرسله	٢١- لأعلمك قسط كلام الحق لترد جواب الحق للذين أرسلوك (سفر الأمثال ، الإصحاح ٢٢)

غير أن العبارة "كلام الحق" الواردة فى سفر الأمثال هى بالطبع تحريف لما يقابل كلمة "تقرير" الواردة فى الأصل المصرى القديم .

وهناك أمثلة أخرى كثيرة أوردها برستيد فى (فجر الضمير).

وأنظر الى إرشادات تربية الطفل فى مصر من الحكيم بتاح حوتب وعند أمونيموبي ، والظاهر أن العصا كان لها دور كبير فى تأديب الطفل ، وأن الزوج أيضاً يمكن أن يضرب زوجته بدون غلظة ، أما الوالدين فرحمتهم بأبنائهم لا تغنى عن استعمال العصا حتى لقد قال أحد الكتبة وهو يصر على أسنانه "أن أذن الولد فوق ظهره"(١١٠).

أما فى أمثال سالومون ، فيقول : "لا تكف عن إرشاد الطفل عن الصواب فلن يموت حتى لو ضربته بالعصا"(١١١).

ثم انظر هذا التطابق البين فيما يذكره أمونيموبى من وصايا إذ يقول " لا تشته مال الفقير ولا تجعله يجوع بحرمانه من خبزه فأكل مال الفقراء يسد الحلق (يقف فى الزور) وتتشنج له الرقبة " .

ثم أنظر الى مثل سالومون : "لا تشته زاد الفقير فهو يعصف بالرقبة ويخرج من فمك لحظة التهامك له"(١١٢).

هذا وقد دلت الحفائر الحديثة فى " سامرا " على أن التصورات المصرية لإله الشمس العادل كانت شائعة الانتشار فى الحياة الفلسطينية ، فقد كشف الحفارون فى خرائب ملوك بنى اسرائيل فى " سامرا " بعض ألواح من العاج منقوشة نقشاً بارزاً كانت تستعمل يوماً ما فى التطعيم الزخرفى الذى كان يحلى به أثاث الملوك العبرانيين ، ومن بين تلك القطع قطعة نقشت عليها صورة الهة العدالة (ماعت) يحملها إلى أعلى ملاك شمس هليوبوليس فى وضع نفهم منه أنه كان على ما يظهر يقدم تلك الصورة لإله الشمس ، وتصميم الرسم مصرى فى نواحيه ، إلا أن صناعته تدل بوضوح على أن نقشه من صنع أيادى فلسطينية . من ذلك يتضح أن الصناع العبرانيين كانوا على معرفة بمثل تلك الرسوم المصرية القديمة ، وأن وجهاء العبرانيين كانوا ينظرون كل يوم الى هذه الرموز التصويرية الدالة على عدالة إله الشمس المصرى ، وهى تزين نفس الكراسى التى يجلسون عليها . ولم يكن إله الشمس ذات الأجنحة المتأصلة فى وادى النيل معروفاً عند العبرانيين بأنه

إله عدالة فقط ، بل كان كذلك معروفا بأنه الاله الحامى لعباده الرءوف بهم . وقد أشارت المزامير العبرانية أربع مرات الى الحماية الموجودة "تحت (أو فى) ظل أجنحتك[١١٣].

على أننا لم نجد أن (يهوه) كان يصور عند العبرانيين بأجنحة ، فى حين أنه قد عثر على صور رائعة منحوتة للفرعون وإله الشمس يرفرف عليه فى شكل صقر له جناحان منتشران يحميان المليك .

وعلى ذلك نرى أن تصوير إله الشمس المصرى القديم كأنه ملك عادل يعد من بين العوامل التى ساهمت فى تحويل (يهوه) هذا الى حاكم عادل بين الناس .

ويؤكد فؤاد حسنين علي على أن صحف موسى وتوراته لم تدون فى العبرية بل فى المصرية القديمة ، ويرجح أن هذه التوراة وثيقة الصلة بالعقيدة المصرية التى بشر بها اخناتون ولأن التوراة جاءتنا فى العبرية ، فهي ليست التوراة التى أنزلت على موسى ، ذلك لأن العبرية لم يعرفها موسى ولم يعرفها الاسرائيليون طيلة حياة موسى ، فموسى عاش وتوفى قبل أن توجد العبرية ، ويعرفها الاسرائيليون ، فموسى كما تذكر المصادر اليهودية وغيرها ولد فى مصر ، وتسمى باسم مصرى وتهذب بكل حكمة المصريين . كما أن مصر هى الوطن الأصلى لاله الاسرائيليين (يهوه) ، فموسى سواء كان اسرائيلياً أو غير اسرائيلى فقد ولد فى مصر وتكلم المصرية وتلقنها قراءة وكتابة . وهكذا شأن الاسرائليين أو المقيمين فى مصر المستظلين بسمائها ويطعمون من خيرات أرضها ويسقون ماءها[١١٤].

٢ ـ التأثير البابلي : ومهما كان مدى تأثر العبرانيين بالنتاج الحضارى لبلاد الرافدين وانعكاس ذلك بشكل واضح فى التوراة ، فإن تلك التأثيرات يمكن أن تكون قد وصلت بطريقتين :[١١٥]

الأولى ذات علاقة بدور الآباء الأول (ابراهيم عليه السلام) ، ترى فئة من الباحثين أن الآباء الأول إذا كانوا جاءوا فعلاً من وادى الرافدين ، كما

تؤكد ذلك التوراة مراراً ، فلا نتوقع منهم إلا أن يكونوا على علم بنتاج موطنهم الأصلى . ولذلك فإن وجود (مادة مستوردة) فى سفر التكوين ، إنما هو فى رأيهم " برهان على أصالة اشتقاقها وليس على كونها سرقة نكراء " . ثم أن التوراة فى رأى هؤلاء أيضاً ، لم تحاول قط إخفاء السمة الرافدينية للموروث الحضارى موضوع البحث ، بل أنها على النقيض من ذلك تسترعى الانتباه إليه مراراً . ثم يضيف هؤلاء بأن المهاجرين الأول جلبوا معهم " متاعاً حضارياً كبيراً " من أرض مولدهم يتضمن كثيراً من التفاصيل التى هى الآن فى الاصحاحات الأولى من سفر التكوين ، غير أن تلك الموروثات المنقولة لم تبق على حالها ، وإنما حولت الى ما يتلاءم مع الغاية والمثل .

وإذا كان هناك من الباحثين من يرى أن ابراهيم ، نشأ فىالشمال الغربى من العراق ، فإن من الوارد كذلك ، وجود الكلدانيين فى هذه المنطقة (١١٦).

أما الطريقة الثانية ، وهى الأكيدة ، التى انتقلت بوساطتها المعتقدات البابلية فكانت من خلال الصلات التجارية والسياسية والحملات العسكرية ، وأهم من ذلك كله من خلال وجود العبرانيين فى بابل أثناء الأسر البابلى ، إذ المعروف أن الصلات بين العراق وبلاد الشام لم تنقطع فى كل العصور التاريخية (١١٧).

ويرى باحثون أن الديانة اليهودية كما هى معروفة الآن قد ولدت أثناء الأسر فى بابل ، وأن الأسفار الأولى التى تبدأ بها التوراة قد أخذت شكلها الذى جاءتنا به من خلال وجود اليهود فى الأسر .

وهذا ما أكده لوبون : " وفى وادى الفرات نشأت ديانة بنى اسرائيل ، أو على الأصح مختلف العبادات التى مارسها بنو اسرائيل ، وذلك بين اقامتهم بفلسطين وعودتهم من اسارة بابل"(١١٨).

حتى أن أسماءآلهتهم تدل على أصلها الا كادى فى الغالب ، فكلمة إلوهيم هى جمع لكلمة ايل التى تجئ فى كلمة بمعنى الاله الأعلى ، وكلمة

بابل فيما بين النهرين تجئ بمعنى بابا ايل ، كما أن بيت ايل تجئ فى اليهودية بمعنى منزل ايل .

والمكان الذى قاتل يعقوب الرب فيه (تعالى الله عما يقولون) سمى فنوئيل ، وتسمى هذا الراعى فيما بعد باسم اسرائيل (الذى هو أقوى من ايل).

وليست الآلهة الكبرى الشهوانية عشيرا أو عشتروت التى كان العبريون يعبدونها فى الأماكن العليا بين الغياض والتى كانوا يأتون بالدعارات المقدسة تكريماً لها إلا زهراء (فينوس) بابل عشتار(١١٩).

وليس بعل الذى جعله بنو اسرائيل منافساً ليهوه ، والذى اختلط به فى نهاية الأمر بعل كلده ، وانما انحدر منه على وجه غير مباشر ، أى بعد أن جاوز فينيقية حيث استعاره العبريون .

وإذا جاوزنا دائرة الأسماء التى هى أمر ظاهرى للغاية وجدنا أساس الدين يدل على أية دائرة من الأساطير صدرت عنها معتقدات اليهود.

فمن ينظر الى نظام الكون البابلى القديم ، الذى وجد فى الكتابات السماوية والذى هو أقدم من تاريخ التوراة بعدة قرون ، يبصر مشابهته للكونية التى وردت فى سفر التكوين والتى ليست غير نسخة بسيطة عنه(١٢٠).

وما نراه فى أقاصيص سفر التكوين من نوع المنطق ومن براعة التأليف وقوة الخيال مما يجاوز قابليات بنى اسرائيل بمراحل لا يحيطها عد .

ويشير لوبون إلى أن الكنيسة عندما رأت معجزة فى تفتح تلك الكونية العظيمة فى صميم عصابة من البدو الجاهليين الأجلاف استنتجت من ذلك صدورها عن وحى إلهى يحكم الطبيعة .

لكن سر المعجزة يتضح ويزول افتراض الوحى عندما نرى فاتحة التوراة فى كتابات حكماء كلدة التى هى أقدم من سفر الخروج بزمن طويل .

وذهب "ميك" فى وقت مبكر (عام ١٩٢٣) إلى أن نشيد الأنشاد لسليمان إنما يمثل صورة محورة للطقوس العبرانية التى كانت تقام احتفالا بزواج إله الشمس من الألهة الأم ، وأن طقوس هذا (الزواج المقدس)، قد أخذها العبرانيون عن الكنعانيين الذين أخذوها بدورهم عن سكان وادى الرافدين . ومن جملة النقاط الرئيسية التى استند إليها "ميك" فى تكوين فرضيته [١٢٠] :

١- إن الفتى العاشق فى (نشيد الأنشاد) يُنعت مرة بـ(ملك)ومرة أخرى بكلمة (راعى) وهما من نعوت إله الخصب دموزى (تموز) فى وادى الرافدين.

٢- إن الفتاة فى نشيد الأنشاد توصف مرة بكونها (زوجة) ومرة بكونها (أخت) وهاتان أيضا صفتان لإلهة الخصب أنانا (عشتار) .

٣- إن السفر موضوع البحث عبارة عن حوار عاطفى يرد مرة على لسان الفتى ومرة على لسان حبيبته ، على غرار ما نجده فى قصائد الحوار السومرية بين الإله دموزى وحبيبته أنانا .

ولابد لنا من أن ننوه بأن طقوس الخصب لم تكن أمراً غريبا بالنسبة للعبرانين وينجلى ذلك على وجه الخصوص فى تجسيدهم العلاقة بين إلههم (يهودا) وبين الأرض التى نزحوا إليها وكأنها علاقة زوج بزوجته .

وفى سنة ١٩٦٢ ، كانت قد توافرت مادة غزيرة ودراسات لغوية أدبية سومرية فأشار باحث آخر (كريمر) إلى تشابه سفر نشيد الأنشاد بأناشيد دينية لطقوس الخصب والزواج المقدس عند العبرانيين . وعاد فى سنة ١٩٦٩ ليؤكد هذا الاحتمال المرجح [١٢٢].

وصدق ما ذهب إليه مسيو (رينان) " ولم يخترع الراعى البدوى تلك الأقاصيص الرائعة ، بل أوجب نجاحها ، ولم تكن الكونية الكلدانية لتعم العالم بشكلها الزائد الوراد فى النصوص الآشورية، فكان لابد من القريحة السامية لتبسيط تلك الكونية فى الوقت الذى أرادت النفس البشرية فيه مبادئ واضحة حول ما لا يعرف بوضوح ... فغدت الغرائب التى كانت تظل

مختنقة فى حشويات الشرق من الأمور البديهية ، وتمت هذه المعجزات .. بفضل خيال بنى اسرائيل .... وما كان غريبا فى تاريخ كلدة بدا فى أقاصيص التوراة من الصحة والسهولة ما رأت فيه سذاجتنا الغربية تاريخاً معتقدة أنها إذا ما انتحلت هذه الأقاصيص قطعت صلتها بالأساطير الأولى"(١٢٣).

ولا نجد الأساطير الكلدانية فى سفر التكوين وحده ، بل نجد آثارا لها فى أسفار أقل قدما منها على وجه أقل وضوحاً ، ومن ذلك قصة شمشون التى وردت فى سفر القضاة (١٢٤).

يمثل شمشون الهركول الاسرائيلى بقدرته الغريبة وأعماله التى كان ينجزها بوسائل بسيطة جداً ، والواقع أن هركول من أصل بابلى ، و يتجلى مثاله فى نينيب المعروف ، ذلك الإنسان الآشورى الأكادى العجيب الذى كان يقتل الأسد بيد واحدة ، ولم يكن اسمه شمشون مع ذلك ، بل كان شمشون الذى معناه (الشمس) ، أى نصف الإله الذى كان يوجد كثيراً على ضفاف الفرات .

وما جاء عن برج بابل فى سفر التكوين إنما هو اقتباس واضح من حضارة وادى الرافدين .

كان الناس ، والبشرية فى طفولتها ، يشعرون بتقاصر أنفسهم بين يدى الآلهة وتحاقرها إليهم ، وقد عبروا عن تلك المشاعر فى مواطن شتى بأساطير مختلفة نقص أبناء جبابرة عصاة طمحوا إلى مشاركة الآلهة فى السماء أو نفيهم منها فابتلى الآلهة أولئك الجبابرة ببلبلة ألسنتهم عقابا لهم على ما اجترحوا من إثم ، ومن ذلك ما يرويه أهل المكسيك نقلا عن أسلافهم الأقدمين من أن أحد الذين نجوا من عائلة الطوفان بنى هرما ليبلغ به أسباب السماء فأوغرت جرأته صدور الآلهة، فرموا البناء بشعله من نار ، فأتت النار عليه وأصبحت كل أسرة من بناة الأهرام تنطق لساناً خاصاً بها (١٢٥).

وليست أسطورة برج بابل التى يتناقلها اليهود فى هذا المعنى بعبرية الأصل ، بل هى كالكثير من أساطير التوراة – مستعارة بحذافيرها من

الكلدانيين ، فقد روى الكاهن الكلدانى بروزس أن الرعيل الأول ممن عمروا الأرض ، وقد كانوا ضخام الأجسام موثقى القوة ، حقروا الآلهة واستسخروا منهم وأقاموا برجاً بلغ رأسه عنان السماء ، وما عتمت الرياح أن ساعفت الآلهة فأطاحت بالبرج . وأحدث الآلهة بلبلة فى ألسنة الناس وكانوا قبل يتكلمون لسانا واحداً . ومن المحتمل أن تكون هذه القصة مما كان الكلدانيون يتذاكرونه عن معبد بلوس الشهير الذى لم يتم بناؤه ، وهو من روائع العمارة.

وقارن (فاضل عبد الواحد) قصيدة (العدالة الالهية) عند البابليين بسفر أيوب ، وخرج بما يلى [١٢٦] :

١- كانت "العدالة الإلهية" مسألة أعارها السومريون والبابليون أهمية واضحة فى حياتهم اليومية ، وناقشوها ، وأبدوا فيها وجهات نظر وتفسيرات تبدو مختلفة بعض الشئ أحيانا ، كما يظهر ذلك جلياً من حوار الرجل المعذب مع صديقه الرجل الحكيم . ولكن يبدو أن هناك اتجاهاً واضحاً فى حضارة وادى الرافدين نحو الإقرار بالعدالة الإلهية ، وإن على الإنسان أن يصبر ويصابر إذا ما أصابه الشر ، لأن الآلهة ستنقذه فى نهاية الأمر لا محالة .

٢- هناك نقاط تشابه عديدة وأساسية بين قصة الرجل المعذب البابلى شبشى - مشرى - شكان ، وقصة أيوب تتلخص فيما يلى [١٢٧].

أ- تمثل كل من القصتين فى بدايتها رجلا نقياً ورعا له ثروة كثيرة ومكانة مرموقة ، لكن وعلى حين غرة تتوالى عليه الكوارث ،وتتتابه المحن فتتحطم كل آماله وتضيع كل ثرواته .

ب- إن كلا من الرجلين يبتلى بداء عضال مباشر بعد النكسة الأولى التى ضاعت بسببها الممتلكات والمكانة الاجتماعية المرموقة ، وبتعبير آخر:إن الأمور كانت قد سارت من سئ إلى أسوأ بالنسبة للرجلين المعذبين على حد سواء .

ج- لقد كان الصبر في خلال مرحلة العذاب الطويلة ، والإيمان المطلق بالعدالة الإلهية سمتين بارزتين في سلوك كل من الرجلين البابلي والأيوبي .

د- يتضح جلياً من قصيدة "لأمجدن رب الحكمة" أن عذاب البابلي شبشي- مشرى - شكان ، لم يكن سببه في الأصل الملك أو الحاشية أو عامة الناس ، وإنما كان يكمن وراء ذلك كبير الآلهة البابلية مردوخ عندما أدار ظهره ، مع الآلهة الأخرى ، عن هذا الرجل ، وسلط عليه الأرواح والأمراض الشريرة ، وأسلمه إلى الأشرار من الناس . والشئ نفسه حدث بالنسبة إلى أيوب عندما أسلمه الرب إلى الشيطان ليتأكد الأخير بنفسه من عمق إيمان هذا الرجل الذى لا يتزعزع .

هـ- تنتهى القصتان بإنفراج الشدة ، وعودة الأمور إلى مجاريها الطبيعية بالنسبة لكل من الرجلين(١٢٨).

وانتقل إلى جميع الساميين الذين سكنوا ما بين النهرين ما كان يساور قدماء سكانه من التأثير العميق الثابت الصادر عن منظر السماء الساطع الصافى وعن عوارض العواصف المفاجئة المرهوبة .

وظلت عبادة الشمس والقمر والنجوم قائمة - زمناً طويلاً لدى جميع أمم سوريا ، ولدى بنى اسرائيل على الخصوص .

وفى زمن حزقيال ، حوالى أواخر مملكة يهوذا ، كان يمكن أن يُرى ، حتى فى هيكل أورشليم ، يهود كانوا يسجدون أمام الشمس مولين وجوههم شطر الشرق (١٢٩) .

٣- مؤثرات أخرى : وتقول القصص الفارسية وقصص التلمود الخاصة بالخلق أن الله خلق فى بادئ الأمر إنساناً ، مكوناً من ذكر وأنثى متصلين من الخلف كالتوأمين الساميين ، ثم رأى ، فيما بعد أن يفصل أحدهما عن الآخر . وتحضرنا بهذه المناسبة جملة غريبة وردت فى سفر التكوين (الآية الثانية من الإصحاح الخامس) : "يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله

ذكرا وأنثى ، خلقه وباركه ودعا اسمه آدم" . ومعنى هذا أن أبانا الأول كان ذكراً وأنثى معاً ، ويبدو أنه نـدر أن فطن إلى هذه العبارة أحد من رجال الدين(١٣٠).

أما قصة الحية فتظهر فى جميع القصص الشعبية فى العالم كله – فى مصر والهند ، والتبت ، وبابل ، وبلاد الفرس ، واليونان ، والمكسيك .. وغيرها من البلاد وفى معظم هذه الجنان أشجار محرمة وفيها كذلك أفاع وهولات سلبت الناس الخلود أو نفشت السم فى الجنة وأكبر الظن أن الحية والتينة كانتا رمزاً للشهوات الجنسية .

والمرأة فى معظم هذه القصص هى الأداة التى تتخذها الحية أو يتخذها الشيطان من وسيلة لايقاع الإنسان فى الشر – الجميل ، سواء كانت هذه المرأة هى حواء أو بندورا ، أو موسى الواردة فى الأساطير الصينية ، فقد جاءت قصص شئ جنج أن "كل الأشياء كانت فى بداية الأمر خاضعة للإنسان ، ولكن أمرأة ألقت بنا فى ذل الإستعباد ، فشقاؤنا إذن لم يأتنا من السماء بل جاء من المرأة لأنها هى التى أضاعت الجنس البشرى "آه ! ما أشقاك يا بوسى ! لقد أشعلت النار التى أحرقتنا والتى تزداد كل يوم ضراماً .. لقد ضاع العالم ، وطغت الرذيلة على كل شئ" (١٣١).

وعندما سقطت عاصمة الإمبراطورية البابلية فى أيدى (قورش) أصبحت سوريا وفلسطين ولبنان خاضعة للفرس من دون قتال ، وسمح قورش لليهود بالعودة .

وتقول المصادر الفارسية أن "ماردوخ (معبود الفرس) .. نظر وبحث فى جميع البلدان باحثاً عن حاكم عادل .. فنطق اسم قورش ملك أشان ، وأعلنه حاكما على كل العالم .. وأخرجه إلى طريق بابل" (١٣٢).

وبسبب سياسته هذه – وعلى رغم أنه كان يقدس الأصنام – فإن بعض اليهود الجدد فى بابل اعتبروه المسيح الذى كان اليهود دوما يزالون – ينتظرون مجيئه : "هكذا يقول الرب لمسيحه لقورش الذى أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما .. "قورش (هو)" راعى فكل مسرتى (هو) يتمم" .

وعندما خضعت مصر لحكم البطالمة ، تحسنت أحوال اليهود وكثيراً فى الإسكندرية أيام بطليموس الثانى (فلاديلفويوس) ، فهو الذى اشترى كل العبيد من اليهود فى مصر ودفع ثمنهم من خزانته ثم أطلق سراحهم وسمح لهم بسكنى مدينة الإسكندرية ، حيث أقاموا فى منطقة الساحل الشرقية . ثم إن هذا الملك ، نظراً لتعلقه الشديد بالعلم والمعرفة - هو الذى أقام مكتبة الاسكندرية الشهيرة - قرر أن تتم ترجمة توراة اليهود إلى اللغة اليونانية ليضمها إلى مجموعة مجلدات المكتبة التى يقال أنها بلغت نصف مليون كتاب (١٣٣).

وكتب بطليموس الثانى كتاباً إلى الكاهن الأكبر لمعبد القدس يطلب منه اختيار عدد من الفقهاء اليهود ليقوموا بشرح كتب التوراة للمترجمين حتى تأتى الترجمة صحيحة ، فاختار الكاهن الأكبر ٧٢ من كبار اليهود ، ستة أفراد من كل قبيلة لبنى اسرائيل ، وأرسلهم إلى الاسكندرية ، وتقول الرواية أن هؤلاء عملوا لمدة ٧٢ يوماً ليتموا ترجمة الكتب الخمسة المنسوبة إلى موسى . وأصبحت هذه الترجمة معروفة باسم (النص السبعينى) . ونظراً إلى أن اللغة العبرية كانت غير مفهومة إلا للقليل من الكتبة ، إذ حلت اللغة الآرامية السورية مكانها ، فإن هذه الترجمة اليونانية أصبحت فى متناول الأفراد العاديين للمرة الأولى (١٣٤).

ولعل من المفيد هنا أن نعطى للقارئ العربى فكرة عن أثر ألفكر اليونانى بحدوده ورسومه وتقسيماته ، ومثله الخلقية والاجتماعية كما يتبدى من خلال الباب المسمى (فقرات الآباء) من الجزء الرابع من المشنا (التلمود) ، جاء فى الفصل الأول من هذه الفقرات (١٣٥) :

١- تلقى موسى التوراة من سيناء ، وبلغها ليوشع ، ويوشع للأوائل ، والأوائل للأنبياء ، وبلغها الأنبياء لرجال الكنيسة الكبرى , وهم أوصوا بثلاثة أشياء . فقالوا : كونوا مدققين فى الحكم وأكثروا من التلاميذ ، واجعلوا سياجاً للتوراة .

٢- وكان شمعون من بقايا رجال الكنيسة الكبرى وكان يقول : إن الدنيا تقوم على ثلاثة أمور : التوراة ، والعبادة ، والإحسان .

٣- وتلقى أنطيجونوس السوخى من شمعون الصديق ، وكان يقول : لا تكونوا كعبيد يخدمون السيد بغرض تسلم المكافأة ، بل كونوا كعبيد يخدمون السيد بلا غرض فى تسلم مكافأة ، فعندئذ تحمل عليكم التقوى من السماء .

٤- وعن هؤلاء تلقى يّسى بن بو عزر الصردى ، ويسى بن يوحنا المقدسى، وكان الأول يقول : ليكن بيتك منتدى للحكماء ، وتعلق بتراب أقدامهم ، وكن متعطشاً إلى الإرتواء بكلامهم .

٥- وكان الثانى يقول : ليكن بيتك مفتوحاً للجميع ، وليكن للفقراء كأهل بيتك، ولا تكثر الحديث مع النساء ، وقالوا حتى حديث الإنسان مع إمرأته ، فكيف بأمرأة غيره ، ولذلك قالت الحكماء : كل من يكثر الحديث مع النساء يجلب شراً على نفسه إذ يهمل من وصايا التوارة ، ونصيبه فى النهاية جهنم .

٦- وأخذ يوشع بن فرحيا ، ونتاى الأربلى عنهما ، وكان الأول يقول : اتخذ لك أستاذاً ، واغنم صاحباً ، واحكم على كل انسان بالخير .

٧- وكان الثانى يقول ابتعد عن جار السوء ، ولا تؤاخ الشرير ، ولا تتهرب من القصاص (١٣٥).

٨- وأخذ عنهما يهوذا بن طباى ، وشمعون بن شاطاح . وكان الأول يقول : لا تسع بنفسك إلى القضاء فى الخصومات . وإذا وقف أصحاب الخصومة أمامك فليكونوا فى عينيك كالمذنبين ، فإذا انصرفوا من لدنك وقد حكمت بينهم وقبلوا حكمك ، فليكونوا فى نظرك كالأبرياء .

٩- وكان الثانى يقول : أكثر من استجواب الشهود ، وكن حذراً فى كلامك حتى لا يعتمدوا عليه فى الكذب .

١٠-وأخذ عنها شمعيا ، وأبطليون ، وكان الأول يقول : عليك بحب العمل وكره التملق ، وإياك والسعى للتقرب من العظماء .

١١-وكان الثانى يقول : أيها العلماء احترسوا فى لفظكم حتى لا تخطئوا خطية توجب عليكم السبى فتنفون إلى حيث المشرب الردئ ، فيشرب تلاميذكم بعدكم ويموتون ، ويستباح اسم رب السماء.

١٢-وكان شماى يقول : اجعل التفقه فى الشريعة عادتك ، وتكلم قليلاً واعمل كثيرا واستقبل كل انسان بوجه بشوش ....

وقد ظل اليهود - مثلهم فى ذلك مثل باقى الأقوام المحلية - يتمتعون بحرية كاملة فى العبادة طوال فترة حكم البطالمة ، وهم وإن كانوا لم يحصلوا على أى نوع من أنواع الإستقلال السياسى إلا أنهم ظلوا محتفظين بكيان تراثى وثقافى واحد . ولكن الأمر تغير تماماً بعد ذلك خلال الحكم السلوقى ، اذ استجاب عدد كبير من اليهود إلى محاولة السلطة الجديدة القضاء على العادات المختلفة لدى الشعوب وصهرها جميعاً فى بوتقة إغريقية واحدة ، بينما عارض ذلك بشدة قسم آخر منهم ، لأن هذا يعنى ذوبان الكيان اليهودى فى كيان سورى - فلسطينى واحد (١٣٧) ، ولكن الخسائر العسكرية التى منى بها السلوقيون فى الشرق وفى أسيا الصغرى دفعت ملكهم سلوقس الرابع إلى الهجوم على معبد القدس والإستيلاء على ما كان بحوزته من ذهب وفضة ، لاستعمالها فى الإنفاق على جيشه ، وخضعت يهودا منذ ذلك الوقت لحكم عسكرى مباشر تابع للملك ، وجاءت النقطة الفاصلة التى أدت إلى التمرد عندما قرر الملك السلوقى فرض التقاليد الإغريقية على اليهود بالقوة ، فأصدر قراراً يقضى باعتبار معبد القدس معبدا يونانيا ، يتم فتحه أمام جميع الشعوب للتعبد به ، وما يصاحب هذا من وضع أصنام الشعوب داخل المعبد وذبح الخنزير أمام المذبح ، كما أنه منع ختان أطفال اليهود (١٣٨).

الهوامش

١- القمص صليب سوريال : دراسات فى أسفار موسى الخمسة ، مكتبة التربية الكنسية ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص ٧ .
٢- قصة الحضارة ، م١ ، ح٢ ، ص ٣٦٦ .
٣- المرجع السابق . ص ٣٦٧ .
٤- على عبد الواحد وافى : اليهود واليهودية ، ص ٩ .
٥- فؤاد حسنين على : التوراة الهيروغليفية ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ، د.ت، ص١٢ .
٦- المرجع السابق ، ص ٢٣٨ .
٧- أحمد شلبى ، ص ٢٤٠ .
٨- كامل سعفان : اليهود ، تاريخ وعقيدة ، ص ١٣٦ .
٩- المرجع السابق ، نفس الصفحة .
١٠- المرجع السابق ، ص ١٣٧ .
١١- التوراة الهيروغليفية ، ص ١٦ .
١٢- سفر إرميا ، الإصحاح ٣٦ .
١٣- التوراة الهيروغليفية ، ص ١٧ .
١٤- الحضارات السامية القديمة ، ص ١٦١ .
١٥- المزمور ٤٢ (حسب الترجمة الإنجليزية) .
١٦- الحضارات السامية القديمة ، ص ١٦٢ .
١٧- أصول الصهيونية فى الدين اليهودى ، ص ٧ .
١٨- الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص ٢٣ .
١٩- المرجع السابق ، ص ٢٤ .
٢٠- التوراة الهيروغليفية ، ص ٤٠ .
٢١- المرجع السابق ، ص ٤١ .
٢٢- المرجع السابق ، ص ٤٢ .
٢٣- المرجع السابق ، ص ٤٣ .

٢٤- الشيخ رحمت الله الهندى : إظهار الحق، دار التراث العربى ، القاهرة،١٩٧٨ ، حـ١ ، ص ١٠٦.
٢٥- المرجع السابق ، ص ١٠٧ .
٢٦- المرجع السابق ، ص ١٠٨ .
٢٧- شبهات وهمية حول العهد القديم ، كينسة قصر الدوبارة ، القاهرة ، د.ت، ص٩ .
٢٨- المرجع السابق . ص ١٠ .
٢٩- صبرى جرجس :التراث اليهودى الصهيونى ، ص ٨٨ .
٣٠- أسعد رزوق ، الصهيونية والتلمود ، ص ٣٢ .
٣١- المرجع السابق ، ص ٤٧ .
٣٢- المرجع السابق . ص ٨٠ .
٣٣- المرجع السابق . ص ١٠٤ .
٣٤- المرجع السابق ، ص ١١٣ .
٣٥- التنائيم هم علماء (المشنا) الذين قاموا بعد رجال المجمع الأكبر وأولهم شمعون الصديق ومدتهم ٢١٠ سنوات (١٠ - ٢٢٠م)
٣٦- المرجع السابق .والأمورائيم أى المفسرون أو المتكلمون ، ومدتهم٢٨٠سنة من ٢٢٠ - ٥٠٠ م تقريبا بعد وفاة ربى يهوذا سنة ٢١٩ إلى ختام التلمود .
٣٧- أحمد شلبى ، ص ٢٧٠ .
٣٨- على عبد الواحد وافى ، ص ٢٤ .
٣٩- المرجع السابق . ص ٢٥ .
٤٠- حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص ٧٨ .
٤١- ظفر الإسلام خان : التلمود ، تاريخه ، وتعاليمه ، ص ١٥ .
٤٢- المرجع السابق . ص ١٢ .
٤٣- المرجع السابق . ص ١٣ .
٤٤- المرجع السابق . ص ١٤ .
٤٥- الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص ٩٥ .
٤٦- المرجع السابق . ص ٩٦ .

٤٧- المرجع السابق . ص ٩٧

٤٨- التلمود ، شريعة اسرائيل ، ص ١١ .

٤٩- المرجع السابق . ص ١٢ .

٥٠- المرجع السابق ، نفس الصفحة .

٥١- كامل سعفان ، اليهود ، تاريخ وعقيدة ، ص ١٤٦ .

٥٢- المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

٥٣- التلمود ، تاريخه وتعاليمه ، ص ٣٣ .

٥٤- المرجع السابق . ص ٣٤ .

٥٥- التلمود والصهيونية , ص ١٩٦ .

٥٦- المرجع السابق . ص ١٩٧ .

٥٧- المرجع السابق . ص ١٩٩ .

٥٨- المرجع السابق . ص ٢٠٣ .

٥٩- اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ، ص ١٥ .

٦٠- رجاء جارودى : الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية (مترجم) ، دار الغد العربى ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص ٣٥ .

٦١- المرجع السابق ، ص ٣٧ .

٦٢- المرجع السابق . ص ٣٩ .

٦٣- أحمد عثمان ، تاريخ اليهود ، جـ١ ، ص ٢٥ .

٦٤- صابر طعيمة : اليهود بين الدين والتاريخ ، ص ٧١ .

٦٥- المرجع السابق ، ص ٧٢ .

٦٦- محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، دار الموقعة الجامعية ، ١٩٩٥ ، ح٢ (مصر) . ص ١٩٠ .

٦٧- سفر الخروج : الإصحاح ١٦ .

٦٨- سفر العدد ، الإصحاح ١١ .

٦٩- دراسات تاريخية فى القرآن الكريم (جـ٢ ، مصر) ، ص ٣٦٧.

٧٠- سفر العدد ، الإصحاح ١٤ .

٧١- المصدر نفسه .

٧٢- كامل سعفان : اليهود ، تاريخ عقيدة ، ص ١٣ .

٧٣- سفر التثنية ، الإصحاح ٧ .
٧٤- سفر التثنية ، الإصحاح ٢٠ .
٧٥- سفر التثنية ، الإصحاح ٢٣ .
٧٦- سفر يشوع .
٧٧- محمود أحمد المراغى : أشعيا ، بنى بنى اسرائيل ، ص ٣٧ .
٧٨- على عبد الواحد وافى ، اليهود واليهودية ، ص ١١٧ .
٧٩- المرجع السابق . ص ١٣٩ .
٨٠- قصة الحضارة ، م١ ، خـ٢ ، ص ٣٤٨ .
٨١- محمود أحمد المراغى ، ص ١٠٥ .
٨٢- الحضارات السامية القديمة ، ه ١٤٥ .
٨٣- صبرى جرجس ، ص ٣٦ .
٨٤- كامل سعفان ، اليهود ، تاريخ وعقيدة ، ص ٢٠ .
٨٥- ثروت أنيس الأسيوطى ، نظام الأسرة ، ص ١٩٥ .
٨٦- المجتمع اليهودى ، ص ٣٢٢ .
٨٧- المرجع السابق . ص ٣٢٩ .
٨٨- سفر عاموس ، الإصحاح الخامس .
٨٩- سفر ميخا ، الإصحاح السابع .
٩٠- المجتمع اليهودى ، ص ٣٣٩ .
٩١- المرجع السابق ، ص ٣٧٣ .
٩٢- المرجع السابق ، ص ٣٧٧ .
٩٣- اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ، ص ٢٠ .
٩٤- المرجع السابق . ص ٢١ .
٩٥- المرجع السابق . الصفحة نفسها .
٩٦- المرجع السابق . ص ٢٤ .
٩٧- عبد المحسن الخشاب : تاريخ اليهود القديم بمصر ، مكتبة مدبولى ، القاهرة، ١٩٨٩ ، ص ٣٠ .
٩٨- محمد العزب موسى ... مصريا ، ص ٤٢ .
٩٩- المرجع السابق . ص ٤٣ .

١٠٠- المرجع السابق . ص ٤٨ .
١٠١- جوستاف لوبون ، ص ٦١ .
١٠٢- محمد بيومى مهران ، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، جـ٢ ، ص٣٥١ .
١٠٣- برستيد : فجر الضمير ، ص ٣٨٢ .
١٠٤- المرجع السابق . الصفحة نفسها .
١٠٥- سفر الأمثال ، الإصحاح ٢١ .
١٠٦- تاريخ اليهود القديم بمصر ، ص ٤٣ .
١٠٧- المرجع السابق . ص ٤٤ .
١٠٨- المرجع السابق . ص ٤٥ .
١٠٩- فجر الضمير ، ص ٢٩٨ .
١١٠- تاريخ اليهود القديم بمصر ، ص ٥٧ .
١١١- سفر الأمثال ، الإصحاح ، ١٨ .
١١٢- تاريخ اليهود القيم بمصر ، ص ٥٧ .
١١٣- فجر الضمير ، ص ٣٨٦ .
١١٤- التوارة الهيروغليفية ، ص ٣ .
١١٥- فاضل عبد الواحد على من سومر إلى التارة ، سينا للنشر ، القاهرة، ١٩٩٦ ، ص ١٨٩ .
١١٦- المرجع السابق ، ص ١٩٠ .
١١٧- المرجع السابق . ص ١٩١ .
١١٨- اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ، ٦٢ .
١١٩- المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
١٢٠- المرجع السابق . ص ٦٣ .
١٢١- من سومر إلى التوراة ، ص ٢٨٣ .
١٢٢- المرجع السابق . ص ٢٨٤ .
١٢٣- اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ، ص ٦٣ .
١٢٤- المرجع السابق . ص ٦٤ .

١٢٥- عصام الدين حفني ناصف ، اليهودية في العقيدة والتاريخ ، ص ١٨٢.
١٢٦- من سومر إلى التوراة ، ص ٣٠٤ .
١٢٧- المرجع السابق . الصفحة نفسها .
١٢٨- المرجع السابق . ص ٣٠٥ .
١٢٩- اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ، ص ٦٥ .
١٣٠- قصة الحضارة ، م١ ، حـ٢ ، ص ٣٦٨ .
١٣١- المرجع السابق . ص ٣٦٩ .
١٣٢- أحمد عثمان ، تاريخ اليهود ، حـ٢ ، ص ١٢ .
١٣٣- المرجع السابق . ص٢٦ .
١٣٤- المرجع السابق . ص ٢٧ .
١٣٥- حسن ظاظا : الفكر الديني الإسرائيلي ، ص ١٥٤ .
١٣٦- المرجع السابق . ص ١٥٥ .
١٣٧- أحمد عثمان : تاريخ اليهود ، ص ٤٤ .
١٣٨-المرجع السابق . ص ٤٥ .

الفصل الرابع

المضامين التربوية فى التوراة والتلمود

الكاتبة اليهودية (ت.فايس - روز مارين) Weiss-Rosmarin.T والتى كانت ترأس تحرير المجلة الصهيونية المعروفه باسم Jewish Spectator الأمريكية ، كانت قد أصدرت كتاباً بعنوان ، Jewish Survival (البقاء لليهود) سنة ١٩٤٩ ، لخص لنا د.صبرى جرجس أفكاره الرئيسية ، والتى يأتى فى مقدمتها أن المساهمة اليهودية الحقيقية فى التاريخ البشرى تعنى فى المقام الأول الآداب والأخلاق المميزة للحضارة اليهودية كما نادى بها الأنبياء ، وهى تحرير الأخلاق ، هى الثورة على المعتقدات القديمة التى كانت تعد العظمة والمجد وجمال الشكل وكما له ، هو ما يرضى الله . ولقد اكتشف اليهود - كذا- أنه ليس الجمال ، وهو بالضرورة زائل فإن ، ما يريده الله ، ولكنه يريد الطيبة والشفقة والعدالة والسلام (١) .

ولا يرضى اليهود قول برستيد إن اليهود نقلوا الدستور الخلقى الذى ضمنوه التوراة عن المصريين القدماء ، فتقول الكاتبة المذكورة أن المصريين لو كانوا هم مبتدعو الضمير لبقوا ولم يبق اليهود ، ولكن العكس هو الصحيح - كذا - لأن الضمير فى رأيها هو مساهمة اليهود للبشرية ، المساهمة المميزة الوحيدة بهم . بل أن الخيال ليجمح بالكاتبة فتقول أن موسى خلق من أسرة فقيرة من رعاة الأغنام شعباً يصح أن يكون نموذجاً لكل الشعوب (٢) .

وسوف نرى فى الصفحات التالية نافذة نطل من خلالها على الجهد اليهودى فى تربية الإنسان من خلال دراسة تحليلية للمضامين التربوية فى كل من التوراة والتلمود :

ليست تربية لعموم الناس :

فالرسالة الدينية إذا وجهت لقوم بعينهم ، فليس معنى ذلك أنهم وحدهم المخصوصين بها لأن الله ليس ربا لقوم دون آخرين ، ومن هنا فإن القيمة التربوية للرسالة الدينية تكمن فى إنسانيتها ، ونقصد بإنسانيتها هنا أن تستهدف الناس جميعاً ، مما يلزم إثباتها بالتبشير بها والدعوة إليها ، أى يكون هناك التزام للمؤمن بالدين بأن يكون "داعياً " أو بمعنى أصح "مربياً" يرشد الآخرين إلى طريق الله والذى يؤدى السير به عليه إلى أن يكون صاحب شخصية تمثل لتوجيهات الله لتصويب مسار السلوك البشرى وبنائه .

لكن الملاحظ أنه من النادر أن نجد نصاً فى التوراة يفيد ذلك ، وهذا من شأنه أن يوقر فى أذهان الأتباع أن تربيتهم تربية "خاصة" لا يستحقها غيرهم ولا يستطيعوها .

وفى سفر العدد (الإصحاح الخامس عشر) نجده يوجب على الغرباء والدخلاء الذين يكونون من بنى اسرائيل أن يسيروا على السنن التى أشير إليها فى هذا الإصحاح . وكذلك فى الإصحاح العشرين من سفر الأحبار يوجب قتل أيا كان من الغرباء والدخلاء فى بنى اسرائيل يعطى نسله لمولك(٣) ، أسوة ببنى اسرائيل . ثم هناك كذلك نص فى سفر التثنية (٤) ، يقول "لا تكره الآدومى لأنه أخوك ، ولا تكره المصرى لأنك كنت نزيلاً فى أرضه ، والجيل الثالث الذين يولدون لهم يدخلون فى جماعة الرب" . وهذا وذاك لا يوجبان على بنى اسرائيل مع ذلك دعوة كما هو واضح ، وكل ما فيها السماح بالدخول فى جماعة الرب مع التحفظ ، مع أن ما انطوى فى تبليغات الله تعالى لموسى من مبادئ إيمانية وتوحيدية وأخلاقية واجتماعية يجعلها جديرة بأن تكون ديانة ورسالة إنسانية عامة تستهدف تربية "عموم" الناس ، لا "خاصتهم" ، وهى كذلك فى أصلها(٥) .

وإذا كانت طوائف من أمم أخرى اعتنقت الديانة اليهودية لما هو ثابت يقينا فى ظروف سبيهم إلى بابل وبعد عودتهم من السبى ثم بعد جلائهم عن

فلسطين بعد الميلاد ، فالمتبادر أن ذلك كان بسبب ما صاروا إليه من حالة وهن وشتات ، ولعله كان من قبيل التساهل بقبول من أراد اعتناقها ممن كان مندمجاً فيهم كدخلاء وغرباء مما سوغته النصوص التى أوردناها ، أو بقصد تقوية أنفسهم بهم .

قدوة سوء

ليست التربية كلاما تنتهى فاعليته بانتهاء صاحبه من التلفظ به شفاهة أو كتابة ، وإنما هى ترجمة سلوكية ، وهى تسير على هذا الطريق بفاعلية واضحة عند ما تبصر أمامها "قدوة" تجسد ما يُدعى الناس إلى سلوكه ، ممثل هذه القدوة تؤكد للناس أن ما يُدعون إليه ليس خيالاً ولا مثالاً يقاوم حركة الواقع ، بل هو ممكن وعملى ، وبذلك تكتسب التربية مصداقيتها . ومن هنا حرص أصحاب الرسالات السماوية ، بل وكذلك المصلحون والزعماء السياسيون والاجتماعيون والمربون العظام على توفير "نماذج بشرية" حية يتأسون بها ويسيرون على نهجها .

لكن ماذا نقول فى ما تقدمه التوارة من نماذج تسير فى اتجاه معاكس ؟! إن الأدهى من ذلك حقاً هو أصحاب هذه النماذج .. إنهم أنبياء !! وما القول إذا كان "الإله" نفسه الخالق ، المربى الأعظم يأتى من الأفعال - تعالى سبحانه وتعالى عما يقولون - ما يوجب الخجل والأسى ؟!

ترى كيف يسلك الأتباع بعد هذا ؟ وكيف يربى المربون ؟ ووفق أي نموذج ؟

إننا ننظر إلى الله سبحانه وتعالى على أنه الكمال المطلق ، فنظل نلهث طوال حياتنا حتى نقترب منه بقدر ما أتانا من قدرة ومن طاقة ، وتكون عظمة تربية الفرد منا ، بقدر اقترابه من النموذج المطلق ، الكامل .. الله .

إن الرب في التوراة يذكر كثيرا فى إطار من المهابة والجلال ، لكن يوضع فى أحيان كثيرة أخرى فى مواضع لا تليق بالإنسان من البشر ذى العزة والخلق الكريم ، فضلاً عن " الرب الإله " العظيم [٦]!

فقد صورته التوراة أولاً فى صورة المساوم مع أحد عباده ، جاء بها على لسان يعقوب ، انه قال : " ... إن كان الله معى وحفظنى فى هذا الطريق الذى أنا سائر فيه وأعطانى خبزاً لأكل وثياباً لألبس ورجعت بسلام إلى بيت أبى يكون الرب لى إلهاً " (٧) . وبطبيعة الحال فان هذا يعنى أن (الرب) إذا لم يقبل الصفقة فإن يعقوب لن يعترف به إلهاً !!

ولم يفت التوراة أن تنسب لرب اسرائيل النسيان والتذكر ، فقالت : "... وتنهد بنو اسرائيل من العبودية وصرخوا ، فصعد صراخهم إلى الله من أجل العبودية ، فسمع الله أنينهم ، فتذكر الله ميثاقه مع إبراهيم واسحق ويعقوب ... " (٨) .

كما لم يفتها أن تنسب "للرب" الندم ، وآية ذلك أن الله حين غضب على بنى اسرائيل لرجوعهم عن عبادته وعودتهم إلى عبادة العجل الذهبى الذى صنعوه بأيدهم بعد أن طال غياب موسى عليهم دخل الله مع موسى فى جدل ونقاش وخاطبه قائلاً ! " اتركنى ليحمى غضبى عليهم وأفنيهم" (٩) . وحاول موسى استغفار ربه فلم يجد من سبيل لذلك إلا هذه العبارة يوجهها إليه " ... ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك" (١٠) ، ثم تابع خطابه (للرب) فيما يشبه التأنيب "اذكر إبراهيم واسحق واسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلت لهم أكثر كنجوم السماء واعطى نسلكم كل هذه الأرض التى تكلمت فيملكونها إلى الأبد " (١١) ، وقد كان لكلام موسى هذا أثره المرجو "فندم الرب على الشر الذى قال انه يفعله بشعبه" (١٢) .

ويقول كذلك : " وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلاً : ندمت على أنى قد جعلت شاؤل ملكا ، لأنه رجع من ورائى ، ولم يقم كلامى " و "الرب ندم، لأنه ملك شاول على اسرائيل " (١٣).

وموسى يوبخ ربه إذ يقول له : " لماذا أسأت إلى هذا الشعب ؟ لماذا أرسلتنى ؟ فانه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلم باسمك أساء إلى هذا الشعب وأنت لم تخلص شعبك " (١٤).

وإله اليهود رجل حرب ، فهذا رسوله موسى يصفه بقوله : " الرب رجل الحرب " [١٥] ورب اسرائيل لا يعرف بيوت أبناء شعبه كأنه غريب ، فيطلب إليهم أن يضعوا علامة على أبواب بيوتهم ليجتازها حين يمر لإهلاك المصريين ، وها هى التوراة تقول[١٦]: "إنى أجتاز أرض مصر هذه الليلة ، وأضرب كل بكر فى أرض مصر من الناس والبهائم ، وأصنع أحكاماً بكل آلهة المصريين ، أنا الرب ، ويكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها فأرى الدم وأعبر عنكم ، فلا يكون عليكم ضربه للهلاك حين أضرب أرض مصر " .

والرب يحرضهم ويأمرهم بالسرقة والاحتيال ، فيقول لهم [١٧] : "وأعطى نقمة لهذا الشعب فى عيون المصريين ، فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً ، وتضعونها على بنيكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين".

ورسل الله وأنبياؤه يكذبون ويسرقون ويزنون [١٨] ، وإذا أراد أن يعاقب على الزنا فبشر من الزنا ، فالتوراة تتهم داود عليه السلام بالزنا ، فيغضب يهوه (إله بنى اسرائيل) ويعاقبه ، ولكن ما العقاب ؟ إن التوراة تجيب: إن العقاب أن يزنى ابشالون ابن داود نفسه بنساء أبيه ، وإذا كان داود ـ كما زعموا ـ قد زنا بامرأة أحد كبار المجاهدين سراً ، فإن العقوبة التى عوقب بها داود من قبل يهوه كانت علناً وتحت الشمس !!

قال الرب [١٩] : " ولماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر فى عينيه ، قد قتلت أوريا الحثى بالسيف ، وأخذت امرأته لك امرأة ، وإياه قتلت بسيف بنى عمويه ، والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد ، لأنك احتقرتنى وأخذت امرأة . هكذا قال الرب : هاأنذا أقيم عليك الشر من بيتك ، وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك يضطجع من نسائك فى عين هذه الشمس ، لأنك فعلت بالسر وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع اسرائيل وقدام الشمس " !!

وفـى الإصحـاح السـادس عشـر مـن سـفر صموئيـل الثـانى " فنصبـوا لأبشالوم الخيمة علـى السطح ودخل ابشـالوم إلـى سـرارى أبيـه أمـام جميـع اسرائيل " !

والأنبياء والرسل مفروض أن يكونوا أرقى البشر فـى مختلـف الصفـات والأخلاقيـات ، وبعيديـن عـن ارتكـاب الكبـائر ، ولا يرضـون بطبيعـة الحـال بالكفر والشرك لأنهما نقيض الرسالة المبتعثين بها ونقيض النبوة .

وعلى الرغم من هذا نجد أنبيـاء بنـى اسـرائيل ورسـلهم بعيديـن عـن أن يكونوا كذلك إذا وثقنا بما جاء عنهم فى التوراة ، لأنه فى أعمالهم مـا ينقـض الرسالة والنبوة ، وإن بعضهم بلغ من سوء الخلق ما يستحيل معه النظر إليـه على أنه (قدوة تربوية) ، بل على العكس من ذلـك نمـاذج غايـة فـى السـوء الخلقى !

ولعل أول الأمثلة التى نسوقها برهانـاً علـى ذلـك مـا نسبته التـوراة إلـى إبراهيم عليـه السـلام ، الجد الأكـبر لبنـى اسـرائيل ، إذ نسـبت إليـه اسـتهانة بعرض زوجته صوناً لحياته من خشية تصورها ، وطمعـاً فـى مغنـم أراد أن يناله ، فقد روت على لسان إبراهيم عندما عزم على التوجـه إلـى مصـر هـو وزوجته سارة هرباً من القحط ، قال : " .. إنى قد علمـت أنـك امـرأة حسـنة المنظـر ، فيكـون إذا رأك المصريـون أنهـم يقولـون هـذه امرأتـه فيقتلوننـى ويسـتبقونك ، قولـى انـك اختـى ليكـون لـى خـير بسـببك وتحيـا نفسـى مـن أجلك"[٢٠] ، وأضافت التوراة أن ذلك قد حدث فعـلاً " ... فـأخذت المـرأة (أى سارة) إلى بيت فرعون فصنع إلى إبرام خيراً بسـببها وصـار لـه خـدم وبقـر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال " .

ثم أعادت التوراة هذه القصة ذاتها مرة أخرى حين نزل إبراهيم وامراته مغتربين فى أرض جرار فحكت على لسان إبراهيم أنـه قـال عـن سـارة أنهـا أخته مما دعا أبيمالك ملك جرار إلى أخذها عنده ، فلما اكتشف الحقيقة عنـف

إبراهيم على خداعه إياه ، ولكن فى الوقت نفسه أعطاه غنماً وبقراً وعبيداً وإماء وألفاً من الفضة ورد إليه امرأته [٢١] !

وتكررت نفس القصة مع اسحق ابن إبراهيم حين قصد إلى أرض جرار ليقيم فيها هو وزوجته (رفقة) [٢٢].

لماذا يقامر إبراهيم بعرض امرأته إذا كان يثق أن المصريين ينتهكون الأعراض ؟ ولماذا يعيد التجربة نفسها مع أبيمالك بعد فرعون[٢٣] !؟

لا جواب إلا أنه استمرا فى فعلته ، وإلا لضن بامرأته على ملك جرار، ولكن إعادة التجربة نفسها تزيد فى إظهار جشع إبراهيم وعدم مبالاته بالعرض !

إن الذى يجذب الانتباه فى أسفار اليهود ، أن يصفوا فيها رسلهم وأنبياءهم بهذا القذف المشين يسوغون ما يحدث منهم من جرائم العرض ، إذ لا لوم عليهم ما دام أنبياؤهم يقترفون هذه الخطيئة الكبرى[٢٤] .

وتروى التوراة قصة نبوة يعقوب تنضح بالغش والخداع والكذب ، فقد كان اسحق يخص ابنه عيسو بحبه ورضاه فعزم على أن يدعو له بالنبوة لكن (رفقة) أرادت أن تستغل كبر سن اسحق والضعف الشديد لبصره فاتفقت مع ابنها يعقوب على أن يتنكر فى زى عيسو ، وعجز اسحق عن التمييز بين الأخوين فدعا ليعقوب ظاناً أنه عيسو ، وهكذا أصبح يعقوب نبياً [٢٥] .

فهل هذا أيضاً صورة من صور القدوة يتعلمها الإنسان اليهودى ويتربى وفقا لما توحى به من مثل وقيم وأساليب ؟!

إن يعقوب - وهو نبى - خدع أباه وخانه ، بل خدع ربه وانتزع البركة والنبوة انتزاعاً من أبيه بدون رضا منه . وهنا يبدو سؤال لابد منه : أترى يعقوب النبى يكون أميناً على الوحى إذا لم يكن على هواه بعد خيانته أباه وخداعه ربه؟ [٢٦].

ثم :إن هذه الجريمة التى تقوم على خيانة الأب وخداع الرب تجعل يعقوب غير أهل للاضطلاع بعبء النبوة والرسالة ، لأن من لا يؤمن فى أمور الوحى الرسالة والنبوة لا يمكن أن يكون أهلا للنبوة .

وهل يملك المخلوق ، ولو كان رسولاً نبياً ، أن يهب النبوة والرسالة أحداً من الناس ؟ إن النبوة والرسالة لا يملكها غير الله !

عنف ووحشية :

ويتربى اليهودى من خلال قراءته للتوراة على أخلاقيات العنف والوحشية والقسوة مما لا رحمة فيه(٢٧) ، وما على القارئ ، ليقنع بذلك إلا أن يتصفح سفر الملوك التى تدلنا على أن داود ـ النبى ! ـ كان يأمر بحرق جميع المغلوبين وسلخ جلودهم وتقطيعهم بالمنشار . وكان الذبح المنظم بالجملة يعقب كل فتح مهما قل ، وكان الأهالى الأصليون يوقفون فيحكم عليهم بالقتل دفعة واحدة ، فيبادون باسم (يهوه) من غير نظر إلى الجنس ولا إلى السن ، وكان التحريق والسلب يلازمان سفك الدماء .

وينقل (لوبون) عن سفر يوشع أنهم بعد الاستيلاء على أريحا " أهلكوا جميع ما فى المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف ... وأحرقوا المدينة وجميع ما فيها بالنار إلا الذهب والفضة وآنية النحاس ، فإنهم جعلوها فى خزانة بيت الرب ".

وتصور التوراة شهوة القتل الجماعى عند اليهود ، وسفك بحور من الدماء فى مذابح هائلة مروعة ، فقد جاء فى سفر الملوك " فضرب بنو اسرائيل من الآراميين مائة ألف رجل فى يوم واحد" (٢٨).

ومن أمثلة الوحشية الصارخة كذلك ما فعله أيضاً ملك يهوذا فيما ترويه التوراة ، إذ جاء فى سفر أخبار الأيام "وأما أمصيا فتشدد واقتاد شعبه وذهب إلى وادى الملح وضرب من بنى ساعير عشرة آلاف ، وعشرة آلاف أحياء

سباهم بنو يهوذا وأتوا بهم إلى رأس سالع وطرحوهم على رأس سالع فتكسروا أجمعون" (٢٩).

ويتعلم اليهودى من قراءته للتوراة كيف كان ملوك اليهود يقتلون كل منافسيهم وكل من تحوم حوله شبهة المعارضة لهم ولو كانوا من أقرب الأقربين إليهم . ومن أمثلة ذلك أن سليمان ما أن جلس على العرش حتى قتل كل من كان يخشاهم وكان منهم أخوه (أدونيا)(٣١).

ويهورام ملك يهوذا فعل مثل ذلك فقد خصه أبوه (يهو شافاط) بالملك وكان له إخوة "فقام يهورام على مملكة أبيه وتشدد وقتل جميع إخوته بالسيف وأيضاً بعضاً من رؤساء اسرائيل" (٣٢).

ولعل من أبلغ القصص التى تنطق بظلم اليهود بعضهم بعضاً قصة آخاب ملك اسرائيل وزوجته ايزابيل مع نابوت اليزرعيلى التى وردت فى سفر الملوك ، إذ تقول القصة " انه كان لنابوت اليزرعيلى كرم فى يزرعيلى بجانب آخاب ملك السامرة (عاصمة اسرائيل) ، فكلم آخاب نابوت قائلاً أعطنى كرمك فيكون فى بستان بقول ، لأنه قريب بجانب بيتى فأعطيك عوضه كرماً أحسن منه ، فقال نابوت لآخاب حاشا لى من قبل الرب أن أعطيك ميراث آبائى . فدخل آخاب بيته مكتئباً .. فدخلت ايزابيل امرأته .. ثم كتبت رسائل باسم آخاب وختمتها بخاتمه وأرسلت الرسائل إلى الشيوخ والأشراف الذين فى مدينته ، الساكنين مع نابوت ، وكتبت فى الرسائل تقول .. أجلسوا نابوت فى رأس الشعب ، وأجلسوا رجلين من بنى بليعال (أى من الأشرار) تجاهه ليشهدوا قائلين قد جدفت على الله وعلى الملك ، ثم أخرجوه وارجموه فيموت " .. ففعل رجال مدينته .. أجلسوا نابوت فى رأس الشعب وأتى رجلان من بنى بليعال وجلسا تجاهه ، وشهد رجلا بليعال على نابوت أمام الشعب قائلين قد جدف نابوت على الله وعلى الملك ، فأخرجوه خارج المدينة ورجموه بحجارة فمات ... ولما سمعت ايزابيل أن نابوت قد رجم ومات قالت ايزابيل لآخاب قم رث كرم نابوت اليزرعيلى .. ولما سمع آخاب أن نابوت قد مات قام أخاب لينزل إلى كرم نابوت اليزرعيلى ليرثه (٣٣).

والتوراة تضم دروساً أكثر أهمية فى بث روح العنف والعدوان والقسوة من خلال تقديم صورة لإله ضارى ، فالدماء إذا لم ترق والشحم إذا لم يقتر على المذبح فانه لا يرضى !

وكانت تقدم إليه قرابين عظيمة ، وبلغ ما ذبحه سليمان دفعة واحدة من الثيران والخرفان الكثيرة ما ظهر معه المذبح النحاسى ، الذى يذبح عليه عادة ، صغيراً جداً ، فجلس هذا الملك فى فناء الهيكل وهو يذبح أو يأمر بالذبح بلا انقطاع مدة أسبوع كامل ، فبلغ ما ذبحه ، بحسب رواية احباره ، اثنين وعشرين ألف ثور ومائة وعشرين ألف خروف إرضاءً لميول إلهه الدامية (٣٤) !

فاذا ما جئنا للتلمود فسوف نجد هذه الروح العدوانية أكثر ظهوراً : فغير مصرح للكاهن بأن يبارك الشعب باليد التى قتل بها شخصاً حتى لو حدث القتل خطأ أو ندم الكاهن بعد ذلك(٣٥).

ولكن الحاخام (شار) يقول : إن الكاهن يمكنه أن يبارك الشعب بتلك اليد إذا كان المقتول غير يهودى ، حتى لو حصل القتل بقصد وسبق وإصرار ، وينتج من ذلك أن قتل اليهودى لا يعد جريمة ، بل فعلاً يرضى الله .

ويقول التلمود : اقتل الصالح من غير الإسرائيليين ، ومحرم على اليهودى أن ينقذ أحدا من باقى الأمم من هلاك ، أو يخرجه من حفرة يقع فيها ، لأنه بذلك يكون قد حفظ حياة أحد الوثنيين .

وجاء فى صحيفة أخرى : إذا وقع أحد الوثنين فى حفرة ، وجب أن تسدها بحجر ، وقال الحاخام (رشى) انه يجب اتخاذ الإجراءات اللازمة لعدم خلاص الوثنى المذكور منها .

وقال (ميمانود) :الشفقة ممنوعة بالنسبة للوثنى ، فإذا رأيته واقعاً فى نهر أو مهدداً بخطر ، فمحظور عليك أن تنقذه منه ، لأن الشعوب السبعة التى كانت فى أرض كنعان المطلوب من اليهود قتلها لم تقتل عن آخرها ، بل هرب بعض أفراد منها واختلطوا بباقى أمم الأرض ، ولذلك قال (ميمانود) :

أنه يجب قتل الأجنبي لأنه من المحتمل أن يكون من نسل هذه الشعوب السبعة وعلى اليهودى أن يقتل من يتمكن من قتله ، فإذا لم يفعل ذلك كان مخالفاً للشرع !

وإذا قصد يهودى قتل حيوان فقتل شخصا خطأ أو أراد قتل وثنى أو أجنبى فقتل يهودياً فخطيئة مغفورة مراعاة للقصد ، على أنه رغم أن قتل اليهودى من الجرائم التى لا تغفر ، فإن قتل الأجنبى عندهم من الفضائل ، حتى إنهم يسامحون القاتل فى هذه الحالة .

أما قول الرب (لا تقتل) ، فقد فسرها (ميمانود) بقوله : إن الله نهى عن قتل شخص من بنى اسرائيل .

ومن المفروض عندهم قتل كل من خرج عن دينهم ولا سيما الناصريين (اتباع المسيح) لأن قتلهم من الأعمال التى يكافئ الله عليها ، وإذا لم يتمكن اليهودى من قتلهم ، فمفروض عليه أن يتسبب فى هلاكهم فى أي وقت وبأية طريقة كانت . ويعدون ذلك من العدالة ، لأن الذلة ستدوم على بنى اسرائيل، مادام واحد من هؤلاء الكفار موجوداً على ظهر الأرض ، ولذلك جاء فى التلمود أن من يقتل مسيحياً أو أجنبياً أو وثنياً ، يكافأ بالخلود فى الفردوس ، والإقامة هناك فى السراى الرابعة . أما من قتل يهودياً فكأنه قتل العالم أجمع، ومن عمل على خلاص يهودى ، فكأنما خلص الدنيا بأسرها[٣٦].

أما أخلاقيات الحرب كما وردت فى التوراة عند بنى اسرائيل ، فلا حصر للأمثلة التى يمكن أن تذكر بشأنها[٣٧] وحسناً منها أن نذكر مثالاً واحداً يغنى عن عشرات امثله ، فقد ذكرت التوراة أن (الرب) كلم موسى قائلاً : "انتقم نقمة لبنى اسرائيل من المديانيين ثم تضم إلى قومك" [٣٨] فماذا كانت نتيجة هذه الوصية التى صدرت عن (رب) أل إسرائيليين ؟ كانت النتيجة أنهم " تجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر" .. " سبى بنوا اسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار ، وأخذوا كل

الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم "(٣٩) . ولا تكتفى رواية التوراة بهذا القدر بل تمضى قائلة على لسان موسى : "فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر اقتلوها ، لكن جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر بقوهن لكم حيات" (٤٠).

وثمة صورة أخرى لأخلاقيات الحرب تنتظمها هذه الوصية " حين تقرب مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح فان أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وان لم تسالمك، بل عملت معك حرباً فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم ، وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا . وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيباً ، فلا تستبق منها نسمة ماء"(٤١)!

أخلاقيات ضعة

وحفلت التوراة بعدد من المواقف التى تبث مجموعة من تلك الأخلاقيات التى تشكل فى جملتها "ضعة" ودناءة ، مثل : النفاق والجبن والغدر والتآمر .

فمن حيث (الجبن) ، جاء فى سفر الخروج (٤٢) : "فلما اقترب فرعون رفع بنو اسرائيل عيونهم ، وإذا المصريون راحلون وراءهم ، ففزعوا جداً وصرخ بنو اسرائيل إلى الرب ، وقالوا لموسى : هل لأنه ليست قبور مصر أخذتنا لنموت فى البرية ؟ ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر ؟ أليس هذا هو الكلام الذى كلمناك به فى مصر قائلين : كف عنا فنخدم المصريين ، لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت فى البرية ؟ فقال موسى للشعب لا تخافوا .. الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون" .

وجاء فى سفر التثنية أن موسى قال لليهود موبخا إياهم على جبنهم (٤٢) "وجئنا إلى قادش برنيع ، فقلت لكم قد جئتم إلى جبل الأموريين ... أنظر قد

جعل الرب إلهك الأرض أمامك . اصعد. تملك كلما كلمك الرب إله آبائك ، لا تخف ولا ترتعب ، فتقدمتم الىّ جميعا وقلتم دعنا نرسل رجالاً قدامنا ليتجسسوا لنا الأرض يردوا إلينا خبراً عن الطريق والتى نصعد فيها والمدن التى نأتى إليها .. " وبعد أن جاء الذين أرسلوا للتجسس " وقالوا جيدة هى الأرض " ثم يقول لهم موسى " لكنكم لم تشاءوا أن تصعدوا وعصيتم قول الرب إلهكم .. وتمرمرتم فى خيامكم وقلتم الرب بسبب بغضته لنا قد أخرجنا من أرض مصر ليدفعنا إلى أيدى الأموريين لكى يهلكنا . إلى أين نحن صاعدون . قد أذاب إخوتنا قلوبنا قائلين : شعب أعظم وأطول منا ، مدن عظيمة محصنة إلى السماء .. "

ومن أبرز صفات اليهود ، ما تعودوه منذ نشأتهم من الغدر والخيانة ، إلا أنهم إذ اتصفوا بالجبن ، وإذ كانت الخسة والدناءة من صفات الجبناء اتصفوا بكل ما يتصف به الخسيس دنئ النفس من القدر بمن اطمأن اليه ، والخيانة لمن ائتمنه ووثق فيه(٤٤).

وقد وردت فى التوراة كثير من قصص الغدر والخيانة التى ارتكبها اليهود ، ونسوق فيما يلى مثالاً :

فقد روت التوراة قصة (دينة) ابنة يعقوب من زوجته (لئية) التى أحبها شكيم بن حمور ، واتصل بها جنسياً ، ثم أبدى أبوه رغبة ابنه فى الزواج منها مهما ارتفع صداقها ، معلنا بهذه المناسبة ، رغبة فى أن يصاهر قومه قوم يعقوب ، فوافق بنو يعقوب على ذلك بشرط اختتان الذكور من أبناء المنطقة قائلين : ".. إن صرتم مثلنا بختنكم كل ذكر نعطيكم بناتنا ونأخذ لنا بناتكم ونسكن معكم ونصير شعباً واحداً وأن لم تسمعوا لنا أن تختتنوا نأخذ ابنتنا ونمضى" (٤٥) . وقبل الكنعانيون الشرط ونفذوه بأمانة ، وتم الزواج ، وأفسحوا ليعقوب وأهله المقام بينهم ، ولكن خلق الغدر والخيانة لم يلبث أن ثار بنفوس اليهود "فحدث فى اليوم الثالث إذ كانوا متوجعين (بعد الختان) أن ابنى يعقوب شمعون ولاوى أخوى دينة أخذ كل واحد سيفه وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر ، وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف وأخذا دينة من

بيت شكيم وخرجا . ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ونهبوا المدينة ، لأنهم نجسوا أختهم . غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما فى البيوت" .

وإذا كان يعقوب قد غضب فمن الواضح أن الأمر هنا ليس فى حقيقته وجوهره الغضب للعرض المثلوم ، ولكن الغضب فى هذا المقام كان قناعاً يخفى نزعة إلى العدوان والغدر تجد فى الغضب التسويغ لأعمال القتل والسلب والنهب التى برغم كل ما قيل فى تبريرها كانت - ولا تزال حتى اليوم - تسفر من خلال التربية اليهودية ، واضحة من خلال أى قناع (٤٦).

وكان اليهود يخونون حتى رئيس كهنتهم ، بل حتى هيكل أورشليم ذاته الذى كانوا يعتبرونه مفخرتهم وأقدس مكان فى بلادهم . إذ جاء فى سفر المكابيين (٤٧) . "حين كانت المدينة المقدسة عامرة آمنة .. لما كان عليه أونيا الكاهن الأعظم من الورع .. إن رجلاً اسمه سمعان من سبط بنيامين كان مقلدا الوكالة على الهيكل أن وقعت مخاصمة بينه وبين الكاهن الأعظم لأجل ظلم جناه (سمعان) على المدينة، وإذ لم يمكنه التغلب على أو نيا انطلق إلى أبو لونيوس ... وكان إذ ذاك قائداً فى بقاع سوريا وفينيقيا وأخبره أن الخزانة التى فى أورشليم مشحونة من الأموال بما لا يستطاع وصفه .. فيتهيأ للملك إدخال ذلك كله فى حوزته . ففاوض أبولونيوس الملك .. فاختار هليو دوروس قيم المصالح وأرسله وأمره بجلب الأموال المذكورة .. فلما جاء أورشليم أحسن الكاهن الأعظم ملتقاه فحدثه بما كوشفوا به .. فذكر له الكاهن الأعظم أن المال هو ودائع للأرامل واليتامى .. ثم أن الأمر ليس على ما وشى به سمعان المنافق .. فلا يجوز بوجه من الوجوه هضم الذين ائتمنوا قداسة الموضع ومهابة وحرمة اليهكل ، لكن هليو دوروس ، بناء على أمر المالك، أصر على حمل الأموال إلى خزانة الملك" .

وكان الرياء والنفاق من أبرز عادات اليهود السلوكية ، يتظاهرون عن طريقه بالولاء ليخفوا غدرهم ، ويتظاهرون بالإخلاص ليخفوا خيانتهم ، ويتظاهرون الضعف والمسكنة ليخفوا وحشيتهم وشراستهم ، ويتظاهرون بالقداسة والتقوى ليخفوا خلاعتهم . يتقربون إلى ذوى السلطان بإبتسامتهم

الصفراء لينالوا أغراضهم ، ثم يتآمرون عليهم ، ولا يستثنون من ذلك حتى الله إذ يتزلفون إليه بالشكوى والبكاء حتى إذا استجاب لهم يتمردون عليه ويكفرون به ويبتعدون عنه ، ويعبدون آلهة أخرى ويدينون لها ، من دونه ، بالخضوع والولاء [٤٨] ، وقد امتلأت قصص التوراة بقصص ريائهم ونفاقهم، وشكوى أنبيائهم من هذا الرياء والنفاق وغضب الله عليهم لهذا السبب ، وتهديده إياهم بالهلاك والنفاق .

ومن أمثلة ذلك ما رواه سفر أرميا (الإصحاح ٣٤) عن حنثهم بوعودهم باعتاق عبيدهم أثناء حصار البابليين لأورشليم .

وما جاء في سفر أشعيا (الإصحاح الأول) عن حماسهم في التقرب إلى الله بالقرابين ، وفي الوقت نفسه لا يستمعون إلى أوامره وينتهون عما ينهى عنه إلى الدرجة التي جعلته يقول : "لماذا لي كثرة ذبائحكم ... من طلب هذا من أيديكم أن تدوسوا دوري ؟ لا تعودوا تأتون بتقدمة باطلة .. أعيادكم كرهتها نفسي .. فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم ، وإن كثرتم الصلاة لا أسمع .. أيديكم ملآنة دما ....".

العنصرية

ولعلنا إذا تأملنا هذا النص الذي أشرنا إليه مرارا ، والذي تقول التوراة فيه أن الرب قال لإبراهيم "اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك ، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم أسمك وتكون بركة وأبارك مباركيك ، وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض" [٤٩] ، فهاهنا نجد قلب التوراة من أولها إلى آخرها .

إن هذا الوعد الذي تذهب التوراة إلى أن الله قد وعده لإبراهيم ، بأن يبارك بني اسرائيل ويجعلهم " أمة عظيمة " هو جوهر تربية اليهود ، المحور الأساسي في تراثهم الديني .

والغريب أننا لا نجد فى التوراة تعليلاً له ، والحق أنه ليس (معلولا) ، بل (علة) أولى التى لا تفسير وراءها ، ومن هنا ، فكل ما حدث فى التاريخ إنما هو نتيجة واضحة لهذا .

لقد بنى عليه اليهود نظرية تفوقهم على البشر وانفراديتهم عن الناس وأفضليتهم على جميع المخلوقات فى نظر الخالق [٥٠] . وعليه وقفوا تكوينهم أمة فريدة تقف من الأمم موقف المختار الذى يتمتع بحقوق ليست لغيره .

بل أكثر من هذا ، فاليهود يقولون بأن هذا التفضيل هو عقد دخل فيه الإله ، فهو ملزم إلى الأبد . وأفضلية اليهود أزلية لن تتغير ، والعقد الذى دخل فيه الإله ذو اتجاه واحد ، فهو عهد لا عقد فى المعنى القانونى ، لأنه لا يلزم إلا جانبا واحداً هو جانب الإله المتعاقد . وهذا الادعاء اليهودى غير خلقى ومناف للعقل السليم . [٥١]

وقد حاول البعض تبرير الاختيار بقولهم إن الله اختص إبراهيم بالرسالة كى يحقق سيطرة القانون الأخلاقى المطلق فى العالم ، فاليهود فى هذا الرأى شعب الله المختار لأنهم باختصاصهم ، أمة قائمة على التوراة ، والتوراة هى القانون الأخلاقى المطلق ، يضربون مثلاً للكمال الخلقى فى العالم[٥٢].

لكن ينقض هذا أن النتيجة المنطقية هى أنه إذا لم يلتزم اليهود بهذا العهد، يصبح "التفضيل" لاغياً.

ومع هذا فان التوراة تؤكد أن اختيار اليهود وتفضيلهم ليس راجعاً إلى مبرر خلقى ، وإنما هو عهد تعهد به الله ، وإذا كان الأمر كذلك فهو عهد أزلى ، لا يسقط حتى ولو سار اليهود على طريق تنحدر فيه أخلاقياتهم ! ، تقول التوراة [٥٣]:

" اسمع يا إسرائيل! أنت اليوم عابر الأردن لكى تدخل وتمتلك شعوباً أكبر وأعظم منك ومدناً عظيمة ومحصنة إلى السماء : قوماً عظاما وطوالا بنى عناق الذين عرفتهم وسمعت من يقف فى وجه بنى عناق . فاعلم اليوم أن الرب إلهك هو العابر أمامك نارا آكلة . هو يبيدهم ويذلهم أمامك

فتطردهم وتهلكهم سريعاً كما كلمك الرب . لا تقل فى قلبك حين ينفيهم الرب إلهك من أمامك قائلاً : لأجل برى أدخلنى الرب لأمتلك هذه الأرض . ولأجل إثم هؤلاء الشعوب يطردهم الرب من أمامك . ليس لأجل برك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم بل لأجل إثم أولئك الشعوب يطردهم الرب إلهك من أمامك ، ولكى يفى بالكلام الذى أقسم الرب عليه لأبائك إبراهيم واسحق ويعقوب . فاعلم أنه ليس لأجل برك يعطيك الرب إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها لأنك شعب صلب الرقبة " .

ولأن الاختيار لا مبرر ولا علة له ، يجعل منه أساساً صالحاً لبذر بذور العنصرية ، فالعنصرية يقول " أنا أفضل منك لأنى أنا " !

ويبدو أن اليهودية التلمودية حافظت على الكثير من الاتجاه وأحاطته بشئ من الكتمان وهالة من القداسة ، فاستمر التقليد عبر التلمود وتأثيره الساحق دون أن يتاح له سبيل التطور والعلمنة على نحو سليم .

والتقليد الذى نعنيه هنا هو وثيق الصلة بمفهوم الاختيار أو (الصفوة) لدى اليهود . ومن الأمثلة على هذا ، نجد فى مدراش عن سفر الخروج MIDRASH EXADUS RABBA يطالعنا التفسير التالى [٥٤] :

"لماذا يشبه بنو اسرائيل بحبة الزيتون ؟ لأن زيت الزيتون لا يمكن خلطه مع المواد الأخرى ، وكذلك بنو اسرائيل لا يمكن اختلاطهم مع الشعوب الأخرى" .

وإذا كان التلمود بمثابة المعلم الكبير لليهود ، فلا نستبعد مساهمة اليهودية التلمودية فى تغذية الشعور الاستعلائى ، والحفاظ عليه إزاء العالم غير اليهودى ، وفى ذلك ينقل رزوق عن (برنار ولازار) محاولته لتوضيح الصورة التى رسمها اليهودى فنظر إليه العالم الخارجى ضمن إطارها[٥٥] :

" لكن اليهودى حافظ دينياً على فكرة الاستعلاء والتفوق هذه ، واستمر فى النظر بأنفة ، واحتقار إلى جميع الذين كانوا غرباء عن شريعته . أما

الذى علمه أن يكون كذلك فهو كتابه :التلمود ، الملئ بعصبية ضيقة وضارية.

لقد اتهم الكتاب بأنه ضد المجتمع وهذه التهمة تنطوى على شئ من الحقيقة ، وزعموا أنه يؤلف أقبح وأبغض مجموعة قانونية وأخلاقية ، فوقعوا فى الخطأ ، لأن التلمود لا يقل أو يزيد إفرازا للقباحات عن سائر المجموعات والمصنفات الخصوصية والقومية ، وإذا كان ضد المجتمع ، فمرد ذلك على سبب واحد هو انه مثل . ومازال يمثل ، على روح تختلف عن روح الشرائع النافذة فى البلاد التى يقطنها اليهود ، لأن اليهود أرادوا اتباع شريعتهم قبل اتباعهم للشرائع التى يسرى مفعولها على كل فرد من أفراد المجتمع . وفى لحظة من لحظات التاريخ بدأ التلمود معاديا للإنسانية بصورة مهلكة ، لأنه بقى على جموده وحاله بينما كان يتغير كل شئ من حوله " .

والوثنى (غير اليهودى) - فى رأى التلمود - الذى يسرق أخاه فى الوثنية إذ يرتكب السرقة بحق الإسرائيلي ، ينبغى له إعادة المسروق إلى أصحابه أو استحقاقه العقاب اللازم . أما الاسرائيلى الذى يسطو على وثنى فيحق له أن يحتفظ بما سرقه [٥٦] .

ومما تجدر ملاحظته فى هذا الصدد هو أن الاسرائيليين يعتبرون التوراة ملكا خصوصيا لهم وحدهم : فالوثنى الذى يدرس التوراة يستحق عقوبة الموت فى نظر الرابى (يوحنان) - سنهدربين ٥٩ أ، لأن موسى أوصانا بناموس ميراثا لجماعة يعقوب (تثنية ، الإصحاح ٣٣) . أى أن التوراة هى ميراثنا نحن ، وليست ميراثهم ! .

ومن الأمثلة التى تبين لنا تمتع بنى اسرائيل بالميزة والأفضلية إزاء الأغيار نذكر ما يلى من آراء الربانيين واجتهاداتهم [٥٧] :

١ - الرابى حنينا يقول :إذا ظهر الوثنى يهوديا استحق الموت (والإسناد: عندما أقدم موسى على المصرى وطمره فى الرمل عقابا له على

ضرب رجل عبراني من إخوته (تكوين ، الإصحاح الثانى) . ثم يضيف هذا الرابى : "من ضرب اسرائيليا على فكه ، فكأنه اعتدى على الحضرة الإلهية " !!

٢ ـ يسأل أحد الربانيين :هل هناك شئ محلل للاسرائيلى لكنه محرم على الوثنى ؟ وماذا بشأن المرأة الجميلة ؟ يجيب التلمود فى محاولة لتبرير السماح للاسرائيليين بما يحرمونه على سواهم :إن حق الاسرائيلى فى المرأة الجميلة يرجع إلى كون الوثنيين لم يفوضوا بالغزو. والمقصود بالغزو هنا :غزو فلسطين ، بينما الحاشية أن هذه الاستباحة كانت واردة أثناء عملية الغزو فقط ، وليس بعدها .

وإذا ما أردنا التعرف على صورة العرب فى التلمود فسوف نجد أن عناصر الصورة لا تخلو من بعض التحايل ضد عرب الجاهلية مثلما هى شديدة التحيز ضد اسماعيل بن ابراهيم والمنحدرين من نسله.

يقول الرابى (حانا بن آبا) فى سفر (سوكاه) ـ ٢ف ب ـ نقلاً عما قيل فى " بيت الدرس "ما يلى : " هناك أربعة أشياء يقدم الواحد القدوس تبارك اسمه على خلقه اياها ، وهى التالية : النفى ـ الكلدانيون ـ الاسماعيليون (يقول الناشر فى الحاشية بأن هذه التسمية مرادفة للعرب الذين يعيشون حياتهم كلها تحت الخيام) ـ نزعة الشر " . ويسند قوله عن العرب الى سفر أيوب (الاصحاح ١٢) : " خيام المخربين مستريحة والذين يغيظون الله مطمئنون"[٥٨] .

ويتوجه اليهودى ـ على لسان التوراة ـ الى أمم العالم فيصب عليهم حمم الغضب والوعيد صباً ، إلا أنه يمزج هذا الوعيد بالوعد لأورشليم، إذ يقول[٥٩] : " قومى (يا أورشليم) استنيرى .. لأنه هاهى الظلمة تغطى الأرض والظلم الدامس الأمم ، أما عليك فيشرق الرب ومجده عليك يرى ، فتسير الأمم فى نورك والملوك فى ضياء إشراقك .

ارفعي عينيك حواليك وانظرى . قد اجتمعوا كلهم . جاءوا إليك . يأتى بنوك من بعيد وتحمل بناتك على الأيدى ، حينئذ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع لأنه تتحول إليك ثروة البحر ويأتى إليك غنى الأمم ... إن الجزائر تنتظرنى وسفن ترشيش .. لتأتى ببنيك من بعيد وفضتهم وذهبهم معهم لاسم الرب إلهك وقدوس اسرائيل لأنه مجدك . وبنو الغريب يبنون سوارك وملوكهم يخدمونك . ليؤتى إليك بغنى الأمم وتقاد ملوكهم ، لأن الأمة والمملكة التى لا تخدمك تبيد وخراباً تخرب الأمم . مجد لبنان إليك يأتى .. وبنو الذين قهروك يسيرون إليك خاضعين ، وكل الذين أهانوك يسجدون لدى باطن قدميك ويدعونك مدينة الرب صهيون قدوس اسرائيل " .

الوصايا العشر :

من بين نصوص التوراة تقف مجموعة من النصوص اصطلح على تسميتها (الوصايا العشر) لتكون بمثابة " درة التاج " فى تكوين الشخصية اليهودية وتربيتها ، ولعل أهم ما يذكر فى سبيل تفسير هذه المكانة الفريدة للوصايا ، هو ما تذكره التوراة من أن شعب اسرائيل قد تلقاها عن طريق تجلى إلهى فريد فى نوعه ليهوه فى سيناء . وقبل أن يتجلى يهوه على جبل سيناء مهد لهذا التجلى ببعض الظواهر " وحدث فى اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت برق شديد جداً فارتعد كل الشعب الذى فى المحلة وأخرج موسى الشعب لملاقاة الله ، فوقفوا أسفل الجبل ، وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار وصعد دخانه كدخان الآتون وارتجف كل الجبل جداً ، فكان صوت البرق يزداد اشتداداً جداً وموسى يتكلم والله يجيبه بصوت[٦٠].

وعلى عكس القوانين اليهودية التى يشترط لتطبيقها شروط شخصية أو اجتماعية ، مثل الأضحيات المرهونة بالتزامات الفرد (النذر أو الذنب أو ما شابه ذلك) ، أو الجماعة وإقامة القداس ، أو الأحكام الأخرى التابعة كنتيجة لأحداث معينة ، مثل أحكام النجاسة والطهارة ، نجد أن الوصايا العشر

ملزمة للجميع ، ملزمة لكل فرد من بنى اسرائيل دونما أي ارتباط بموقف أو بظروف أو شروط أيا كانت.[٥٩]

وقد صيغت الوصايا بضمير المخاطب ، بما يعنى أنها موجهة لكل فرد من بنى اسرائيل ، وقد أدرك فيلون السكندرى هذه الخاصية فذكر أن التوجيهات الموجهة للجماعة يمكن أن يتملص منها الفرد ، لأن الجماعة يمكن أن تشكل بالنسبة للفرد ما هو بمثابة غطاء ، وهو الأمر الذى ينطوىعليه التوجه للفرد ، وهكذا فان فيلون يبرز من خلال هذه الملاحظة علاقة أنا ـ أنت [٦٢] .

وتفتقر الوصايا العشر الى الطابع الانسانى الشامل وتختص فىعدد من النواهى على اليهودى فقط ولا تتعداه لمن هو غير يهودى ، ومن ثم فإن تطبيق حد مخالفة الوصية لا يطبق على اليهودى إذا كانت المخالفة مع غير اليهودى إلا انه مسموح له بأن يضر الغير، فى حين أن غير اليهود يجب أن يعاقبوا إذا ارتكبوا نفس الخطيئة فى حق اليه١ودى[٦٣] .

وعلى الرغم من أن الوصية الأولى تتعلق بفكرة الله ، الا أن لها مضموناً هاماً فى تربية اليهودي فنصها يقول :

" أنا الرب الهك الذى أخرجك من أرض مصر ، من بيت العبودية لا يكن لك آلهة أخرى أمامى " [٦٤] .

فبتأمل هذه الوصية نجد أنها تعكس انعزالية عقيدية تجعل من الرب إلهاً خاصاً ببنى اسرائيل .

كذلك فهى ترسخ فى الوجدان اليهودى الاحساس بالعلاقة الخاصة بين اسرائيل والرب ، فهو يتدخل فى التاريخ لصالح اليهود وضد الشعوب التى اضطهدتهم وفق الرواية التوراتية ، وهو ما يعمق لدى اليهودي خاصية الإحساس بالعداء والكراهية تجاه (الأغيار) ـ المصريون فى هذه الحالة ـ وهى الكراهية التى انسحبت بعد ذلك على سائر "الأغيار" أى على كل شعوب العالم الكافرة فى نظر اليهود [٦٥] .

وفى الوصية الثانية نجد "لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة مما فى السماء من فوق ولا مما فى الأرض من أسفل ، ولا مما فى المياه من تحت الأرض ، لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنى أنا الرب إلهك اله غيور ... " (٦٦).

وعلى الرغم مما يفهم من هذه الوصية أن التجريم لم يحل على الصور لأنها تستخدم للزينة والإكرام ، وليس للعبادة ، بينما حل التحريم على التماثيل التى تعبد على غرار الإله ، فإن (ديورانت) يرى أنها أثرت سلبياً على العلم والفنون عند بنىاسرائيل ، وحتى علم الفلك نفسه قد أهمل أمره لكيلا يزداد عدد الآلهة الزائفين أو تعبد النجوم وتتخذ إلهة من دون الله . وكان فى هيكل سليمان قبل ذلك العهد عدد من الصور والتماثيل يكاد يجل عن الحصر . أما الهيكل الجديد فلم يكن فيه شئ منها ، ذلك أن التماثيل والصور القديمة قد نقلت من قبل الى بابل ، ويبدو أنها لم تعد مع ما أعيد من آنية الفضة والذهب(٦٧) . ومن أجل هذا لا نجد نحتاً ولا تصويراً ولا نقشاً بعد الأسر البابلى ، كما لا نجد إلا القليل منها قبل الأسر إذا استثنينا عهد سليمان الذى يكاد يكون عهد أجنبياً عن العبرانيين ، ذلك أنه اضطر للاستعانة بالفنانين الأجانب سواء فى البناء أو النحت أو التصوير ، وكل ما كان الكهنة يجيزونه من الفنون فناً العمارة والموسيقى، وكانت الأغانى والمراسيم التى تقام فى الهيكل هى التى تخفف من أكدار حياة الشعب وشقائه فكانت فرقة موسيقية معها مختلف الآلات تنضم الى جوقة المغنيين فى ترتيل المزامير ، فتبدو صوتاً واحداً لتسبيح الرب وحمده وتمجيد الهيكل .

وتطالب الوصية الثالثة اليهودى : " تنطق باسم الرب باطلاً لأن الرب لا يبرئ من ينطق باسمه باطلاً " (٦٨) .

ومن الواضح أن هذه الوصية تحرم على اليهودى القسم الكاذب ، والشخص الذى يحلف باسم الرب لابد وأن يكون هناك شك فى صحة أقواله ويشعر أن الآخرين لا يصدقونه ، ولو كان هذا الأمر معروفاً للجميع على انه حقيقة ، فلا يجوز للانسان أن يقسم عليه ، ولذلك فإنه حينما يقسم فان الآخرين يشكون فى أن له مقصداً مختلفاً عما أبداه فى حديثه (٦٩) .

أما الوصية الرابعة فتتعلق بتحديد يوم السبت (عطلة) لليهود : " اذكر يوم السبت لتقدسه ، فى ستة أيام تعمل وتصنع جميع أعمالك ، واليوم السابع سبت للرب إلهك لا تصنع فيه عملاً لك أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذى فى داخل أبوابك " [٧٠].

لكن لماذا السبت ؟

فى نفس الإصحاح السابق إشارة الى السبت " لأن الرب فى ستة أيام خلق السموات والأرض والبحر وصنع ما فيها ، وفى اليوم السابع استراح ، ولذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه " .

أما فى سفر التثنية والإصحاح الخامس ، فالسبب فى تقديس السبت يشار إليه بقوله : " وأذكر أنك كنت عبداً فى أرض مصر فأخرجك الرب إلهك من هناك بين شديدة (قديره)وذراع ممدودة ، لأجل ذلك أوصاك الرب إلهك أن تحفظ يوم السبت " .

وهكذا بينما يشير سفر الخروج الى أن سبب تقديس السبت هو أنه اليوم الذى استراح فيه الله بعد أن فرغ من خلق العالم ، نجد أنه فى سفر التثنية هو اليوم الذى أخرج الله فيه اليهود من أرض مصر ، وهكذا ترتبط الطبيعة والتاريخ ، ويمنح اليهود عطلة فى يوم السبت لسببين : واحد كونى ، والثانى تاريخى قومى فتتأصل مشاعر التميز وتتأكد نوازع التفرد عن سائر الأمم والشعوب .

ويرى بعض المفسرين اليهود أن فى اختيار السبت عطلة فيه شعور بالسعادة وراحة الضمير ، وهذا الشعور يقرب الإنسان إلى الله[٧١] .

ومن الملاحظ أن هذه الوصية فى صيغها المختلفة تنص على تحريم العمل يوم السبت ، دون أن تتضمن أمراً بما يجب على اليهودى أن يفعله يوم السبت . ومن هنا فقد تفنن فقهاء اليهود فى تفسير الكف عن العمل يوم السبت فحرموا كل ما من شأنه أن يشعر بالسعى فى الرزق أو الانشغال بحرفة أو صناعة أو إنتاج أو بذل جهد فى تحقيق هدف معين [٧٢] .

وعلى الرغم من النهى التام عن ممارسة أى نوع من أنواع العمل ، فى يوم السبت ، سواء كان لصالح المعيشة الفردية أو الجماعية ، فإن هناك بعض الظروف الإستثنائية أجازت فيها الشريعة اليهودية مباشرة بعض الأعمال فى يوم السبت (مثلا" حالات المرض أو الولادة - الحريق - حرب دفاعية - وقوع منزل .. الخ) [٧٣] .

وتأمر الوصية الخامسة اليهودى : "أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب ألهك " وذلك فى نفس الإصحاح العشرين بسفر الخروج .

وهذه الوصية الخاصة باحترام الأب والأم هى من الوصايا التى كان البشر معتادون على احترامها دون أن يؤمروا بها فى الوصايا العشر أو فى أى مكان آخر فى التوراة ، فلماذا وردت هذه الوصية فى الوصايا العشر ؟ لقد فسر أحدهم هذا الأمر بقوله [٧٤] : " بالرغم من أننى قلت لك لا تحترم ولا تعبد إلاى ، فاحترم أباك وأمك ولا تفى كل ما أسدوه إليك لأنهم أتوا بك إلى العالم واعتنوا بك إلى أن أصبحت كبيرا ، ويشقون من أجلك وكل كدهم ليس إلا من أجلك ، وإذا احترمتهما ورددت لهما الجميل ، ستعرف أنك بذلك تحترمنى من أجل كل الخير الذى أسديته إليك".

ومن المرجح أن الدلالة التربوية لهذه الوصية تكمن فى أن الأب والأم يعلمان الإبن منذ طفولته السلوك القويم ، حتى ينال رضا الرب والناس فإذا ما احترم أباه وأمه وخافهما ، فانه لن يستهين بأوامرهما ولا بالتوراة التى عوداه على أن يتصرف وفقا لها ، فيسير فى طريق الأخيار . اذن فاحترام الأب والأم هو مصدر الوصايا التى بين الإنسان وقريبه التى تردد بعد هذه الوصية ، ومن لا يعترف باحترامهما ، فإنه لن يعترف بتلك الوصايا ولن يعقلها ، وبناء على ذلك فإن احترام ومخافة الأب والأم يشبه احترام ومخافة الرب لأنه هو الذى يبين لعبيده كيف يتصرفون ، ولكى يسمعوا ويفعلوا وصاياه عليهم أن يخافوه وأن يعبدوه [٧٥] .

والوصية السادسة (لا تقتل) مبدأ مثالي صعب المنال ، وذلك أننا لا نرى فى كتاب ما نراه فى أسفار العهد القديم من حديث التقتيل والتدبير ، ففصوله كلها ما بين وصف لمذابح وتناسل لتعويض آثارها . لقد كان النزاع بين الأسباط ، والإنقسامات الحزبية ، وعادة الأخذ بالثأر المتوارثة ، كل هذه كانت لا تبقى على فترات السلم المتقطعة المملة إلا قليلاً . ولم يكن أنبياء بنى اسرائيل من دعاة السلم رغم ما جاء فى بعض أقوالهم من تمجيد للمحاريت ومناجل التشذيب . وكان الكهنة أنفسهم ،إذا جاز لنا أن نحكم عليهم من خطبهم التى يُنطقون بها يهوه - مولعين بالحروب ولعهم بالمواعظ. ولقد قتل ثمانية من ملوك اسرائيل التسعة عشر . وكانت العادة - كما أشرنا من قبل - أن تدمر المدن التى يستولون عليها فى حروبهم ، وأن تقطع بحد السيف رقاب جميع الذكور من سكانها ، وأن تتلف الأرض حتى لا تصلح للزراعة إلا بعد زمن طويل ، شأنهم فى ذلك شأن الناس فى تلك الأيام[٧٦].

والوصية السابعة تقول : "لاتزن" فى نفس السفر (الخروج) وفى نفس الإصحاح (٢٠) . وقد رأى البعض أن هذه الوصية تحرم العلاقات الجنسية بين الرجل وزوجة رجل آخر [٧٧] ، لكن المفسرين اليهود وسعوا حدود التحريم الذى تتضمنه هذه الوصية ليشمل كافة العورات المحرمة ، وبذلك فإن هذه الوصية تجعل الزواج هو الأساس الذى يجب أن تقوم الأسر ة عليه، وتنهى عن الفسق والفجور بأى إمرأة حرمها التشريع اليهودى سواء كانت امرأة رجل أو مطلقة أو عذراء أو من العورات المحرمة [٧٨] والشريعة اليهودية ، بالرجوع إلى تفاسير هذه الوصية ، فى أجزاء متفرقة من التوراة ، لم تنه عن الزنا فقط ، بل نهت كذلك عن تعريض النساء للظروف التى تجبرها على الزنا "لا تدنس ابنتك بتعريضها للزنا لئلا تزنى وتمتلئ الأرض رذيلة" [٧٩].

وسوف نفرد للمسألة الجنسية موضوعاً مستقلاً ، ونكتفى هنا بإيراد تعقيب ديورانت الذى استدرك بعد الإشارة إلى هذه الوصية قائلاً : "ولكن

الزنا كان رغم هذا منتشرا بين اليهود ، ويلوح أن اللواط لم ينقطع بعد تدمير سدوم وعمورة . ولما كان القانون ، فيما يلوح لم يحرم الإتصال بالعاهرات الأجنبيات ، فإن السوريات والمؤابيات والمدْينيات وغيرهم من (النساء العزبات) انتشرن فى الطرق العامة ، حيث كن يعشن فى مواخير وخيام ، ويجمعن بين الدعارة وبيع مختلف السلع الصغيرة . ولما كان سليمان فيما تروى المصادر اليهودية لا يتشدد كثيراً فى هذه الأمور ، فإنه قد تساهل فى تطبيق القانون الذى كان يحرم على تلك النساء السكن فى أورشليم ، وسرعان ما تضاعف عددهن حتى كان الهيكل نفسه فى أيام المكابيين ماخورا للفسق والفجور كما وصفه مصلح غضوب (٨٠).

أمام الوصية الثامنة فهى :"لاتسرق" – نفس السفر ونفس الإصحاح – وأيا كان اتجاه المفسرين اليهود لهذه الوصية فإن ما يمكن أن يستخلص منها هو أنها تقرر حق الإنسان فى الملكية الفردية ، وتنهى نهيا تاماً عن السرقة ، أيا كانت ، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . ويعد سارقاً من اغتصب ما لغيره ، ويجب عليه التعويض عن السرقة ، وإن لم يكن لديه التعويض بياع بسرقته (٨١) .

ويعلق ديورانت على هذه الوصية بقوله : "وليس لدينا ما يدل على أن هذه الوصية الجميلة قد أطيعت" (٨٢).

ونذكر القارئ أيضا بما فعله اليهود عند مغادرتهم مصر من خداع المصريين حيث استعاروا منهم ذهباً وفضة كثيرةً ولم يردوها

أما الوصية التاسعة فقد نصت على :"لاتشهد على قريبك شهادة زور"(٨٣) .

وفى الوصية العاشرة نجد :"لا تشته بيت قريبك ، لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا ابنه ولا ثوره ولا حماره ، ولا شيئاً مما لقريبك"(٨٤) .

وإذا كان الرب يقصد بهذه الوصية ألا ينظر اليهودى إلى ما لدى قريبه (أى اليهودى) ، لأن هذا يودى إلى مشاعر الحقد والكراهية ، إلا أنه لا ضير

فى أن يحسد اليهودى أو يشته أمرا من غير اليهود ، فقد أباح يهوه لشعبه المختار أرواح أهل الأمم الأخرى وجعل أموالهم غنيمة للأسرائيلين فى الحرب والسلم على حد سواء [٨٥] .

وكما يقول ديورانت بحق [٨٦]، فإن هذه الوصايا فى جملتها لم تكن وصفاً صادقاً للحياة اليهودية ، ولكن أثرها في سلوك أصحابها لم يكن يقل عن أثر معظم الشرائع القضائية أو الأخلاقية ، وكان من أهم آثارها التى جعلت لليهود ، فى خلال تجوالهم الذى بدأ عقب وضعها بزمن قليل ، والذى دام ألفى عام " وطناً يحملونه معهم" فيما بعد ، فيما عبرّ أحد الكتاب ، رغم تشتتهم وأبقت لهم كبرياءهم ، رغم هزائمهم ، وأوصلتهم خلال القرون الطوال إلى وقتنا هذا ، وهم شعب متماسك !

الأخلاقيات الجنسية :

القارئ لبعض نصوص التوراة يستطيع أن يلمس حرصاً واضحاً للمحافظة على الأعراض بإعتبار أن الجنس له مسالك إشباعه الشرعية والتى يعد الخروج عليها إثماً كبيراً يستحق عقاباً شديداً !

فمن ذلك ما نقلناه من قبل "لاتدنس ابنتك بتعريضها للزنى ، لئلا تزنى الأرض وتمتلئ الأرض رذيلة [٨٧] ".

بل أن سفر اللاويين فى إصحاحه العشرين يمتلئ بالنصوص الناهية عن ممارسة الجنس من غير سبله الشرعية :

- ".. فإذا زنى (رجل) مع امرأة قريبه فإنه يقتل الزانى والزانية" .
- ".. واذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه فقد كشف عورة أبيه . أنهما يقتلان كلاهاما دمهما عليهما" .
- "واذا اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة فقد فعل كلاهما رجساً . انهما يقتلان . دمهما عليهما" .

- "واذا اتخذ رجل امرأة وأمها فذلك رذيلة . بالنار يحرقونه وإياهما لكى لا يكون رذيلة بينكم" .
- "واذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة فإنه يُقتل والبهيمة تميتونها".
- "واذا اضطجع رجل مع امرأة طامث وكشف عورتها وعرى ينبوعها وكشفت هى ينبوع دمها يقطعان كلاهما من شعبها" (٨٨) .

وهناك نصوص تحرم الاتصال الجنسى بالأقارب مثل الأخت والعمة والخالة والأم .

وشددت التوارة على أهمية المحافظة على السمعة الجنسية . ذلك بمعاقبة الزوج اذا ادعى يوم دخوله على زوجته ، أنها فاقدة لعذريتها ثم ثبت أنه كاذب (٨٩) وإذا كانت مثل هذه النصوص مما يسهم فى بذر بذور سوية فى السلوك الجنسى ، إلا أن القارئ يمكن أن يتساءل : وكيف يستقيم هذا مع ماورد على لسان ابراهيم عن زوجته سارة :"وبالحقيقة أيضا هى أختى ابنة أبى ، غير أنها ليست ابنة أمى فصارت لى زوجه (٩٠) بل أن ابراهيم فى رواية التوراة - عَرض زوجته للزنى حين أنكر أنها زوجته ، حماية لنفسه ، وطمعاً فى الخير فكادت تقع تحت يد (أبيمالك) ملك جرار تارة (٩١) وتحت فرعون أخرى (٩٢) .

وفضلا عن ذلك ، فقد جعلوا لوطاً يستولد بنتيه الموابيين والعمونيين جميعا(٩٣) . وزنى راوبين بن يعقوب البكر ببلهة زوجة أبيه وأم أخويه دان ونفتالى ، وشاع هذا الخبر حتى سمعه يعقوب (٩٤).

واستولد يهوذا بن يعقوب ثامار زوجة ابنه البكر ولديها : فارهى وزارح (٩٥) ونسبوا إلى داود أنه اضطجع مع بشثبع بنت أليعام ، امرأة أوريا الحثى، وهى مطهرة من طمثها ، فحبلت (٩٦) .

وجعلوا أمنون بن داود يعشق أخته ثامار ، ويحتال حتى يخلوا بها ويضطجع معها (٩٧) ثم يورد هو شع أمرا من الله : "اذهب خذ لنفسك امرأة

زناً وأولاد زنا"[٩٨] ، أما كان ينبغى أن يبرأ كهنة (الكتاب المقدس) وقراءه من هذا العبث ، فيحذف منه ، بدلا من أن يظل يحمل طابع القداسة ، ويتعبد بتلاوته؟ [٩٩] .

وسفر أستير مثال آخر من أمثلة لا حصر لها على الأخلاقيات الجنسية لدى اليهود تطبيقاً لمبدأ "الغاية تبرر الواسطة" ، فقد استطاع أحد اليهود من سبايا بابل واسمه مردخاى ، الوصول إلى بلاد الفرس ، وكانت له ابنة عم بارعة الجمال تدعى أستير فدفع بها إلى حريم الملك الفارسى (أحشويروش). وقد حاول هامان وزير الملك الايقاع بمردخاى حتى أصدر الملك أمرا بقتل جميع اليهود فى المملكة ، ولكن مردخاى استغل ، بالاتفاق مع استير ، ما لجمالها من تأثير على الملك لإيغار صدره من وزيره الأول بغية التخلص منه وإحلال مردخاى محله وقتل الألوف من أتباع هامان . وقد رأت التوراة أن هذه مؤامرة خليقة بالتسجيل والتنويه فروتها فى سياق التمجيد لحيلة مردخاى فى إدخال أستير إلى حريم الملك الفارسى أولا ثم التمجيد لتآمرهما معاً على استغلال حسنها للتخلص من خصمه والحلول بعد ذلك محله ، حتى لقد ذهب كل من أستير ومردخاى فى التاريخ اليهودى بطلاً من الأبطال. ووجه الطرافة أن التوراة التى حرمت الزنا فى مثل هذه النصوص التى أشرنا إليها هى نفسها التوراة التى لم تر بأسا فى فى تمجيد أستير على ما ارتضته من أن تكون محظية الملك الفارسى وعشيقته مادام فى ذلك تحقيق لمصلحة مطلوبة ، بل لقد وصل هذا التمجيد الحد الذى جعلهم يفردون لها سفراً خاصاً يحمل اسمها ألا وهو "سفر استير[١٠٠]" .

ويصف لوبون سفر نشيد الأناشيد ، بأنه أكثر أسفارهم شهوانية" من ذلك ما جاء فيه "أسندونى بأقراص الزبيب أنعشونى بالتفاح فإنى مريضة حباً . شماله تحت رأسى وعينيه تعانقنى" [١٠١] .

ويصف الحبيب حبيبته ، من حيث الشفاه والفم والخدود والعنق . لكنه لا ينسى أيضاً أن يصف ثدييها[١٠٢] .

وفى إصحاح آخر: تعالى يا حبيبى لنخرج إلى الحقل ولنبت فى القرى . لنبكرن إلى الكروم لننظر هل أزهر الكرم؟ هل تفتح القُعال ؟ هل نوّر الرمان؟ هنالك أعطيك حبى" (١٠٣).

ويتساءل ديورانت : "ولسنا ندرى كيف غفل – أو تغافل – رجال الدين عما فى هذه الأغانى من عواطف شهوانية فأجازوا وضعها بين أقوال أشعيا والخطباء" (١٠٤) .

ماذا يستخلص من هذا الجانب من أخلاقيات التوراة ؟ بغير الإلتزام بالأحكام التقليدية فى هذا الشأن فإن القارئ للتوارة لا يسعه إلا أن يلاحظ أن السياق التى وردت فيه الأمثلة المتعددة للتحلل الجنسى فيها ما يشير إلى أن رب اسرائيل فى ذلك الحين كان كثيراً ما يقف من ذلك التحلل موقفاً (ثنائيا)، أى موقفاً يجمع بين اتجاهين متعارضين فى نفس الوقت هما الإباحة والإدانة فى آن معا ، فبينما كان يعلن إنكار السلوك الجنسى المبتذل ، إذا بهذا الإنكار يصاغ فيما يشبه الإعتذار لصاحبه والتمجيد لشخصه ، وقد سبق أن أشرنا إلى ما نسبته التوراة إلى داود وسليمان فى مجال الجنس من مباذل ثم ما أردفت فى رضى الرب عنها ؟ وما نحسب أن هذا هو المنتظر من كتاب يزعم الدعاة له أنه أساس الشريعة ونبع الخلق فى حضارة الإنسان ، وإن كان فى الوقت نفسه انعكاساً لخلق القوم الذين يفاخرون بهذا الكتاب وينتسبون إليه (١٠٥).

عواطف ذات عفاف

ومن الطريف أن ينتج اليهود آداباً خفيفة عاطفية ذات عفاف على الرغم من تحللهم ، وما عندهم من أخبار الدعارة تجده فى تاريخهم الخاص ، لا فى كتبهم التى هى وليدة الخيال الخالص (١٠٦) .

وإذا كنا قد لمحنا فى ثنايا سفر نشيد الأناشيد ما يشير إلى اتجاه "شهوانى" إلا أنه فى مجمله " هو أجمل ما انتهى إلينا من الشعر الغرامى السامى " فيما يقول لوبون . وإذا كان لم يغفل " إن الآثار التىهى من هذا

الطراز غير قليلة لدى العرب الذين لم يتغنوا بغير المرأة والجياد والملاحم " إلا أنه يستدرك "غير أن الحواس هى التى كانت تستحوذ على هؤلاء" ، وفى المقابل نرى فى سفر نشيد الأناشيد أن (سُلامية) وراعيها كانا يتحابا (حباً خالصاً) [١٠٧] .

ويسجل ديورانت إعجابه الشديد بما لمسه من حس مرهف فى بعض أجزاء التوارة إلى الدرجة التى جعلته يقول : "ليس فى المنثور من الكتابة ما هو أدنى إلى الكمال من قصة راعوث ، ولا تقل عنها كثيراً قصة اسحق ورفقة ، ويعقوب وراحيل ، ويوسف وبنيامين ، وشمشون ودليلة ، واستير ، ويهوديت ودانيال" [١٠٨] .

والقصص الغرامية الساخرة الواردة فى التوراة وسط بين التاريخ والشعر ، ويبدأ الأدب الشعرى بنشيد موسى (سفر الخروج ، الإصحاح/ ، و"نشيد دبورة " (القضاة: الإصحاح/(١٥) ويبلغ ذروته فى المزامير " وكانت ترانيم "التوبة" البابلية هى التى مهدت السبيل إلى هذه الأناشيد .

وفى نشيد الأناشيد لون من الشعر الرمزى ، يغلب عليه جانب الحوار النفسى ، فى صورة الإفضاء بما يثقل النفس ، والكشف عما يعتلج فيها ، أخذاً بتكرار بعض الجمل - كما نرى فى الشعر الحديث - توليدا للانفعالات والمعانى ، وتكثيفاً لها وتعميقا [١٠٩] .

ونسوق فيما يلى نماذج من النصوص التوراتية التىتحمل فى طياتها مشاعر عاطفة حب يتسم بعفاف مرغوب :

فى الليل ، على فراشى ، طلبت من تحبه نفسى
طلبته فما وجدته
انى أقوم وأطوف فى المدينة ، فى الأسواق ، وفى الشوارع
أطلب من تحبه نفسى
طلبته فما وجدته
وجدنى الحرس الطائف فى المدينة فقلت :

أرأيتم من تحبه نفسى ؟
فما جاوزتهم إلا قليلا حتى وجدت من تحبه نفسى
فأمسكته .
ولم أرخه حتى أدخلته بيت أمي وحجرة من حبلت بى (١١٠)

وقد تتداعى الخواطر النفسية ، وتنسكب الإنفعالات من إناء كثير الفتحات ، تنسكب كالدموع ، وتتألق كالندى تنعكس عليها أشعة الشمس المتوهجة فى أعماق الذات ، متباينة المسارات والألوان (١١١):

واجعلنى كخاتم على قلبك .
كخاتم على ساعدك .
لأن المحبة قوية كالموت .
الغيرة قاسية كالهاوية .
لهيبها لهيب نار لظى الرب .
مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفئ نار المحبة .
والسيول لا تغمرها .
إن أعطى الإنسان كل ثروة بيته بدل المحبة تحتقر احتقاراً .
لنا أخت صغيرة ، ليس لها ثديان ، فماذا تصنع لأختنا فى يوم تخطب ؟
إن تكن سوراً فتبنى عليها برج فضة .
وإن تكن باباً فنحصرها بألواح أرز .
أنا سور وثدياى كبرجين .
حينئذ كنت فى عينيه كواجدة سلامة (١١٢).

وكثيراً ما يستوحى الشاعر أعماقه ، ويعيش فى عالمه الخاص ، يحلم ، ويغنى ، ويتخذ من نسيج القمر الفضى مركبة ناعمة ينزلق بها على جليد حياته التى خمدت نارها ، أو يطير بها فوق سحاب ، يجمع الفراشات الذهبية العاشقة ، قبل أن تحرقها النار (١١٣).

أنا نائمة وقلبى مستيقظ .
صوت حبيبى قارعاً .

افتحى لى يا أختى يا حبيبتى ، يا حمامتى ، يا كاملتى .
لأن رأسى امتلأ من الطل وقصص من ندى الليل .
قد خلعت ثوبى ، فكيف ألبسه ؟
قد غسلت رجلى ، فكيف أوسخها ؟
حبيبى مدّ يده من الكوة .
فأنّت عليه أحشائى .
قمت لأفتح لحبيبى ويداه تقطران مراً .
وأصابعى مُرّ قاطر على مقبض القفل .
فتحت لحبيبى ، لكن حبيبى تحول ، وعبر !
نفسى خرجت عندما أدبر .
طلبته فما وجدته(١١٤) ...

ويرتبط بأخلاقيات الجنس والبعد العاطفى ، مكانة المرأة ، فى نظر اليهودى ، وهنا نجد أن المرأة المتزوجة عندما تنذر نذراً ، فإن لزوجها الحق بأن يوافق على النذر أو يبطله ، وأن المرأة إذا أساءت إدارة البيت أو وجد الرجل امرأة أجمل منها فله الحق أن يطلقها ، وذلك وفقا لتعاليم التلمود (١١٥).

وصار يرجح استهانة اليهود بالمرأة أنها لا تستطيع أن تلتحق المدراس الدينية لليهود (والتى تسمى Talmud Torah) ، ويعزى محرر دائرة المعارف اليهود فى ذلك إلى سببين :

أولا : لأن تعليم المرأة لم يكن إجبارياً فى الدين .

ثانيا: لأن المرأة تعتبر "خفيفة العقل" light-minded وكذلك أن الحاخام أليعاذر قال :"كل من يعلم ابنته التوراة ، فكأنه يعلمها السخافة ، إلا أن موسى بن ميمون استدرك فأفتى بأن المراد من هذا القول هو التلمود وليس التوراة، أى أنه أجاز تعليم المرأة القانون المكتوب دون الشفهى (١١٦).

الجزاء والعدل الالهى :

وإذا كنا قد أشرنا فى الفصل الخاص بالفكر الدينى والفلسفى عند بنى اسرائيل إلى قضية "البعث" وكيف أنها شبه غائبة ، فإنه لابد لنا هنا من العودة إليها لما لها من آثار تربوية بعيدة المدى ، ذلك أنه لما كانت الجنة لا وجود لها فى الديانة اليهودية ، فقد كان من الواجب المحتم أن تنال الفضيلة ثوابها فى هذا العالم وإلا لم يكن لها ثواب على الإطلاق .. ولكنهم كثيرا ما كان يبدولهم أن الأشرار ينجحون ويفوزون ، وأن أشد الآلام قد اختص بها خيار الناس ، فلم اذن هؤلاء هم الأشرار يكثرون ثروة ؟ ولم يخفى الله نفسه ولا يعاقب الأشرار ويثيب الأخيار[١١٧] ؟

ولعل ما جاء فى سفر أيوب يعطينا صورة واضحة ، ففيه نجد أن الشيطان يقول ليهوه أن أيوب انسان "كامل مستقيم" لأنه رجل محظوظ ، فهل يستمسك بتقواه اذا أصابه الضر ؟ فيسمح يهوه للشيطان بأن يصب ألوانا من المصائب على رأس أيوب ، ويظل البطل وقتا ما صابرا "صبر أيوب"[١١٨]، ويفكر فى الانتحار ، ويلوم ربه أشد اللوم لأنه نبذه وتخلى عنه . ويصر صوفر ،- وقد خرج ليستمتع بآلام صديقه - على أن الله عادل وأنه سيثيب الانسان الصالح فى هذه الدنيا نفسها ، ولكن أيوب يقطع عليه حديثه محتدا[١١٩] :

"إنكم شعب ومعكم تموت الحكمة ، غير أنه لى فهم مثلكم . لست أنا دونكم ومن ليس عنده مثل هذه .. خيام المخربين مستريحة والذين يغيظون الله مطمئنون ، الذين يأتون بإلههم فى يدهم .."، ثم يقول فى الإصحاح الثالث عشر من نفس السفر : " هذا كله رأته عينى . سمعته أذنى وفطنت به .. أما أنتم فملفقوا كذب ، أطباء بطالون كلكم . ليتكم تصمتون صمتاً . يكون ذلك لكم حكمة ".

ثم يشير إلى ما تتميز به الحياة من قصر فى الوقت الذى يطول فيه الموت[١٢٠] :

"الإنسان مولود المرأة ، قليل الأيام ، وشبعان تعبـاً . يخرج كالزهر ثم يتحسن ويبرح كالظل ولا يقف .. لأن للشجرة رجاء أن قطعت تخلف أيضـا ولا تُعدم خرابيعها.. أما الرجل فيموت ويبلى ، الإنسان يسلم الروح فأين هو؟ قد تنفد المياه من البحرة ، والنهر ينشف ويجف ، والإنسان يضطجع ولا يقوم . إن مات رجل أفيحيا؟"

إن الإيمان بالبعث لا يقف الأمر فيه عند حد أنه يهب العزاء للمحزونين فى الدنيا ، ولكنه يهب الإنسان الثقة فى أن سلوك طريق الأخلاق الفاضلة مهما كابد صاحبه من آلالام والمشقة فإنه سوف يلقى الجزاء الأوفى فى الحياة الآخرى . إن مثل هذه الثقة تمد الإنسان بطاقة هائلة تعينه على تحمل ما يواجهه ، وهو عندما يستمر على الطريق غير آبه بما يلاقيه من صعاب فقد يؤدى هذا به إلى النصر فى النهاية وبالتالى يجمع بين السعادتين : سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

وربما يشير البعض إلى ما جاء بسفر إشعياء من أنه إشارة إلى "اليوم الآخر"[١٢١] ، وإشعياء كان فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وجاء بعد موسى بخمسة قرون . ومع إن نبوءة إشعياء ليست واضحة ولا صريحة فإنها لا تحدد اليوم الآخر ، وفكرته - إذا كان يقصد اليوم الآخر - غامضة ، ومع هذا ليس المقصود من نبوءته اليوم الآخر ، بل المقصود يوم من أيام الدنيا ، كما نرى فى الإصحاحات : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، فاليوم الذى تثبته هذه الشواهد الكثيرة مما جاء فى نبوءات إشعيا ليس اليوم الآخر الذى يعقب الدنيا ، بل هو يوم دنيوى من أيام الدنيا [١٢٢] .

ولعل ما جاء فى سفر دانيال أصرح مما جاء فى سفر إشعياء ، إذ يقول دانيال : "كثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء إلى الحياة الأبدية ، وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدى ، والفاهمون يضيئون كضياء الجلد (السماء) ، والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور" [١٢٣] .

ولقد كانت كلمة دانيال أو نبوءته تذكر اليقظة التي هي العودة إلى الحياة، فليست البعث الذى يتم فى اليوم الآخر ، بدليل أن الذين يستيقظون ليسوا الراقدين جميعا ، بل كثيرون منهم هم الذين يستيقظون ، وإذا كانت اليقظة غير عامة شاملة ، فليست بعثاً لليوم الآخر .

ويصور سفر أيوب كيف أحاطت به الشكوك حول "العدل الإلهى" نظرا لما يلمسه فى الدنيا من شقاء ينال السائرين على الطريق المستقيم ، ومن نعيم وهناء يحيط بمن ينحرفون عن الطريق ، ولعل مثل هذا الشك مما قد يزعزع الإيمان بالله ، وهنا يجئ صوت الرب مجلجلا [١٢٤]:

"من هذا الذى يُظلم الفضاء بكلام بلا معرفة . اشدد الآن حقويك [١٢٥] ، كرجل ، فإنى أسألك فتعلمنى ، أين كنت حين أسست الأرض ؟ أخبر إن كان عندك فهم . من وضع قياسها ؟ لأنك تعلم أو مد عليها مطمارا [١٢٦] ؟ على أى شئ قرت قواعدها أو من وضع حجر زاويتها عندما ترنمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بنى الله ؟

ومن حجز البحر بمصاريع حين أندفق فخرج من الرحم ؟ إذ جعلت السحاب لباسه والضباب قماطه ، وجزمت[١٢٧] عليه حَدى ، وأقمت له مغاليق ومصاريع وقلت إلى هنا تأتى ولا تعدى ، وهنا تتخم كبرياء لجحك[١٢٨].

هل فى أيامك أمرتَ الصبح ؟ هل عرّفت الفجر موضعه ؟ ..

هل انتهيت إلى ينابيع البحر ، أو فى مقصورة القمر تمشيت ؟ هل انكشفت لك أبواب الموت ؟ ..

هل عرفت سنن السموات أو جعلت تسلطها على الأرض ؟ ..

واستمر السفر يعدد نعم الله وآياته ، فما كان من أيوب إلا أن قال مخاطبا ربه : "قد علمت أنك تستطيع كل شئ ولا يعسر عليك أمر .. ولكنى نطقت بما لم أفهم"[١٢٩] .

ومن هنا أتى الربّ يعقوب الكثير من الخير والثراء ، ومع ذلك فلا يتضح لنا جوهر القضية إلا اذا آمن الإنسان بحياة بعد الممات ، ترفع فيها المظالم ، وتصحح كل الأخطاء ، يعاقب فيها المسئ ، ويثاب المحسن أجزل الثواب !

إن افتقاد الإيمان بالبعث والحساب فى اليوم الآخر من شأنه أن يبث روح التشاؤم ، تلك التى عبر عنها أحد الأسفار في قوله "... قد يكون بار يبيد فى بره وقد يكون شرير يطول فى شره"[١٣٠] وفى قوله :"ثم رجعت ورأيت كل المظالم التى تجرى تحت الشمس ، فهو ذا دموع المظلومين ولا مُعزّ لهم ومن يد ظالميهم قهر"[١٣١].

ولكن ما يمنح الإنسان الأمل ، إن الله يعرف ويراقب كل شئ : "إن رأيت ظلم الفقير ونزع الحق والعدل فى البلاد ، فلا ترتع من الأمر ، لأن فوق العالى عالياً يلاحظ" [١٢٣] .

ويشير النصان الأوليان بأن الهناءة والشقاء فى هذا العالم لا شأن لهما بالفضيلة والرذيلة ، بل إن نصا آخر يشير إلى أن الفضيلة والرذيلة ليستا هما اللتين تقوم عليهما سعادة الإنسان وشقاؤه ، وإنما تقوم السعادة والشقاء على المصادفة العمياء، :" فعدت ورأيت تحت الشمس أن السعى ليس للخفيف ولا الحرب للأقوياء ولا الخبز للحكماء ، ولا الغنى للفهماء ولا النعمة لذوى المعرفة ، لأنه الوقت والعَرَض يلاقيانهم كافة"[١٣٣] .

والنتيجة التى تترتب على هذا مزيد من الضغوط والتشاؤم ، بحيث لا يرى الإنسان فى الدنيا إلا أنها أمر محزن ، ولا بأس من التخلص منها ، فلا غاية لها ولا جدوى ، إنها سلسلة صراعات بلا معنى ، ليس فيها ما هو حقيقى إلا الإنكسار والممات ؟!! "... باطل الأباطيل الكل باطل . ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس ؟ دور يمضى ودور يجئ والأرض قائمة إلى الأبد والشمس"[١٣٤] ، تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق . الريح تذهب إلى الجنوب ، وتدور إلى الشمال ،

تذهب دائرة دورانا ، وإلى مداراتها ترجع الريح . كل الأنهار تجرى إلى المكان الذى جرت منه الأنهار إلى هناك تذهب راجعة (١٣٥).

ويقول كذلك : ".. ثم التفت أنا إلى كل أعمالى التى عملتها يداى وإلى التعب الذى تعبته فى عمله ، فإذا الكل باطل وقبض الريح ولا منفعة تحت الشمس (١٣٦).

ويصل إلى ذروة التشاؤم فيقول : ".. فغبطت أنا الأموات الذين ماتوا منذ زمان أكثر من الأحياء الذين هم عاشون بعد ، إو خير من كليهما الذى لم يولد بعد .."(١٣٧) ، وأيضا ".. ويوم الممات خير من يوم الولادة ، الذهاب إلى بيت النوح خير من الذهاب إلى بيت الوليمة .. الحزن خير من الضحك لأنه بكآبة الوجهُ يصلح القلب . قلب الحكماء فى بيت النوح ، وقلب الجهال فى بيت الفرح"(١٣٨) .

فماذا عن المعرفة والحكمة ؟ أليسا يمثلان باب أمل للإنسان فى هذه الحياة ؟ " ثم التفت لأنظر الحكمة والحماقة والجهل ، .. فرأيت أن للحكمة منفعة أكثر من الجهل ، كما أن للنور منفعة أكثر من الظلمة . الحكيم عيناه فى رأسه ، أما الجهل فيسلك فى الظلام .." ، لكن اليأس المطبق يجعله أيضا يقول :".. هذا أيضاً باطل ، لأنه ليس ذكر للحكيم ولا للجاهل إلى الأبد منذ زمان ، كذا الأيام الآتية ، الكل يُنسى . وكيف يموت الحكيم كالجاهل فكرهت الحياة ... لأن الكل باطل وقبض الريح ، فكرهت كل تعبى الذى تعبت فيه تحت الشمس (١٣٩) .

ولو كان من مبادئ اليهودية أن الرجل العادل يستطيع أن يتطلع إلى شئ من السعادة بعد الموت ، لكان فى مقدوره أن يتحمل سهام مصائب الدهر وقلبه عامر بالأمل والشجاعة (١٤٠).

إن تفسير ما يحدث للبشرية من آلام "إن الله يمتحنهم ليريهم أ نه كما البهيمة هكذا هم ، لأن الذى يحدث لبنى البشر يحدث للبهيمة وحادثة واحدة لهم . موت هذا كموت ذاك ، ونسمة واحدة للكل ، فليس للإنسان مزية على

البهيمة لأن كليهما باطل . يذهب كلاهما إلى مكان واحد ، كان كلاهما من التراب وإلى التراب يعود كلاهما" (١٤١) .

ولكن الأمر ليس كذلك تماماً ، فلا يشابه الإنسان الحيوان مشابهة تامة ، لأن الحيوان يأكل ويتمتع بجميع حواسه ويموت هادئاً غير شاعر ، وإنما يحمل الإنسان فى نفسه بذرة الألم الخفى الخالد (١٤٢) .

وصاحب سفر الجامعة إذ عرف أكثر من كل انسان ذلك الغم الغريب والأمل القاهر والهم من العدم رفع صوته متحسراً قائلا : "فى كثرة الحكمة كثرة الغمة ، ومن ازداد علماً فقد ازداد غماً" ؟!!

ترى أى شئ أكثر هدماً للتربية من هذه التوجهات ؟!!

وتنحصر أخلاق صاحب سفر الجامعة والنصيحة التى يسوقها فى تقريبنا ، إذا أمكن ، من دائرة اللاشعور الموحشة الهادئة ، وفى طردنا من نفوسنا كل هم حول ما هو عادل أبدى غير محدود ، وفى إغماض عيوننا وجعل أصابعنا فى آذاننا وخنق الصوت المقطوع الرجاء فى قلوبنا والتمتع بالأمور المحسوسة الملموسة التى نستطيع بها قضاء غاياتنا الجثمانية ، ومداراة كبريائنا .. وهكذا تجئ نصوص من شعر الجامعة :

"ليس للإنسان خير من أن يأكل ويشرب ويُرى نفسه خيراً فى تعبه.."

"فاذهب كل خبزك بفرح واشرب خمرك بقلب مسرور ..."

"تمتع جميع حياتك الفانية بالعيش مع المرأة التى أحببتها وأوتيتها تحت الشمس لتقضى أيامك الفانية ، فإن ذلك حظك من الحياة ... فليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة فى الهاوية التى أنت ذاهب إليها" .

وبعبارات بليغة يعلق لوبون :" وسفر الجامعة من أمرّ الإنكارات التى نطق بها كل ذى شفتين ، فهو أنشودة قنوط المحكوم عليهم بالهلاك الأبدى ، وهو ينفع كتابة قبر للجنس البشرى حينما تُسجى الأرض الخالية من سكانها الأخيرين تحت كفن من الجليد"(١٤٣)!!

التوظيف التربوى للقصة والحكمة

امتلأت التوراة بالعديد من القصص كتبت بأسلوب أدبى يشير إلى فن جيد حقا . وإذا كانت القصة التوراتية تنبئنا بأحداث ووقائع تاريخية ، وإذا كانت تجئ فى أشكال أدبية مختلفة توحى بأنها صور للتذوق الجمال ، فإنها فى مجملها محملة بالمعانى والدلالات التربوية التى نستطيع أن نرجح أنها الهدف الأساسى منها .

والحكمة بحكم طبيعتها التى تجعل منها تلخيصاً بليغاً لنتائج خبرة بشرية إنما يمكن النظر إليها على أنها "مبادئ" و "قواعد" للسلوك البشرى ينبغى أن يسير وفقا لها .

ومن هذا القصص قصة أيوب والتى استعنا بها فى الجزء السابق ، فهذه القصة قصة رجل متدين شديد الإيمان بالله حتى أن الخالق مدحه أمام خلقه السماوى ، ومن ثم جرده من كل ممتلكاته وحرمه حتى من أبنائه وابتلاه بكل كارثة حتى صحته . وتحدثنا القصة أيضا أن كل ما حل بأيوب كان نتيجة جدال عنيف بين الله والشيطان ، ذلك المخلوق الذى يهمه أذى الناس وتحطيمهم ، لذلك فهو دؤب فى مسعاه لدى الله لإشباع هذه الرغبة الشريرة، إلا أن الله يعارض الشيطان ويؤكد له أن أيوب مخلص فى عقيدته ، وفى رأيه ، وأباح للشيطان حق اختباره ليرى مدى تمسك أيوب بعقيدته ، فهاجمه الشيطان هجوماً عنيفاً فجرده من المال والبنين وحتى من صحته . وبالرغم من كل تلك المصائب فقد بقى أيوب المؤمن الصادق والعبد المخلص لخالقه(١٤٤) .

فمن هذه القصة القديمة نخرج بنتيجة ألا وهى العبادة والتدين دون رجاء وجزاء أو شكر ، هذا مع استعداد المؤمن للتضحية بكل سعادة وهناء فى سبيل شعوره الدينى وعقيدته . والشاعر ينطق أيوب بأفكاره ويضع على لسان أصدقاء أيوب ما كان ولابد أن يسمعه الشاعر نفسه من أصدقائه هو ، وقد برع الشاعر وصاغ كل هذه القضايا فى حوار شعرى جميل ، ذلك

الشاعر هو أيوب نفسه ، هو ذلك المتدين المعذب ، هو ذلك الشخص الحائر الذى لا يعرف سببا لما أنزله الله به من ويلات ومصائب [١٤٥] .

وفى نهاية السفر ، وبعد أن يتحدث الله عن عظمته وآياته يعلن براءة أيوب الذى كان يشكو ويتساءل عن سبب ما نزل به من عذاب .

والآن : هل اهتدينا إلى حل مسألة عذاب وآلام المتدين ؟ هل كان عذاب أيوب عقاباً من الله ؟ إن أيوب لم يرتكب إثما يستحق عليه مثل هذا العذاب ، وما هذا العذاب إلا وسيلة لتربية أيوب ؟ لكن هل أيوب فى حاجة إلى هذا الضرب من التربية ؟ الواقع غير هذا . ولعل السبب الحقيقى فى نكبة أيوب أن الله يختبر أكثر الناس إيماناً تخليصاً له من هذه الكبرياء العقلية . وقد تكون هى الخطيئة الوحيدة الكامنة فى الإنسان ، كما أن الحقيقة التى لا شك فيها أن الله يفعل ولا يسأل عما يفعل[١٤٦] .

ويُعد سفر أيوب مُعزياً بجانب سفر الجامعة . بيد أن ما فى القسم الأول من سفر أيوب من الضيق الخلقى الكريه لايداوى إلا بثقة عمياء بالله. وعند مؤلف هذا السفر أن ما يمكننا أن نناله من السكينة هو فى العدول عن البحث وفى العدول عن الفهم وفى للسنن التى تسير مصايرنا من غير حب شديد للإطلاع ومن غير تذمر [١٤٧].

ولا يزال العالم منقسما بين أنصار التمتع الدنيوى ، و(المثاليين) أى بين أتباع سفر الجامعة ، وأتباع سفر أيوب .

وإذا ما جئنا إلى المزامير فسوف نجد أنه لم يكن يقصد بها أن يطالعها الإنسان فى جلسة واحدة أو أن يطالعها مطالعة الناقد المدقق ، بل إن أجمل ما فيها أنها تصف لحظات من نشوة التقى والصيام الروحى و الإيمان القوى المحرك للعواطف . ولكن يفسدها علينا ما فيها من لعنات مريرة و"تأوهات" وشكايات مملة (١٤٨).

والمزامير مليئة بالحماسة الحربية البعيدة كل البعد عن الروح المسيحية، ولكنها مع ذلك تسرى فيها روح الحجيج المجاهدين . على أن من المزامير

ما يفيض رحمة وحناناً وما يعد مثلا فى الخضوع والتذلل :" إننا تراب نحن. الإنسان مثل العشب أيامه . كزهر الحق كذلك يزهر ، لأن ريحا تعبر عليه فلا يكون ولا يعرفه موضعه بعد"(١٤٩) .

ولهذه القصائد فى نفوس قارئيها اليهود خاصة ما يفوق أثر أية أغنية من أغانى الحب ، فهى تحرك أقسى العواطف وأكثر النفوس شكاً لأنها تعبر فى صورة عاطفية قوية عما فى العقل الناضح من شوق إلى نوع من الكمال يهب له كل جهده (١٥٠) .

وقصة (استير) قصة أخرى من قصص العهد القديم تتجلى فيها عبقرية المؤلف فى التعبير القوى والإبداع فى استخدام العبارات القوية والمحسنات اللفظية إلى حرصه على الإستيلاء على حواس القارئ ومشاعره، فلا تفلت منه عبارة ولا تغيب عنه فكرة (١٥١) .

ففى هذه القصة نجد أن رئيس وزراء شاه الفرس (هامان) أراد حماية الشعب الفارسى من عواقب التغلغل اليهودى فى الحياة الإقتصادية فاقترع يوماً بعينه لتنفيذ هذه الإجراءات ، لكن (استير) اليهودية التى أخفت حقيقتها وتسللت إلى بلاط الشاه وأوقعت به ، أحبطت المحاولة ، ومن ثم مكنت اليهود من قتل آلاف الفرس ، ولم يطفىء هذا العدد ظمأها فى سفك الدماء ، بل تفننت فى قتل هامان وأولاده ، فهذه الوحشية التى تتجلى فى هذه القصة تصور اليهود هذا التصوير الشنيع البغيض الذى يدلنا على أن اليهود متى آل إليهم الأمر فى بلد ما لا يترددون فى إيقاع أفظع أنواع الإضطهاد بغيرهم .

وتخليداً لذكرى هذه المذابح التى اقترفها اليهود فأجروا دماء الفرس أنهاراً يحتفلون اليوم بعيد "الإقتراع" المعروف باسم (بوريم)(١٥٢) .

أما أدب الحكمة الذى يلخص التجربة البشرية ، ويقدمها فى أوجز صورة ، تحرك الفكر ، وتثريه ، وتهز الوجدان ، وتصبح مسلمة تدفع الحجة، وتكشف البهتان ، وتضع الحلول السريعة ، هذه الحكمة تكثر فى أسفار أيوب والأمثال والجامعة ، وتنتثر فى غيرها ..

ففى الإصحاح الثنى من سفر الأمثال :

- "إذا دخلت الحكمة قلبك ، ولذت المعرفة لنفسك ، فالعقل يحفظك والفهم ينصرك" . وفى الإصحاح الثالث :
- "يابنى .. لا تدع الرحمة والحق يتركانك . تقلدهما على عنقك . اكتبهما على لوح قلبك ، فتجد نعمة وفطنة صالحة فى أعين الله والناس" .
- "طوبى للإنسان الذى يجد الحكمة وللرجل الذى ينال الفهم ، لأن تجارتها خير من تجارة الفضة وربحها خير من الذهب الخالص . هى أثمن من اللآلئ وكل جواهرك لا تساويها .. الرب بالحكمة أسس الأرض . أثبت السموات بالفهم".
- "يابنى ... لا تمنع الخير عن أهله حين يكون فى طاقة يديك أن تفعله" . وفى الإصحاح الرابع :
- "إسمعوا أيها البنون تأديب الأب واصغوا لأجل معرفة الفهم . لأنى أعطيكم تعليماً صالحاً فلا تتركوا شريعتى ، فإنى كنت إبنا لأبى غضا ووحيدا عند أمى ، وكان يُرينى ويقول لى ليضبط قلبك كلامى، احفظ وصاياى فتحيا . أقتن الحكمة، اقتن الفهم".
- "تمسك بالأدب . احفظه فإنه هو حياتك .لا تدخل فى سبيل الأشرار ولا تسر فى طريق الأثمة" .
- "يا بنى ... أنزع عنك التواء الفم وأبعد عنك انحراف الشفتين. لتنظر عيناك إلى قدامك وأجفانك إلى أمامك مستقيما ... " وفى الإصحاح السادس:
- "اذهب إ لى النحلة أيها الكسلان . تأمل طرقها وكن حكيما ... إلى متى تنام أيها الكسلان ؟ متى تنهض من نومك ". وفى الثامن :
- ".. لكم أيها الناس أنادىوصوتى إلى بنى آدم أيها الحمقى : تعلموا ذكاءً ويا جهال تعلموا فهما .." وفى التاسع عشر:

- "الفقير السالك بكماله خير من ملتوى الشفتين وهو جاهل . أيضا كون النفس بلا معرفة ليس حسنا ، والمستعجل برجليه يخطأ .. " .
- " الأبن الجاهل مصيبة على أبيه .." .

أما التلمود فيزخر بكثير من الأمثال والحكم ، صيغت بمهارة فائقة ، وتدل على أن واضعيها كانوا على قدر من الفطنة والذكاء ، وهذه بعضها: (١٥٣) .

- العالم باق بسبب الأنفاس الطاهرة لأطفال المدارس .
- كل من يتعدى تعاليم الكتبة يستحق الموت .
- كم من يعلمّ أمام أساتذته يستحق أن تلدغه حية !
- الرجل الذى فى سلته خبز ليس كمثل الذى لا شئ فى سلته .
- الأجدر بك أن تكون رأس ثعلب من أن تكون ذنب أسد .

(وقد عارض أحد الحاخامات هذه الحكمة قائلا : الأجدر بك أن تكون ذنب أسد من أن تكون رأس ثعلب") .

- صديقك له صديق . وصديق صديقك له صديق أيضا ، فكن حصيفاً (اكتم أسرارك) .
- إذا لم يستطع السارق انتهاز الفرصة زعم نفسه أمينا .
- كثيرون يعظون جيداً ، ولكنهم لا يعملون جيداً .
- المغرور عابد وثن .
- المرء تقع عينه على كل جذام إلا الذى على جسمه هو .
- ليس الإعتبار بما تقوله عن نفسك ، ولكن ما يقوله أصدقاؤك عنك .
- الصدقة ملح المال .
- الطفل يحب أمه أكثر من أبيه ، ولكنه يخاف أباه أكثر من أمه.
- تب يوماً قبل أن تموت .
- البيت الذى لا يفتح بابه للفقير ، سيفتح الباب للطبيب .
- كل من لا يضطهد الذين يضطهدونه ، وكل من يقبل التعدى فى صمت ، وكل من يعمل الخير لأجل الحب ، وكل من يبتسم فى

شدته – أولئك هم أصدقاء الله ، وعنهم قالت التوراة أنهم سوف يلمعون يوم القيامة كالشمس في الضحى .

- الحاخام فيتيس بن جير Son Of Jair , Phines قال :" المعاناة تأتي بالطهارة ، وبالطهارة البراءة ، وبالبراءة القداسة . وبالقداسة الوداعة (التواضع) ، وبالوداعة الخوف من الذنوب ، وخوف الذنب من الروح القدس" .

السلوك الاجتماعي :

حملت التشريعات الاسرائيلية في التوراة آدابا وقواعد للتعامل مع الآخرين تؤسس السلوك الاجتماعي على أسس تربوية جيدة . صحيح أننا طوال الصفحات الماضية أوضحنا العديد من الصور السيئة، لكن هذا لا يمنع من الاعتراف بوجود قيم انسانية راقية لابد من الإشارة إليها .

- " إذا رعى انسان حقلا أو كرما وسرّح مواشيه فرعت في حقل غيره ، فمن أجود حقله وأجود كرمه يُعوض" .
- "ولا تضطهد الغريب ولا تضايقه لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر".
- "لاتسئ إلى أرملة ولا يتيم" (١٥٤) .
- "ابتعد عن كلام الكذب ، ولا تقتل البرئ والبار" .
- "ولا تأخذ رشوة لأن الرشوة تعمى المبصرين..."(١٥٥) .
- ".. ولا تبت أجرة أجير عندك إلى الغد" .
- ".. لا ترتكبوا جورا في القضاء لا في القياس ولا في الوزن ولا في الكيل".
- "..لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك، بل تحب قريبك كنفسك".
- "لا تسع في الوشاية بين شعبك" .
- "من أمام الأشيب تقوم ، و تحترم وجه الشيخ"(١٥٦).
- " لا تنظر ثور أخيك أو شاته شاردا وتتغاضى عنه ، بل ترده إلى أخيك لا محالة" .

- " لا يكن متاع رجل على امرأة ولا يلبس رجل ثوب امرأة لأن كل من يعمل ذلك مكروه لدى الرب إلهك[١٥٧]".
- " لا تظلم أجيراً مسكيناً وفقيراً من إخوتك أو من الغرباء الذين في أرضك في أبوابك في يومه تعطيه أجرته ولا تغرب عليها الشمس لأنه فقير وإليها حامل نفسه لئلا يصرخ عليك إلى الرب فتكون عليك خطيئة"[١٥٨].

ونجد في سفر الخروج تشدداً واضحاً في عدد من الذنوب مثل:

أ - ضرب الأم أو الأب .

ب- سرقة الإنسان .

ج- لعن الإنسان أحد والديه .

إذ يجئ النص :"من ضرب أباه أو أمه ... ومن سرق إنساناً ... ومن شتم أباه أو أمه يقتل قتلاً" [١٥٩].

وعلى الرغم مما نلمسه من مبالغة واضحة في العقوبة هنا إلا أن باحثاً يرى غير ذلك ، مستنداً إلى أن الوالدين "نائبا الله على الأرض، فضارب أحد الوالدين يعد متعدياً على الله ، ولعن أحدهما إستهانة بالله". وبالنسبة لسرقة الناس (السبي) ، فإن السابي يقرب من القاتل "لأنه يسلب من الإنسان حريته التي تتوقف عليها لذته بالحياة ". ويستشهد باحثنا بتاريخ يوسف بن يعقوب الذي يبين لنا كيف كان من السهل على الناس أن يجعلوا الحر عبداً أو يفصلوه عن أهله وأقربائه ويجعلوه غريباً ذليلا محتقراً [١٦٠].

وفي الإصحاح التاسع عشر من سفر اللاويين نجد - فضلا عما سبق - عدداً آخر من الوصايا التي كان يجب على بني اسرائيل أن يعملوا بها وهي خاصة بعلاقة الإنسان بغيره ، فمن ذلك "لا تشتم الأصم" ، فشتم الأصم كما يذهب المفسرون ، وهو الفاقد حسن السمع ، إنما هو "دناءة وشر وإثم" لأنه لا يسمع الشتم ولا يقدر أن يدفع عن نفسه . وقال علماؤهم : إذا كان شتم الأصم محظوراً فبالأولى أن يكون شتم الذي يسمع كذلك ، لأن هذا يغضب ويحزن دون ذلك [١٦١].

ومنها : "قدام الأعمى لا تجعل معثرة" ، فقد ذكرت التوراة فى مكان آخر : "ملعون من يضل الأعمى عن الطريق" . وشاع منذ القديم أن مساعدة العميان من الأعمال التى يجزى الله عليها خيراً ، ولهذا قال أيوب فى الكلام على ما قام به من الأعمال الطبية : للقريب كنت عيوناً للعمى .

لكن باحثين آخرين يلفتون النظر إلى أن مثل هذه الآداب والقواعد إنما تخص علاقة اليهودى باليهودى ، ويبرهنون على ذلك بما نجده فى (التلمود) من توجهات أخرى ، فغير اليهود فى نظر التلمود هم فى حكم الكلاب . بل إن الكلب أفضل منهم لأنه يباح لليهودى فى الأعياد أن يطعم الكلب وليس له أن يطعم الأجانب . بل إن الأمم الخارجة على دين اليهود ليسوا كلاباً فقط ، بل حميراً أيضا ، وفى ذلك قال الحاخام (ابرابانل) إن الشعب المختار هو وحده الذى يستحق الحياة الأبدية ، أما باقى الشعوب فمثلهم مثل الحمير[١٦٢].

وقد خلق الله غير اليهودى على هيئة الإنسان لكى يكونوا لائقين لخدمة اليهودى الذين خلقت الدنيا من أجلهم ، فإنه ليس من الملائم أن يقوم حيوان على خدمة الأمير وهو على صورته الحيوانية "فإذا مات مسيحى كان يقوم على خدمة أحد الهيود ، فلا يجوز أن يقدم العزاء فيه بصفته إنساناً، بل بصفته حيواناً مسخراً له[١٦٣].

كما أنه يحظر على اليهود تحية الكفار بالسلام ، ما لم يخشوا ضررهم أو عدوانهم . وقد أجاز بعض الرابيين النفاق بذلك ، وسمحوا لليهودى أن يكون مؤدباً مع الكافر وأن يتظاهر بمحبته إذا خشى أذاه . والكافر هو كل من خرج على اليهودية بطبيعة الحال.

والسرقة غير جائزة ، مهما تكن قيمة ما يسرق طفيفة ، إذا صدرت من غير اليهودى ومرتكبها يستحق الموت لأنه خالف ما أوصى الله به كما مر بنا . أما اليهود فمصرح لهم أن يسرقوا تنفيذا للوصية القائلة " لا تسرق مال القريب" التى رأى علماء التلمود أنها تنطوى ضمنا على إباحة السرقة من غير القريب ، أى من غير اليهودى . ويشمل ذلك أيضا العمل المأجور،

فإنه إذا كان قد حظر على اليهود أن يظلموا الشخص الذى يستأجرونه لعمل ما إذا كان يهودياً ، فإن لهم أ ن يفعلوا به ما يشاءون إذا كان غير يهودى . وهذه التعاليم الخاصة بالسرقة مطابقة لاعتقاد اليهود بأن الدنيا ملك لهم ومن حقهم التسلط عليها ، لأن سرقة غير اليهود فى هذه الحالة تخرج عن معنى السرقة وتصبح مجرد استرداد حق أخذ منهم . وفى هذا المعنى يحرص اليهود على الاستيلاء على أملاك غيرهم ممن ليسو يهوداً بأية وسيلة ، فإذا اشترك أثنان من اليهود فى سرقة أو غش أو نهب لأحد الأجانب ، فينبغى لهما اقتسام الغنيمة" (١٦٤).

والشفقة بالوثنيين (غير اليهود) ، ممنوعة ، فإذا رأى أحد اليهود وثنيا واقعاً فى نهر أو مهدد بخطر فمحظور عليه أن ينقذه ، لأن السبعة شعوب الذين كانوا فى أرض كنعان وأراد اليهود قتلهم لم يقتلوا عن آخرهم ، بل هرب بعضهم واختلط بباقى أمم الأرض . ومن المحتمل أن يكون أى أجنبى من نسل هؤلاء السبعة شعوب ، ولذا يتحتم على اليهوى قتل من يستطيع قتله منهم ، فإن لم يفعل يكون قد خالف الشرع (١٦٥).

وقد رصد أسعد رزق فصلا كاملاً تتبع فيه أثر التربية التلمودية على رواد الحركة الصهيونية فى العصر الحديث مما يؤكد ما سبق أن قلناه ، من أننا هنا لسنا بصدد (تربية قديمة) شغلت حيزاً زمنياً مضى وانقضى ، وإنما هى ، رغم قدمها ، مازالت تمارس فعلها ودورها فى العصر الحديث ، وهذا من شأنه أن يزيد من اهتمامنا بدراسة هذه التربية .

فمن الرعيل الأول نجد الربانى (يهوذا القالى) يدعو إلى الإكثار من الهجرة إلى فلسطين حتى يصل عدد اليهود إلى الحد الذى تنزل فيه (الحضرة الإلهية) وتحل على اليهود ، وهو فى هذا يستند إلى مناقشات الربانيين التى دارت حول مسألة الإكثار من النسل ، فالربانى (أليعازر ، يعلن بأن من يمتنع عن المشاركة فى تكثير العرق اليهودى ، مثله كمثل من يسفك الدماء . وهو يستشهد بسفر التكوين (الإصحاح التاسع): "سافك دم الإنسان بالإنسان

يسفك دمه، لأن الله على صورته عمل الإنسان ، فأثمروا أنتم وأكثروا وتوالدوا فى الأرض وتكاثروا فيها"[١٦٦].

ومما لا ريب فيه أن الربانى (زفى هيرش كاليشر) كان متبحرا فى التلمود، إلى جانب نزعاته الصوفية ، ففى المصادر اليهودية عنه نقرأ بأن دراسته الطويلة للتلمود هى التى أقنعته بأن الخلاص يحتاج إلى إعداد العدة ، وهذا لا يكون بمجرد مراعاة اليهود للفرائض والوصايا الدينية فى شفاتهم ، بل يتطلب تحقيق لجوء اليهود إلى النشاط الاستيطانى والاستعمار العملى فى فلسطين ، فسواء تحدث (كاليشر) عن "البداية الطبيعية للخلاص" ، أو عن "قداسة العمل فى الأرض" ، يبقى أثر التربية التلمودية واضحاً فى دعوته الصهيونية [١٦٧].

أما (موزس هس) فقد دعا لمحاربة الاندماج ، وهو ينظر إلى القومية اليهودية من الزاوية التالية [١٦٩]، :" إن ما أخفق اليهود فى الحصول عليه كأفراد يستطيع الشعب تحقيقه ، كأمة". ثم يستشهد بأقوال معينة من الآباء (الفصل الخامس ، المشنا الثالث عشر) ، لكى يندد بما يدعوه" الأخلاق البورجوازية" التى استنكرها الآباء أشد الاستنكار واعتبروها ملكاً شريراً . وإزاء أخلاقية البورجوازى الذى يريد الإستئثار بكل شئ فى عالم تسوده الأنانية ، نجد (هس) يلجأ إلى "قانون التضامن اليهودى" ، كما ورد فى التلمود " جميع الاسرائيليين مسؤولون عن بعض". كما يستحضر هيس صيغة الصلاة اليهودية فى "تقديس اسم الرب Kiddush Hashem) ، لكى يناشد اليهود كأفراد أن يضحوا بمصالحهم وأشخاصهم فى سبيل خير الآخرين ، ولتمجيد اسم اليهودية .

وعند (موشيه لايب ليلينبلوم) نجد التقوى التلمودية تتحول إلى (حب صهيون) والدعوة إلى تشجيع الإستعمار - اليهودى فى فلسطين . لكن صهيونية (ليلينبلوم) تريد الارتفاع عن شتى الفروق المذهبية بين اليهود ، فالكيان السياسى المنشود سوف يتسع لجميع الطوائف اليهودية : من المحافظين والمتشددين إلى الليبراليين والعلمانيين . والقداسة ليست وقفا على

الأرثوذكسيين (اليهود) وحدهم ، بل تحل على الجميع . لذا يحاول هذا التقى التلمودى مناشدة الفرقاء فى الدين الواحد أن يبتعدوا عن الخلافات ويوجهوا أفكارهم صوب وحدة الهدف [١٦٩].

وربما كان الشاعر الصهيونى (حاييم نخمان بياليك) ينفرد عن غيره من زعماء الحركة الصهيونية وروادها الأوائل فى ذلك الاهتمام الذى أولاه للتلمود ودوره التثقيفى فى الإحياء القومى الصهيونى لتراث الماضى .

وإن أحد البواعث التى حركت اهتمام بياليك بالحفاظ على "كنوز الأدب العبرى الكلاسيكى" هى الحاجة التى كان يشعرها فى تزويد الإحياء القومى الصهيونى بنوع من (التراث) الذى يشد اليهود المعاصرين إلى الماضى السحيق. فالحاجة إلى إحياء التلمود هى بمثابة شرط للإحياء القومى اليهودى على العموم . وقد أراد (بياليك) تقريب التلمود بشقيه : الحلقا والهّجادا (الشرعى والقصصى) من أذهان اليهود المعاصرين ، كما دعا إلى القيام بترجمات تلمودية تضع مادة هذا الأثر القومى فى متناول عامة الناس بين اليهود[١٧٠].

وقد نبه صبرى جرجس بحق إلى أن جانبا من صورة اليهودية الصهيونية كما يعرضها أصحابها فى دنيا العرب لم تحظ دراستها فى العالم العربى بما ينبغى لها من اهتمام ، ذلك هو الجانب الذى تعرض به اليهودية الصهيونية نفسها : تاريخها وعقائدها وآدابها وقيمها الحضارية كلها للعقل الغربى، تعرضها فى مظهر له بريق وسحر يخفيان ما تحته من باطل وزيف. فى هذه الصورة تجترئ اليهودية الصهيونية إلى غير ما حد على حقائق الماضى والحاضر ، كما تنطلق إلى غير ما حد أيضا إلى أحلام المستقبل . فى هذه الصورة تعرض اليهودية الصهيونية أمل الخلاص لهذا العالم الذى يوشك بابتعاده عنها أن يتردى فى هاوية سحيقة . ومثل هذه المنشورات تظهر فى عالم الغرب بالعشرات والمئات [١٧١].

إن اليهودية الصهيونية تكتب للعقل الأوربى لكى تقول له بأسلوب لا مثيل لإلتوائه وخبثه أنها صاحبة الفضل على حضارته وإنها الأصل فى القيم الخلقية التى يقيم حياته عليها ، وإن كل ما حققه من قيم ديمقراطية واستقرار أسرى وما استقر فى وجدانه من معانى الرحمة والمودة والتعاطف والتسامح والبذل فى العلاقات بين الناس إنما مرجعه إليها والفضل فيه لها [١٧٢].

وقد عرض د. صبرى جرجس مثالاً لذلك كتاباً (لترود فايس -روز مارين) باسم (البقاء اليهودى Weiss- Rosmarin, JT.:Jewish Survival) الذى صدر عام ١٩٤٩ .

ومن نماذج ما جاء بهذا الكتاب خاصاً بالأخلاقيات اليهودية ما تقوله الكاتبة من أنها - هذه الأخلاقيات - هى أولا وأخيرا التشبه بالكمال الخلقى لإله الحق الذى يبغض الخداع والخروج على الحق ، ومن هنا ، فإن القانون الخلقى يأمر بالصدق فى إلحاح صارم ويحرم الكذب تحريماً باتاً لأنه يرى فى الكذب ، إنكاراً لله ولأن الضرر الناتج عن الكذب قد لا يمكن تعويضه ، بينما قد يتعذر تعويض الضرر الناتج عن الغش والخداع فى أمور المال[١٧٣].

وفى نفس الإتجاه تقرر الكاتبة أن اليهودية تحرم الغش وتعده جريمة كالقتل ، وتجعل من النزاهة والأمانة فى التبادل التجارى مقياساً للتقوى . وترى أن غش غير اليهودى أكثر مدعاة للرفض من غش اليهودى لأنه ينال من شرف اليهودى ، ومن ثم فإن القول بأن اليهودية توافق على غش غير اليهودى " ليس إلا أكذوبة دعائية شريرة عن صنع الاتجاهات المعادية للسامية"[١٧٥].

ولو راجع القارى ما جاء بالتلمود فسوف يجد أنه هو الذى قال هذا الذى تدعيه الكاتبة "من صنع اتجاهات المعادية للسامية" !

الهوامش

١- التراث اليهودى الصهيونى ، ص ١٨٨ .

٢- المرجع السابق ، ص ١١٩ .

٣- (مولك) هو معبود كنعانى . وكان من طقوس الكنعانيين نذر أبنائهم ليحرقوهم له قربانا .

٤- محمد عزة دروزة : تاريخ بنى اسرائيل من أسفارهم ، ص ٨٨ .

٥- الإصحاح الخامس والعشرون .

٦- التراث اليهودى الصهيونى ، ص ٥٤ .

٧- سفر التكوين ، الإصحاح / ٢٨ .

٨- سفر الخروج ، الإصحاح الثانى .

٩- سفر الخروج , الإصحاح ٣٢ .

١٠- سفر الخروج ، الإصحاح نفسه .

١١- المرجع السابق .

١٢- المرجع السابق .

١٣- سفر الخروج ، الإصحاح ١٥ .

١٤- سفر الخروج ، الإصحاح الخامس .

١٥- سفر الخروج ، الإصحاح ١٥ .

١٦- سفر الخروج ، الإصحاح ١٢ .

١٧- سفر الخروج ، الإصحاح الثالث .

١٨- أحمد عبد الغفور عطار : الديانات والعقائد في مختلف العصور ، د.ن ، مكة المكرمة ط١ ، ج٢ ، ص ٢١٦ .

١٩- سفر صموئيل الثانى ، الإصحاح ١٢ .

٢٠- سفر التكوين ، الإصحاح ١٢ .

٢١- سفر التكوين ، الإصحاح ٢٠ .

٢٢- سفر التكوين ، الإصحاح ٢٦ .

٢٣- أحمد عبد الغفور عطار ، ص ٢٧٢ .

٢٤- المرجع السابق . ص ٢٧٣ .

٢٥- سفر التكوين ، الإصحاح ٢٧ .

٢٦- أحمد عبد الغفور عطار ، ص ٢٨٣ .

٢٧- لوبون ، ص ٤٧ .

٢٨- سفر يشوع ، الإصحاح السادس .

٢٩- سفر الملوك ، الإصحاح ٢٠ .

٣٠- سفر أخبار الأيام الثانى ، الإصحاح ٢٥ .

٣١- سفر الملوك الأول ، الإصحاح الثانى .

٣٢- سفر أخبار الأيام الثانى ، الإصحاح ٢١ .

٣٣- سفر الملوك الأول ، الإصحاح ٢١ .

٣٤- لوبون ، ص ٧٠ .

٣٥- التلمود ، شريعة اسرائيل ، ٤٠ .

٣٦- المرجع السابق . ص ٤٢ .

٣٧- صبرى جرجس ، ص ٦٩ .

٣٨- سفر العدد ، الإصحاح ، ٣١ .

٣٩- المرجع السابق نفسه .

٤٠- المرجع السابق نفسه .

٤١- سفر التثنية / الإصحاح / ٢٠ .

٤٢- سفر الخروج ، الإصحاح ١٤ .

٤٣- سفر التثنية ، الإصحاح الأول .

٤٤- زكى شنودة : المجتمع اليهودى ، ص ٣٥٩ .

٤٥- سفر التكوين الإصحاح ٣٤ .

٤٦- صبرى جرجس ، ص ٦٤ .

٤٧- عن : زكى شنودة ، ص ص ٦٣٢ - ٣٦٣ .

٤٨- المرجع السابق ، ص ٣٦٥ .

٤٩- سفر التكوين ، الإصحاح ١٢ .

٥٠- أصول الصهيونية فى الدين اليهودى ، ص ١٤ .

٥١- المرجع السابق ، ص ١٥ .

٥٢- المرجع السابق . ص ١٦ .

٥٣- سفر التثنية ، الإصحاح (٩) .

٥٤- أسعد رزوق ، الصهيونية والتلمود ، ص ٢٠١ .

٥٥- المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

٥٦- المرجع السابق . ص ٢٦٠ .

٥٧- المرجع السابق . ص ٢٦١ .

٥٨- المرجع السابق . ص ٢٦٥ .

٥٩- سفر إشعيا ، الإصحاح (٦٠) .

٦٠- سفر الخروج ، الإصحاح (١٩) .

٦١- رشاد عبد الله الشامى : الوصايا العشر فى اليهودية ، دار الزهراء، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ص ٧٧ .

٦٢- المرجع السابق ، ص ٨٠ .

٦٣- المرجع السابق ، ص ٨١ .

٦٤- سفر الخروج ، الإصحاح (٢٠) .

٦٥- رشاد عبد الله الشامى ، ص ١٣٦ .

٦٦- سفر الخروج ، الإصحاح (٢٠) .

٦٧- ديورانت ، قصة الحضارة م١ ،ج١ ، ص ٣٧٢ .

٦٨- سفر الخروج ، الإصحاح (٢٠) .

٦٩- رشاد عبد الله الشامى ، ص ١٦٧ .

٧٠- سفر الخروج ، الإصحاح (٢٠) .

٧١- الشامى ، ص ١٧٥ .

٧٢- المرجع السابق . ص ١٧٧ .

٧٣- المرجع السابق . ص ١٨٠ .

٧٤- المرجع السابق . ص ٢٠٧ .

٧٥- المرجع السابق . ص ٢٠٨ .

٧٦- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٣٧٧ .

٧٧- الشامى ، ص ٢٣٥ .

٧٨- المرجع السابق . ص ٢٣٧ .

٧٩- سفر اللاويين ، الإصحاح (١٩) .

٨٠- قصة الحضارة ، م١ ، ٢ ، ص ٣٧٧ .

٨١- الشامى ، ص ٢٥٨ .

٨٢- ديورانت ، ص ٣٨١ .

٨٣- سفر الخروج ، الإصحاح (٢٠) .

٨٤- المرجع السابق نفسه .

٨٥- ديورانت ، ص ٣٨٤ .

٨٦- الشامى ، ص ٢٧٢ .

٨٧- سفر اللاويين ، اصحاح (١٩) .

٨٨- المرجع السابق ، الإصحاح (٢٠) .

٨٩- سفر التثنية ، الإصحاح (٢٢) .

٩٠- سفر التكوين ، الإصحاح (٢٠) .

٩١- صبرى جرجس ، ص ٦٥ .

٩٢- سفر التكوين ، الإصحاحات ٢٠ ، ١٢ على التوالى .

٩٣- سفر التكوين ، الإصحاح ١٩ .

٩٤- سفر التكوين ، الإصحاح ٣٥ .

٩٥- سفر التكوين ، الإصحاح ٣٨ .

٩٦- سفر صموئيل الثانى ، الإصحاح ١١ .

٩٧- سفر صموئيل الثانى ، الإصحاح ١٣ .

٩٨- سفر هوشع ، الأصحاح (١) .

٩٩- كامل سعفان : دراسة فى التوراة والإنجيل ، ص ص ١١١ - ١١٢.

١٠٠- صبرى جرجس ، ص ٦٥ .

١٠١- سفر نشيد الأنشاد / الإصحاح الثانى .

١٠٢- المرجع السابق ، الإصحاح الرابع .

١٠٣- الإصحاح السابق .

١٠٤- قصة الحضارة ، م١ ، ج١ ، ص ٣٨٨ .

١٠٥- صبرى جرجس ، ص ٦٦ .

١٠٦- اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ، ص ٧٨ .

١٠٧- المرجع السابق ، ص ٧٩ .

١٠٨- قصة الحضارة ، م١ ، ج ٢ ، ص ٣٨٦ .

١٠٩- كامل سعفان : دراسة فى التوراة والانجيل ، ص ١٤٩ .

١١٠- نشيد الأنشاد ، الإصحاح الثالث .

١١١- دراسة فى التوراة والانجيل ، ص ١٥٠ .

١١٢- نشيد الأنشاد ، الإصحاح الثامن .

١١٣- كامل سعفان ، دراسة فى التواة والانجيل ، ص ١٥٣ .

١١٤- نشيد الأنشاد ، الإصحاح الخامس .

١١٥- ظفر الإسلام خان : التلمود ، تاريخه وتعاليمه ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٥٧ .

١١٦- المرجع السابق . ص ٥٨ .

١١٧- قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص١١٧ .

١١٨- سفر أيوب ، الإصحاح الأول ، والإصحاح العاشر .

١١٩- سفر أيوب ، الإصحاح الثانى عشر .

١٢٠- سفر أيوب ، الإصحاح الرابع عشر .

١٢١- سفر إشعياء ، الإصحاح (٢٤) .

١٢٢- أحمد عبد الغفور عطار : الديانات والعقائد فى مختلف العصور ، ج٢ ، ص ٢٤٣ .

١٢٣- سفر دانيال ، الإصحاح (١٢) .

١٢٤- سفر أيوب ، الإصحاح (٣٨) .

١٢٥- الحقوْ : الخَصْر . حقوا الشئ : جانباه .

١٢٦- الخيط الذى يُمد على البناء فيُبنى عليه .

١٢٧- سفر الجامعة ، الإصحاح السابع .

١٢٨- اللج : معظم الماء حيث لا يدرك قعره .

١٢٩- سفر أيوب ، الإصحاح (٤٢) .

١٣٠- سفر الجامعة ، الإصحاح السابع .
١٣١- سفر الجامعة ، الإصحاح الرابع .
١٣٢- سفر الجامعة ، الإصحاح الخامس .
١٣٣- قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٣٩٤ .
١٣٤- سفر الجامعة ، الإصحاح التاسع .
١٣٥- سفر الجامعة ، الإصحاح الأول .
١٣٦- سفر الجامعة ، الإصحاح الثانى .
١٣٧- سفر الجامعة ، الإصحاح الرابع .
١٣٨- سفر الجامعة ، الإصحاح السابع .
١٣٩- سفر الجامعة ، الإصحاح الثانى .
١٤٠- قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٢٩٧ .
١٤١- سفر الجامعة ، الإصحاح الثالث .
١٤٢- جوستاف لوبون ، ص ٨٣ .
١٤٣- المرجع السابق . ص ٨٦ .
١٤٤- فؤاد حسنين على : التوارة الهيروغليفية ، ص ١٤٠ .
١٤٥- المرجع السابق . ص ١٤١ .
١٤٦- المرجع السابق . ص ١٤٣ .
١٤٧- جوستاف لوبون ، ص ٨٧ .
١٤٨- قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٣٨٦ .

١٤٩- المزامير ، المزمور (١٠٣).

١٥٠- قصة الحضارة ، ص ٣٨٧ .

١٥١- التوراة الهيروغليفية ، ص ١٧٠ .

١٥٢- المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

١٥٣- ظفر الإسلام خان ، ص ص ٨٦ - ٨٨ .

١٥٤- خروج / ٢٢ .

١٥٥- خروج / ٢٣ .

١٥٦- اللاويين / ١٩ .

١٥٧- تثنية / ٢٢ .

١٥٨- تثنية / ٢٤ .

١٥٩- خروج / ٢١ .

١٦٠- القمص صليب سوريال : دراسات فى أسفار موسى الخمسة ، ص ٢٢١ .

١٦١- المرجع السابق . ص ٣٣٠ .

١٦٢- صبرى جرجس ، ص ٩٥ .

١٦٣- المرجع السابق . ص ٩٦ .

١٦٤- المرجع السابق . ص ٩٧ .

١٦٥- المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

١٦٦- أسعد رزوق : التلمود والصهيونية ، ص ٢١٢ .

١٦٧- المرجع السابق . ص ٢١٤ .

١٦٨- المرجع السابق . ص ٢١٧ .

١٦٩- المرجع السابق . ص ٢٢٠ .

١٧٠- المرجع السابق . ص ٢٢٨ .

١٧١- صبرى جرجس ، ص ١١٢ .

١٧٢- المرجع السابق . ص ١١٣ .

١٧٣- المرجع السابق . ص ١٣٦ .

١٧٤- المرجع السابق . ص ١٣٧ .

الفصل الخامس

وسائط التربية اليهودية

إذا كنا نتناول التربية فى تاريخ التربية بمعناها العمومى الشامل، فلابد أن تتعدد وسائطها بحيث لا تقتصر على المؤسسة النظامية . وتزداد الحاجة هنا إلى بسط الحديث فى وسائط متعددة للتربية اليهودية نظراً لأن شطراً كبيراً من تاريخهم القديم لم يعيشوه فى كنف (دولة).

الأسرة :

تجئ الأسرة فى مقدمة وسائط التربية عند بنى اسرائيل ، ذلك أنها كانت هى والقبيلة ، المؤسسة الاجتماعية الأساسية المسئولة عن نقل تراث الجماعة وخبراتها إلى النشء . وقد ظهرت مؤسسة الأسرة تاريخيا قبل المؤسسة الدينية ، وتمت عملية نقل التراث عن طريق مشاركة الصغار فى مناشط الحياة اليومية والطقوس الدينية . ويبدو أن الروابط الأسرية بين القبائل الإسرائيلية كانت من القوة لدرجة أنها احتوت (يهوه) نفسه ، الذى كان الإسرائيليون ينظرون إليه على أنه أبو الشعب وهم أولاده الذين يدينون له بالولاء والطاعة الكاملة [١] .

وهكذا كانت الأسرة هى النواة الحقيقية للحياة الاجتماعية العبرية ، وذلك إلى حد أبعد مما كانت عليه الحال فى المجتمع البدوى القديم [٢] .

وقد بدأ الوجود اليهودى بأسرة جدهم الأول إبراهيم ، ثم ابنه إسحق، ثم حفيده يعقوب الذى أصبح اسمه اسرائيل . وكان لإسرائيل أثنى عشر ولداً، فأصبح لكل ولد منهم أسرة ، كانت قليلة العدد فى البداية ثم لم يلبث أن تزايد

عددها مع الأيام حتى أصبحت قبيلة ، أو بالتعبير العبرى ، أصبحت "سبطا"[٣] .

ولقد كانت الأسرة العبرانية الأبوية نظاماً اقتصادياً وسياسياً ضخماً يتألف من أكبر رجل متزوج فيها ، ومن أزواجه ، وأبنائه غير المتزوجين ، وأبنائه المتزوجين ، وأزواجهم وأبنائهم ، ومن عبيدهم إن كان لهم عبيد . وكان الأساس الاقتصادى الذى تقوم عليه هذه الجماعة هو قدرتها على زراعة الأرض ، أما قيمتها السياسية فتنحصر فى أنها كانت تهيئ للبلد نظاماً اجتماعياً بلغ من القوة حداً تكاد الدولة أن تصبح معه لا ضرورة لها إلا فى زمن الحرب . وكان للأب على أفراد أسرته سلطاناً لا يكاد يحد ، فكانت الأرض ملكاً له ، ولم يكن فى وسع أبنائه أن يبقوا على قيد الحياة إلا إذا أطاعوا أمره ، فقد كان هو الدولة . وكان فى وسعه إن كان فقيراً أن يبيع ابنته قبل أن تبلغ الحلم لتكون جارية ، كما كان له الحق المطلق فى أن يزوجها بمن يشاء وإن كان فى بعض الأحيان ينزل عن بعض حقه فيطلب إليها (أن ترضى بهذا الزواج)[٤] وكان للأب أن يقدم أولاده قرباناً للرب إذا شاء ويمتد هذا الحق إلى كل من يعيش فى كنف الأب ، فله أن يحرق زوجة ابنه المتوفى إذا زنت[٥].

أما المرأة ففى مكانة دنيا انزلقت إلى مستوى الماشية والأشياء ، فهى جزء من البيت الإسرائيلى ، كما كانت جزءاً من (الفاميليا) الرومانية أى من التركة المكونة من العبيد والأموال ، فالبيت عند بنى اسرائيل يشمل المرأة والعبد والأمة والثور والحمار والأشياء الأخرى . والرجل يسمى (بعل) المرأة ، أى سيدها ، وهى تخاطبه بعبارة (سيدى) ، والفرحة بمولد الإبن أعظم منها عند مولد البنت[٦].

وكان الرجل يدفع ثمن المرأة التى يشتريها إلى أبيها ، فتصبح ملكاً له ، وكان الإسم الذى يطلقه العبرانيون على الزوجة وهو "بولة" يعنى "المملوكة" وقد اشترى يعقوب زوجة راحيل ولئية من أبيهما لابان ، وقد أخذ الثمن لنفسه فقالتا ناحبتين :"باعنا وقد أكل أيضا ثمننا"[٧] ، واشترى بوعز زوجته

راعوث قائلا لشيوخ مدينته "راعوث الموآبية امرأة محلون قد اشتريتها لي امرأة[٨]" واشترى هو شع النبي زوجته بالثمن قائلاً " فاشتريتها لنفسي بخمسة عشر شاقل فضة وبحومر ولثك شعير[٩]" . وكان يسمون هذا الثمن في بعض الأحيان مهراً .

واعتبر الزواج عند بني اسرائيل على درجة من الأهمية إلى الحد الذى اعتبروا فيه بقاء اليهودى أو اليهودية في العزوبة أمراً منافيا للدين . ذكر "جان دى بولى " في ترجمته لمواد التشريع المدني والجنائي في الفقه اليهودى ، في المادة ٣٩٣ ، أن كل يهودى يجب عليه أن يتزوج ، وأن الذين يبقون عزابا يتسببون في أن يتخلى الله عن شعبه اسرائيل . وجاء في كتاب الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية للإسرائيليين " ، تأليف(م.جاى بن شمعون) ، المادة١٦ : الزواج فرض على كل اسرائيلي" [١٠].

وفي سفر الأمثال نجد صورة للمرأة اليهودية المثالية التي يتمنى الرجل أن تكون زوجة له ، يقول [١١] ، "امرأة فاضلة من يجدها لأن ثمنها يفوق اللآلئ ، بها يثق قلب زوجها فلا يحتاج إلى غنيمة ، تصنع له خيراً لا شراً كل أيام حياتها . تطلب صوفا وكتاناً ، وتشتغل بيدين راضيتين ، هي كسفن التاجر تجلب طعاماً من بعيد ، وتقوم إذا الليل بعد ، وتعطى أكلا لأهل بيتها وفريضة لفتياتها . تتأمل حقلا فتأخذه وبثمر يديها تغرس كرما. تنطق حقويها (جانباها) بالقوة وتشدد زراعيها . تشعر أن تجارتها جيدة . سراجها لا ينطفئ في الليل . تمد يديها إلى المغزل وتمسك كفاها بالفلكة . تبسط كفيها للفقير وتمد يديها إلى المسكين . لا تخشى على بيتها من الثلج لأن كل أهل بيتها لابسون حللاً . تعمل لنفسها موشيات ، لبسها البز (في طبعة أخرى "البوص") ، وأرجوان . زوجها معروف في الأبواب حين يجلس بين مشايخ الأرض . تصنع قمصانا وتبيعها ، وتعرض مناطق على الكنعاني . العز والبهاء لباسها ، وتضحك على الزمن الآتي . تفتح فمها بالحكمة وفي لسانها سنة المعروف . تراقب طرق أهل بيتها ولا تأكل خبز الكسل. يقوم أولادها ويطربونها (في طبعة أخرى " ويطوبونها") ويقوم زوجها أيضا فيمدحها . بنات كثيرات عملن فضلا ، أما أنت ففقت عليهن جميعا . الحسن غش

والجمال باطل ، أما المرأة المتقية الرب ، فهي تمدح . أعطوها من ثمر يديها، ولتمدحا أعمالها في الأبواب" .

وفي العهد الأول كان الزواج من غير الإسرائيليين محرماً ، ويقول (دي بول) في المادة ٣٩٦ إن الزواج المعقود بين يهودي وكافرة (غير يهودية) أو العكس باطل ، والحياة الزوجية القائمة بينهما تعتبر فجوراً وزناً مستمرين ، والأولاد الذين يولدون من هذه المعاشرة المرذولة يعتبرون أبناء زناً . ونجد (ابن شمعون) لا يكتفي بوحدة الدين بين الزوجين ، بل ينص أيضا على وحدة المذهب ، فيقول في المادة ١٧ " الدين والمذهب شرط لصحة العقد ، فإذا كان أحد الإثنين من غير الدين أو من مذهب آخر فلا يجوز العقد بيهما وإلا كان باطلا" . ويضيف في المادة ١٨ أنه "يصح أن يعقد بين اثنين كان أحدهما أجنبيا ، ثم اعتنق الدين أو المذهب اعتناقا شرعيا"[١٢].

ولم تكن هناك محارم من جهة الأب ، فكان يجوز الزواج بالعمة وابنة الأخ بل والأخت لأب ، فقد تزوج " عمرام" عمته (يوكابد) وولدت له هارون وموسى ، وتزوج (ناحور) ابنة أخيه (هاران) . ويقول (إبراهيم) عن امرأته سارة : " وبالحقيقة أيضا هي أختي ابنة أبي . غير أنها ليست ابنة أمي ، فصارت لي زوجة" [١٣]. وحينما هام (أمنون) ابن داود في حب (ثامار) أخت أخيه (أبشالوم) ، استمهلته واقترحت عرض الأمر على الملك فهو لن يعارض في زواجها[١٤].

وإذا كان الرجل ثرياً ، أبيح له أن يتزوج بأكثر من واحدة ، وإذا كانت الزوجة عاقراً ، مثل سارة ، أشارت على زوجها بأن يتخذ له خليلة . وكان الهدف الذي ترمي إليه هذه السنن هو تكثير النسل . وكان طبيعياً لديهم أن تقدم راحيل ولئية خادماتهما إلى يعقوب بعد أن ولدتا له كل ما تستطيعان أن تلدا من الأبناء ، لكي يلدن له هن أيضا أبناء. ولم يكن يسمح للمرأة بأن تظل عقيما ، ومن أجل ذلك فإن الأخ إذا مات أخوه كان يحتم عليه أن يتزوج أرملته مهما كان عدد زوجاته ، فإذا لم يكن للميت أخ ، فرض هذا الواجب على أقرب الأحياء من أسرته . ولما كانت الملكية الفردية أساس النظام

الاقتصادى اليهودى فقد كان لكل من الرجل والمرأة معيار خلقى خاص ، فللرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة ، أما المرأة فكانت تختص برجل واحد . وكان معنى الزنى عندهم اتصال رجل بامرأة ابتاعها رجل آخر بماله ، ومن أجل ذلك كان اتصاله بها اعتداء على قانون الملكية تعاقب عليه المرأة والرجل بالإعدام . وكان الفسق محرماً على المرأة غير المتزوجة ، أما الرجل غير المتزوج فقد كان عمله هذا ذنبا لا يغتفر له . وكان الطلاق مباحاً للرجل(١٥).

وكانت الزوجة هى التى ترعى شئون الأبناء وشئون المنزل عموماً، فكانت تهيئ الطعام ، وتطحن الغلال ، وتجلب الماء من البئر ، وتغزل الصوف ، وتصنع الثياب ، كما كانت ترعى الماشية ، وكانت تستقبل الضيوف فى البيت ، وتغنى وترقص فى الاحتفالات ، وقد تحدثت التوراة عن نساء يهوديات ذوات اقتدار ، منهن مريم أخت موسى التى كانت نبية ، ومنهن المرأة التى اشتركت فى الحرب واستطاعت أن تقتل قائد الأعداء ، و(دبورة) التى كانت قاضية لليهود ، كما اشتغلت كثيرات من النساء بالسحر على الرغم من أن الشريعة كانت تقضى بموت الساحرة(١٦) .

كذلك تهتم الشريعة اليهودية بالأبن البكر ، وكانت فى عهدها القديم تجعله خليفة لأبيه فى كل شئ ، يستولى على السلطة من بعده ، ويكون هو المتصرف فى كل ثروته . وكثيراً ما كانت المنافسات تشتعل بين الإخوة الصغار وأخيهم الأكبر البكر بسبب هذا . كذلك كانت تحدث مؤامرت ومغالطات حول انتزاع هذا الحق والاستيلاء عليه . وقصة يعقوب وتآمره مع أمه رفقة على انتزاع هذا الحق الذى كان لأخيه عيسو من أبيهما إسحق عندما شاخ وفقد بصره مشهورة ومذكورة بتفاصيلها فى الإصحاح(٧٢) من سفر التكوين ، فى التوراة(١٧).

وقد حددت ظروف البيئة الاجتماعية والاقتصادية نوعية التربية التى يتلقاها الصغار ، فحينما كانت البيئة رعوية ، تعلم الصغار كيف يصبحون رعاة . وبعد أن استقر العبرانيون فى فلسطين وتحولوا إلى حياة الاستقرار

والزراعة ، أصبح من الضرورى تعليم الصغار مهنة الآباء ، ومن ثم تم تدريبهم على الزراعة وتربية المواشى والصيد والتعدين والبناء والتجارة وصنع الأدوات الخشبية والمعدنية والغزل والنسيج وعمل الخيام وصناعة الفخار . كما تم تدريب الفتيات فى شئون المنزل على أيدى أمهاتهن [١٨].

وإلى أن قامت مملكة بنى اسرائيل وأسست جيشاً منظماً وخاصة فى عهد الملك داود ، حرصت الأسرة أن تربى أبناءها الصغار على كيفية استخدام الأدوات الحربية المعروفة فى ذلك الوقت ، ذلك أن الحروب التى استمرت بين بنى اسرائيل وغيرهم من القبائل والجماعات الأخرى ، فى فترة تغلغلهم فى كنعان واستقرارهم فيها حتمت تدريب النشء على القتال ، ومن هنا فقد تعلم هؤلاء كيفية استخدام المقلاع والرمح والسيف والدرع . وقد عرفت بعض القبائل بتخصصها فى استخدام السيف والمقلاع ، بينما اشتهرت قبيلة يهودا بمهارتها فى استخدام الرمح . وربما يكون الملك داود استعان بقدرات هذه القبائل فى تكوين الجيش النظامى الذى كونه بعد ذلك[١٩].

وإذا كانت الشريعة اليهودية قد اهتمت اهتماماً ملحوظاً بمسألة النجاسة والطهارة فى عادات الملبس والمأكل فقد كانت الأسرة هى البيئة الأساسية لبث المفاهيم والاعتقادات الخاصة بذلك ، والتدريب العملى عليها.

كذلك اهتمت هذه الشريعة بالنظافة التى هى من مظاهر الطهارة ، ومن ثم حرصت الأسرة على تعليم صغارها غسل أجسادهم وثيابهم وكل مقتضياتهم فى كل وقت وفى كل مناسبة ، فكان واجباً محتماً على اليهودى أن يغسل جسمه وثيابه على الفور إذا مس أى شئ تعتبره الشريعة رجساً ، أو تم شفاؤه من مرض من الأمراض الدنسة ، كالبرص . كما كان على الأسرة أن تعود أبناءها بمجرد أن يعودوا من السفر أو السوق أن يفعلوا ذلك أيضا . وكان واجبا عليهم أن يغسلوا أيديهم قبل الأكل وبعده[٢٠].

ويعلق زكى شنوده على ذلك بقولة أنه يا ليت عناية اليهود بنظافة أجسامهم من الخارج أو إلى العناية بنظافة نفوسهم وأرواحهم من الداخل ،

ولكن هذا لم يحدث لهم طوال تاريخهم وإنما ظلوا كما قال عنهم السيد المسيح يشبهون "القبور المبيضة التى تبدو من الخارج جميلة ؛ فى حين أنها من الداخل ممتلئة عظام أموات وكل نجاسة"، حسب تعبير إنجيل متى (٢٧:٢٣)[٢١].

وقد سبق لنا أن أشرنا إلى الوصية الخامسة من الوصايا العشر التى تحث الابن اليهودى على إكرام أبيه وأمه ، وتعددت صيغ مختلفة لمثل هذه الوصية "ومن ضرب أباه وأمه يقتل قتلاً [٢٢]" ، وأيضا " "وكل إنسان سب أباه أو أمه فإنه يقتل . قد سب أباه أو أمه . دمه عليه"[٢٣].

و"ملعون من يستخف بأبيه أو أمه"[٢٤] .

ويقول التلمود الأورشليمى عن وصية إكرام الأب والأم أنها سداد دين "قال ربى أبين : إن مسألة سداد الدين واردة فى نص الوصية ، وهى "لكى تطول أيامك وتصيب خيراً فى الأرض". وقال ربى ليفى" عظيم هو الأمر الذى ينطوى على سداد الدين أكثر من الذى هو ليس بسداد الدين ". واحترام الأب والأم هو سداد دين ، لأنه "كل ما يفعله لأبيه ولأمه ليس إلا سداداً لدين لأنهم راعوه على أحسن ما يكون فى ولادته وتربيته وتعليمه"[٢٥].

والوصية بصيغتها التى تتضمن الجزاء الذى ينطوى على طاعتهما، تعتبر الوصية الوحيدة التى تتضمن هذا الجزاء عن سائر الوصايا العشر ، ومعنى هذا أن من يحترم أباه وأمه حتى شيخوختهما ، ويهتم بكل ما ينقصهما ويمنع عنهما كل ما يسئ إليهما ، فإنه بأعماله هذه يطيل أيامه ، وهو بهذه الأعمال يكون قدوة لأبنائه وتعليمهم كيف يتصرفون بهذه الطريقة ، وبذلك تطول أيامه وقد كتب ربى يوسف بيخور شور "إذا تمسكت بهذه الوصية سيحترمك أبناؤك ويساندونك فى وقت الشيخوخة ، فلا تموت فى غير أوانك"[٢٦].

وقدر للأسرة الإسرائيلية أن تلعب دوراً رئيسياً فى نقل مبادىء الدين والتقاليد القوية ، فالتوراة تجعل تعليم الشريعة فريضة دينية على الأب أن يقوم بها ووظيفة يضطلع بها "فلتكن هذه الكلمات التى أنا آمرك بها اليوم فى

قلبك وكررها على أولادك وكلمهم بها إذا جلست فى بيتك وإذا مشيت فى الطريق وإذا نمت أو قمت"(٢٧). وفى عدة مواضع أخرى يكرر العهد القديم هذا الأمر على الآباء ويأمر الأطفال فى المقابل بإجلال واحترام آبائهم كما مر بنا .

كما استخدم سرد التاريخ وسيلة لتلقين الجيل الجديد تاريخ بنى اسرائيل فى أثناء تجوالهم واستقرارهم فى كنعان ، فالتقاليد والأساطير والأغانى والقصص نقلت شفهياً من جيل إلى جيل قبل أن تدون . وقد قام بهذه المهنة منشدون متجولون ، وكان لهذه الأقاصيص جاذبية خاصة لأن بعضها كان يقص حكايات غزل وزواج وإنجازات الأجداد، كما أن بعضها كان يرمى إلى إعطاء إجابة للأسئلة التى يثيرها العقل الإنسانى بخصوص أصل الإنسان والعالم الذى يعيش فيه ، وبخصوص الإختلاف بين الأجناس واللغات . وكان الأب يقوم بسرد تاريخ قبيلته لطفله ، فالقبيلة بالنسبة لهم كانت كياناً مقدساً ، وبهذه الطريقة المتميزة تم تناقل الأفكار والمعتقدات و التصورات والأوهام من جيل إلى جيل .

وقد كان هذا التراث الشفهى من قصص وأغانى وحكم يسرد إما للترفيه أو التنوير أو إذ كاء العصبية القومية أو بث الإيمان الصحيح والحث على العلم الصالح(٢٨).

وهناك واجبات من المفروض أن يلتزم بها الأب تجاه ابنه ، وقد حصرها علماء اليهود فى البنود التالية" (٢٩).

١- ختانه فى اليوم الثامن من عمره .
٢- الإغداق عليه بالغذاء والكساء بلا تقتير.
٣- تعليمه الأدب والدين كما أنزل فى التوارة .
٤- تعليمه اللغة والكتابة العبرية .
٥- تعليمه مهنة يتعيش منها .
٦- تعليمه الرياضة.
٧- انتقاء زوجة مناسبة له تصونه من الفساد .

٨- إن كان البكرى فله مزيد من الإرث .
٩- فدو البكرى .

الأنبياء:

خلافاً للديانتين السماويتين الأخريين : المسيحية والإسلام ، حيث عرف لكل منهما رسول ونبى واحد ، فإن اليهودية عرفت العديد من الأنبياء الذين كان لهم دورهم فى تشكيل وتربية وتوجيه وإرشاد بنى اسرائيل.

والنبى: لغة قيل المنبأ المأخوذ من النبأ ، أى الخبر المفيد لما له شأنه ، ويصح فيه معنى الفاعل والمفعول لأنه منبئ عن الله ومنبأ عنه ، وإن كان الإمام ابن تيمية يفضل أن يكون بمعنى مفعول ، فإنه إذا أنبأه الله ، فهو نبى الله ، والنبى بالتشديد أكثر استعمالا ، أبدلت الهمزة فيه ياء ، لأنه من أنبأ عن الله فهو ينبئ عنه ، والأسم منه منبئ ، أو هو من النبوة وهى الرفعة والشرف[٣٠].

ويرى فى تعضيد ما ذهب إليه أن أصل صيغة الفعل التى تناسب كلمة "نبى" لم توجد فى اللغة العبرية القديمة ، وهذا عكس ما ذهب إليه باحثون آخرون من اليهود خاصة [٣١].

أما العقاد فيرى أن كلمة النبى عربية لفظة ومعنى ، فمن حيث اللفظ لأن مادة "النبأ" و "النبوءة" أصيلة فى اللغة ، ومن حيث المعنى لأن المعنى الذى تؤديه لا تجمعه كلمة واحدة فى اللغات الأخرى فهى تجمع معانى الكشف والوحى والإنبهار بالغيب والإنذار والتبشير.

كما أن كلمة النبوة فى اللغة العربية أصيلة ، وغير مستعارة من معنى آخر ، لأن اللغة العربية غنية جداً بكلمات العرافة والعيافة والكهانة وما إليها من الكلمات التى لا تلتبس فى اللسان العربى بمعنى النبوة كما تلتبس فى الألسنة الأخرى عند أصل التسمية واشتقاق المعانى الجديدة من الألفاظ القديمة[٣٢].

وأيا كان الرأى ، فإننا يمكن أن نقول أن المعنى المتفق عليه لكلمة "نبى" هو أن النبى شخص مدعو من الله لتوصيل رسالة إلهية إلى قومه ، وهو المعنى الذى اعتمدته الترجمة السبعينية حيث استخدمت الكلمة اليونانية Prophetes للتعبير عن هذا المعنى . والكلمة تعنى حرفياً : شخص يتحدث نيابة عن الإله ، وهو نفس المعنى المعبر عنه لتحديد العلاقة بين موسى وهارون فى سفر الخروج ، حيث تشير الفقرات إلى أن هارون سيتحدث نيابة عن موسى أمام الفرعون لكى يطلق على مضمون ما تلقاه موسى من وحى إلهى ، فكلاهما هنا (مدعو) موسى مدعو من الله وهارون مدعو أو مكلف من موسى بالتحدث نيابة عنه أمام الفرعون. وهذا يحدد معنى النبى فى أنه الشخص المدعو من الله ليتحدث نيابة عنه[٣٣].

وقد اختار الله أنبياءه من القوم الأتقياء الأنقياء القلب المتسامين بأرواحهم عن الدنايا ، ومنحهم القوة والقدرة على الإتصال به ورؤية عظمته والاستماع إلى كلمته ومعرفة مشيئته ، ثم تعريف الناس بهذه المشيئة ، مدعمة بالبراهين على أن الله هو الذى أرسلهم لهذه الغاية ، وأنهم صادقون فى رسالتهم . ومن هذه البراهين التنبوء بالغيب الذى يستمدون العلم به من العلم الإلهى والقيام بالمعجزات التى لا يستطيع القيام بها إلا الله وحده[٣٤].

وقد كان ظهور الأنبياء فى بنى اسرائيل يمثل ضرورة تاريخية ، ذلك أن انقسام مملكة داود وسليمان إلى مملكتين شمالية وجنوبية ، ثم سقوط المملكتين على التوالى ، قد أدى إلى ضعف عام أصاب ملوك وحكام بنى اسرائيل فى هذه العصور ، بل وأدى فى بعض الأحيان إلى غياب الحكم ، ومن هنا كان ظهور الأنبياء المتكرر لتغطية هذا العجز السياسى الواضح ، واضطلعت النبوة بدور الحكم ، فأصبح الأنبياء مسئولين مسئولية مباشرة عن إدارة شئون جماعة بنى اسرائيل فى أوقات السلم والحرب ، وأضيفت إلى أعبائهم الدينية أعباء سياسية اقتضاها هذا الوضع الخاص للتاريخ الإسرائيلى من بعد عصر مملكة داود وسليمان وحتى ظهور المسيحية [٣٥] .

وهكذا نرى أن ظهور الأنبياء كان رد فعل للنظام الطبقى الذى اتسع مداه بين اليهود ، فقد كانت هناك جماعة تنعم بالغنى الفاحش ، وكان آخرون يتساقطون جوعاً ، وكان ذلك رد فعل لانشغال الكهنة بالمال والتقاليد والمظاهر عن الروح الدينية الحقيقية ، ومن أجل هذا كثر فى هذا العصر من أطلقوا على أنفسهم أنبياء ، وكان هؤلاء ينتمون إلى أصول وطبقات متباينة ، فكان حزقيال مثلا من طائفة الكهنة ، وكان ذا عواطف كهنوتية ، وكان عاموس راعياً ، على أنهم يشتركون فى كونهم يبثون فى الحياة قوة دينية خارج نطاق القرابين والشكليات المرعية لدى الكهانات والمعبد [٣٦] فظلوا بعيداً عن الخطة الدينية الرسمية . ولم يبرح الكهان يتبرمون بالأنبياء تبرماً يتفاوت قدره ، إذ أنهم أصبحوا الناصحين غير الرسميين للناس فى الشئون العامة ، والناعين عليهم الخطايا والتصرفات الغريبة ، وهم قوم "نصبوا أنفسهم بأنفسهم" ، ولم يكن لهم من سند يستندون إليه إلا ما يحسون من نور باطنى [٣٧] ، وفى الكتاب المقدس صيغة ثابتة هى : وعند ذلك جاءت كلمة الرب إلى ... ويروى عن(عاموس) فى محاربة الكهنة والأغنياء قوله :"إنكم تدوسون المسكين وتأخذون منه هدية قمح ، بنيتم بيوتاً من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها ، وغرستم كروماً شهية ولا تشربون خمرها لأنى علمت أن ذنوبكم كثيرة وخطاياكم وافرة . أيها المضايقون البارّ ، الآخذون الرشوة ، الصادون عن البائسين خلف الباب ، لذلك يصمت العاقل فى ذلك الزمان لأنه زمان ردئ" [٣٨].

ولم يكن أولئك الذين أطلق عليهم هذا اللفظ العبرى (نبىّ) أول الأمر من طبقة عاموس و إشعيا الجديرة باحترامنا ، بل كان بعضهم من المتنبئين الذين يستطيعون قراءة قلوب الناس وماضيهم ويخبرونهم بمستقبلهم حسبما يتقاضون منهم من أجور ، ومنهم متعصبون متهوسون يستثيرون مشاعرهم بالأصوات الموسيقية الغريبة ، أو المشروبات القوية ، أو الرقص الشبيه برقص الدراويش ، وينطقون فى أثناء غيبوبتهم بعبارات يراها أصحابها وحيا أوحى إليهم . أى بثتها فيهم روح غير روحهم . وقد سخر إرميا سخرية لاذعة من "كل رجل مجنون ومتنبئ". وكان منهم من هو ناسك نكد

كايليا ، ومنهم كثيرون يعيشون فى مدارس أو أديرة مجاورة للهياكل ، ولكن معظمهم كانت له أملاك خاصة وزوجات[٣٩].

من هذا الحشد الكبير من النساك ، خرج أنبياء بنى اسرائيل وأصبحوا على مر الزمن نقاد لعصرهم وشعبهم ثابتين على نقدهم ، عارفين بالتبعة الملقاة عليهم وسياسيين ممتازين يسوسون بلادهم فى الخفاء . ولم يكن الأنبياء أنفسهم يدعون أنهم يعلمون من الغيب ما يستطيعون أن ينطقوا به ، بل كانوا أشبه الناس بالمعارضين البلغاء فى إحدى الحكومات الدستورية الحديثة ، وكانوا من بعض نواحيهم ثائرين على الاستغلال الصناعى والخداع الكهنوتى ، خرجوا من أحضان الريف الساذج يصبون اللعنات على ثراء الحواضر الفاسدة[٤٠].

والرسالة الأساسية للأنبياء هى تبليغ إرادة اللـه للبشر وتلقينهم تعاليمه، وتبصيرهم بأوامره وأحكامه ووصاياه ، وتحذيرهم من الابتعاد عن اللـه أو التمرد عليه أو عبادة الآلهة الوثنية من دونه ، أو الانغماس فى الشرور والشهوات والخطايا ، والآثام ، ناسبين هذا التعليم كله لا لأنفسهم بل إلى الله[٤١] ، إذ جاء فى التوراة قول موسى لليهود :" قد علمتكم فرائض وأحكاما كما أمرنى الرب إلهى لكى تعملوا هكذا فى الأرض التى أنتم داخلون إليها"[٤٢] ، وجاء فى نفس السفر وفى نفس الإصحاح :" وإياى أمر الرب فى ذلك الوقت أن أعلمكم فرائض وأحكاماً لكى تعملوها فى الأرض التى أنتم عابرون إليها لتمتلكوها".

بيد أن اليهود كانوا لا يستمعون إلى أنبيائهم ولا يطيعونهم ولا يطيعون الله الذى أرسلهم ، قال إرميا النبى لليهود :" صارت كلمة الرب إلى فعلمتكم مبكراً ومكلماً فلم تسمعوا . وقد أرسل الرب إليكم كل عبيده الأنبياء مبكراً ومرسلاً فلم تسمعوا ولم تميلوا أذنكم للسمع ، قائلين أرجعوا كل واحد عن طريقه الردئ وعن شر أعمالكم" [٤٣] .

ولم يفهم اليهود رسالة الأنبياء على أنهم مختارون من الله لتبليغ مشيئته، وإنما اعتبروا الأنبياء كما كان يعتبرهم معاصروهم من الوثنيين طائفة من

المشعوذين الذين يتلقنون علوم التنجيم والعرافة وقراءة الغيب ومعرفة الطـالع فى مدارس مخصصة لذلك يسمى أساتذتها (آباء) أو سادة، ويسمى تلاميذها (بنى الأنبياء) ، وكانت أشهر هذه المدارس فى أريحا والجلجال وبيت أيل ، وكان هؤلاء المدعوون بالأنبياء يتخذون التنبوء حرفة لهم وبضاعة يعرضونها على كل من يطلبها ويتقاضون عنها أجراً [٤٤].

وقد ظهرت طليعة الأنبياء الكبار فى مملكة اسرائيل فى القرن التاسع قبل الميلاد حين قام إلياهو واليشع . وإليهما يرجع رد الفعل ضد وثنية أحآب (حوالى ٨٧٦ - ٨٥٤ ق.م) ، والقضاء فى عهد يهو (حوالى ٨٤٢ - ٨١٥ ق.م) على صور العبادة الوثنية . ولكن لم تكن لهذا الإصلاح نتائج باقية ، فإن الإنحرافات القديمة لم تلبث أن عادت إلى الظهور . وتدلنا الكشوف الأثرية على كثرة الأشجار المقدسة من النمط الكنعانى ، ومذابح البخور ، والتماثيل الصغيرة للآلهات ، والتمائم . وقد تعاقب أنبياء جدد فى منتصف القرن الثامن ق.م، هم عاموس وهوشع ، وميكا (ميخا) ، وكانت دعوة إلياهو واليشع بالعمل أكثر منها بالقول ، فلم يخلفا لنا أسفاراً مكتوبة تعبر عن دعوتهما ، ولكن سمى هؤلاء الأنبياء الجدد "بالمنشدين الجوالين" ، لأنهم كانوا ينذرون الناس وينصحونهم بمواعظ وصلت إلينا فى تلك الأسفار من العهد القديم التى تحمل أسماءهم [٤٥].

وإذا كان المجتمع الإسرائيلى قد عرف كثرة من الأنبياء الذين لم يوحى إليهم ، إلا أن الذى كان يتلقى الوحى ، كان يذهب إلى السوق أو المعبد أو القصر ، ونادى بما دعى إليه ، سواء أكان سامعه من عامة الناس أم كاهناً أم ملكاً . وكانت دعوته تدور حول محورين أساسيين : فكان من جهة يدعو فى اصرار إلى الوحدانية الخالصة ، ويرفض كل نوع من أنواع التساهل أو التراضى مع العبادات الأجنبية أو الوثنية ، وكان من جهة أخرى يدعو إلى صلاح الأخلاق ، ويندد بذلك التهاون الخلقى الذى لم يكن فى حقيقة أمره سوى نتيجة للتهاون الدينى . ولم يكن فى دعوته إلى نقاء العبادة أو صفاء السلوك يغفل عن تأكيد دعوته بالتنبوء بالعقاب الذى سيقع إذا لم يسمع قوله[٤٦].

وكان النبى يسعى إلى أن يحقق فى نفسه النقاء وطهر العيش اللذين كان يدعو غيره إليهما فى قوة وإلحاح ، وكثيراً ما اعتزل الأنبياء فى الصحراء يحيون فيها حياة النساك ، أو عاشوا على نحو آخر عيشة تقشف وزهد . وكان يسود تفكيرهم كله شوق إلى بساطة العيش القديمة ، ذلك المثل الأعلى البدوى الذى ظل قوة حية فى كثير من الشعوب السامية . ومن الجلى أن ظاهرة كالنبوة لها طبيعتها الشخصية القوية ، لا يكفى تفسيرها على نحو كاف بالشوق والنزوع إلى أحوال الماضى ، فالأفكار والأعمال التى صدرت عن عاموس وإرميا وأشعيا وكثيرين غيرهم دخل فى صنعها قدر كبير من العبقرية الأصلية لا يكفى معه مثل ذلك التفسير ، ولكن يمكن أن نقول بوجه عام أن دعوتهم صدرت عن عاطفة تميز الرعاة القدامى الذين منحتهم الصحراء القدرة على رؤية مثل أعلى دينى أعظم وأبسط من ذلك الذى ساد الممالك المتكلفة المتصنعة ، وأن هذه العاطفة استهوتها تلك الدعوات فاستجابت لها .

وإذا كان المجتمع اليهودي قد شهد - بعد عصر موسى - تدهوراً تدريجيا وكذلك بعد انقسام المملكة ، ثم إنهيارها ، فقد رد الأنبياء العلة الأساسية فى التدهور الدينى والسياسى الذى أصاب بنى اسرائيل إلى العامل الأخلاقى ، ولهذا لا يمكن أن تتم العودة الحقيقية إلى ديانة موسى إلا من خلال بعث الجانب الأخلاقى والروح الأخلاقية فى الدين . وكان أول ما اتجه الأنبياء إلى التركيز عليه توضيح العلاقة العضوية بين الدين والأخلاق، وهى علاقة و اضحة فى التشريع الموسوى ، لكنها اختفت مع تأثير العودة إلى الطبيعة والعبادة الوثنية من بعد عصر موسى . وللتأكيد على هذه العلاقة بين الدين والأخلاق يأتى تصور الأنبياء للإله فى شكل الإله الشخصى الأخلاقى - أى الذى يتحلى بمجموعة من الصفات الأخلاقية ، وأيضا الإله صاحب المطالب الأخلاقية الواجبة على من يعبده[٤٧].

وكان اشتراك الأنبياء فى النشاط السياسى لعصورهم إنما هو بمثابة التربية السياسية لبنى اسرائيل ، وتقويم للسلوك السياسى للملوك والحكام ، وتعويض للعجز السياسى الواضح الذى أبداه هؤلاء تجاه أحداث عصرهم ،

وإظهار وجهة النظر النبوية فيها ، وتقديم المشورة السياسة لشعوبهم ، وتوضيح الأخطاء السياسية التى وقع فيها بعض ملوك اسرائيل ويهوذا ، وإعطاء تفسير دينى لهذه الأحداث التاريخية بربط وقوعها بتدهور الأوضاع الدينية والأخلاقية ، والبعد عن العبادة الصحيحة ، وانتشار الأمراض الاجتماعية المختلفة[٤٨].

ولم يكتف الأنبياء بالدعوة إلى العدل ، ونبذ الظلم والاضطهاد ، ولكنهم عملوا على إثارة أقوامهم ضد الفقر والبؤس الاجتماعى . وفى نفس الوقت الذى نادوا به بالمسئولية الفردية عن الخطايا أقروا دور الجماعة والدولة فى ظهور الأمراض الاجتماعية الخطيرة ، وأهمها الفقر بما يعكسه من قهر جماعى وبؤس اجتماعى[٤٩]، ومن هنا نرى أشعيا يوجه نقده للشعب والقائمين عليه ، ويدعوهم جميعاً إلى إقامة العدالة الاجتماعية "كيف صارت القرية الأمينة زانية ، ملآنة حقا كان العدل يبيت فهيا ، وأما الآن فالقاتلون . صارت فضتك زغلاً (مغشوشة) وخُمرك مغشوشة بماء ، رؤساؤك متمردون، ولغفاء اللصوص كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا . لا يقضون لليتيم ، ودعوى الأرملة لا تصل إليهم"[٥٠].

ويؤكد أشعيا لبنى اسرائيل أن "الرب" غير راض عن سلوك بنى اسرائيل وأنه لا تهمه تلك الطقوس والقرابين والعبادات ، فهى "شكليات" لا تعد هدفاً فى حد ذاتها ، وإنما ما يهمه بالدرجة الأولى هو "السلوك الفاضل" و "الأخلاق المستقيمة" ، يقول إشعيا :" اسمعوا كلام الرب ... لماذا لى كثرة ذبائحكم يقول الرب ... لست أطيق الاثم والإعتكاف ... وإن أكثرتم الصلاة لا أسمع . أيديكم ملآنة دماً . اغتسلوا تنقوا . أعزلوا شر أفعالكم من أمام عينى . كفوا عن فعل الشر . تعلموا فعل الخير . اطلبوا الحق . انصفوا المظلوم . اقضوا لليتيم . حابوا عن الأرملة ..." [٥١].

ثم ينذر السائرين على طريق التزييف والقهر والاستغلال ، يقول أشعيا "ويل للذين يقضون أقضية البُطْل وللكتبة الذين يسجلون حواراً ليعدوا

الضعفاء عن الحكم ويسلبوا حق بائس شعبى لتكون الأرامل غنيمتهم وينهبوا الأيتام" (٥٢).

المؤسسة الكهنوتية :

للمؤسسة الكهنوتية وظيفتها المحددة المعروفة فى الدين اليهودى ، وهى القيام بالوظائف المرتبطة بالمعابد ، والقيام بالطقوس المختلفة ، والتى من خلالها تتم التربية الدينية لليهود . وهى مرتبطة فى نشأتها بتطور المجتمع الإسرائيلى القديم ، وتحويله من مجتمع بسيط إلى مجتمع معقد اجتماعيا ودينياً ، ولهذا لم تشهد مرحلة الآباء من التاريخ الإسرائيلى القديم ظهور مثل هذه الوظيفة حيث كان الآباء أنفسهم يقومون بأداء الطقوس المختلفة ومهام العبادة العامة بدون تكوين طبقة أو فئة خاصة تعد مسئولة عن هذه الأعمال(٥٣) ، هذا بالإضافة إلى أن المعبد لم يكن بعد قد أخذ شكله المتطور الذى عرفناه فيما بعد ، فالجماعة العبرية كانت جماعة من البدو الرحل ينتقلون من مكان إلى آخر ، وكانت عقائدهم وطقوسهم وأماكن عبادتهم تتصف بما اتصفت به الحياة العبرية من البساطة . وإذا تأملنا فى النص التالى "كن لى أبا وكاهنا"(٥٤) ، فسوف نجد أنه أقدم نص يشير إلى تعيين كاهن ، وأنه يشير كذلك إلى أن الكاهن قد ورث الصفة الدينية التى كانت لرأس الأسرة فى عصر الآباء ، وبالتدريج بدأ الكاهن يكتسب بعض الصفات المميزة له ولعمله.(٥٥).

ويدل معنى الكهانة فى الكتاب المقدس على أنها وظيفة روحية دينية تعليمية للتقرب من الرب والقيام بأداء أعمال التقرب بالقرابين ، ويدل على ذلك اشتقاقات الكلمة كما وردت فى العهد القديم على لسان الرب : "وتلبس هارون الثياب المقدسة وتمسحه وتقدسه ليكهن لى"(٥٦).

وكان الكهنوت أحيانا ينتقل من الأب إلى ابنه البكر ، وعندما أمر موسى كل رئيس عائلة أن يذبح خروف الفصح ، يرجح أن نظام كهنوت العائلات كان له وجود آنذاك بأن يكون رب كل أسرة كاهنا لبيته(٥٧).

وأما فى أيام موسى فقد اتخذت الكهانة شكل الاختيار الإلهى وذلك حين رد موسى على مقاوميه من بنى اسرائيل الذين عارضوه في ترفعه عليهم هو وأخوه هارون إذ قال لهم موسى :"غدا يعلن الرب من هو له ، ومن المقدس، حتى يقربه إليه فالذى يختاره يقربه إليه [٥٨].

ويرى بعض الباحثين [٥٩]، أن هذه الآية تمثل مفتاح فكرة الكهانة فى العهد القديم حيث يشتمل على ثلاثة عناصر :١- الذى يختاره الرب له، ٢-المقدس ، ٣- الذى يؤذن له بالقرب من الرب ، فالأول يعبر عن الحالة الأصلية الجوهرية والثانى يعبر عن الأهلية ، والثالث يعبر عن وظيفة الكهانة نفسها .

وقد حصر الله الكهنوت فى ذرية هارون دون سواهم من عشائر سبط لاوى ودون سواهم من أسباط اليهود الأخرى ، إذ قال الرب لموسى "قرب إليك هارون أخاك وبينه معه من بنى اسرائيل ليكهن لى"[٦٠] ، ومن ثم أصبح لا يصح لأحد ولو كان هو ملك اليهود ذاته أن يؤدى وظيفة الكاهن ما لم يكن من ذرية هارون .

وتفرض الشريعة على الكاهن فى حياته ومعيشته قوانين لا تفرضها على غيره من اللاويين أو من عامة اليهود ، من هذا "ألا يتنجس لميت فى قومه ، أى لا يمس جثته إلا لأقربائه الأقرب إليه[٦١].

ولا تسمح الشريعة للكاهن بأن يشرب خمراً عند دخوله المقدس للخدمة الدينية كما تفرض الشريعة عليه الاغتسال الدائم تطهيرا لأجسامهم وثيابهم[٦٢].

وأيضا أوجبت الشريعة مسح الكهنة "بالدهن المقدس" وأن يكون الكاهن طاهراً وهو يؤدى وظيفته الكهنوتية[٦٣].

كذلك فقد ورد فى التوراة أن الله خصص اللاويين ، وهم ذرية (لاوى) أحد أبناء يعقوب الإثنى عشر المعروفين ببنى اسرائيل ، لخدمة بيته بعد أن

أثبتوا أنهم أكثر الأسباط إخلاصاً له ، عندما انتهز اليهود وهم في سيناء فرصة غياب موسى فوق الجبل فأقاموا لهم عجلا من الذهب وعبدوه[٦٤].

وللوصول إلى الكهنوتية كان الواحد منهم يمر بتدريبات وتقاليد يعرف خلالها الطقوس والأسرار الدينية ، ويبرهن على استحقاقه لهذا المنصب الخطير . وكان لهم وحدهم حق تفسير النصوص . ولم تكن القرابين مقبولة إلا إذا قدمت على يد أحد الكهنة . وكانوا معفون من الضرائب ، وتقدم لهم العشور من نتاج الضأن ويأخذون ما بقى في الهيكل من القرابين ، وقد جمعوا بذلك أموالاً ضخمة وثراء عظيماً ، وامتازت ثروتهم بأن عدت مقدسة، وشخصياتهم بأنها كانت الوسيلة إلى الله وبذلك أصبحوا في كثير من الأحوال أقوى من الملوك أنفسهم[٦٥].

وكان من عمل الكاهن كذلك أن يقوم بدور القاضي بين الناس في خصوماتهم وما ينجم بينهم من مشكلات في تعاملهم فيما بينهم "فإذا عسر عليك أمر في القضاء بين دم ودم ، أو بين دعوى ودعوى أو بين ضربة وضربة من أمور الخصومات في أبوابك ، فقم واصعد إلى المكان الذى يختاره الرب إلهك واذهب إلى الكهنة اللاويين ، وإلى القاضي (الحاكم أو القائد العسكرى) الذى يكون في تلك الأيام واسأل فيخبروك بأمر القضاء[٦٦]".

ومن لم يمتثل لأمر الكهنة وسلطانهم أو ينحرف عن تعاليمهم فإنه يكون قد طغى ويصبح جزاؤه القتل.

ولم تقف سلطة الكاهن عند المواطن العادى وحسب ، بل امتدت إلى أولى الأمر من الملوك والقواد[٦٧].

ولكن كهنة اليهود على الرغم من العديد من الامتيازات التى قررتها الشريعة لهم ، لم يلبثوا أن أهملوا واجباتهم الكهنوتية ، بل لم يلبثوا أن انحرفوا عن الأخلاق القويمة والصفات الكريمة التى ينبغى أن يتحلوا بها ، فضربوا أسوأ الأمثال للشعب ، متخذين من مهمتهم سبيلا إلى إشباع جشعهم وطبعهم وإرضاء شهواتهم الجسدية ونزواتهم البهيمية ، بعد أن أصبحت لهم

ثروات عظيمة من وراء كل الإمتيازات المعطاة لهم والمنافع المخصصة لطائفتهم . بل لقد تركوا الله وعبدوا الأصنام جاعلين من أنفسهم كهنة لها ، حتى لقد صرخ الأنبياء وعبارات الألم الشديد منهم وأسخط العظيم عليهم[٦٨].

وفى زمن النفى ظهرت مثل اسرائيل الدينية إلى حد كبير ، فزوال الشعب ، ككتلة سياسية متميزة ، أتاح للفكر العبرى أن يدرك ويؤكد على نحو أوضح من أى وقت مضى أن (يهوه) هو الإله الواحد الأحد للعالم والبشر أجمعين . ثم أن شقاء المنفى وانقطاع طقوس المعبد جعلا بعض الإسرائيليين يعودون إلى الله ويشغلون بالمعنى الباطن للدين ، وفسرت مصائب الشعب على أساس دينى بأنها تجربة للتطهير تهيئ الشعب للنهوض من جديد[٦٩].

وإلى جانب هذا البعث فى الشعور الدينى ، حدث تطور وإحكام فى الدين المقنن الموضوع فى صيغ ثابتة ، وممثل هذا الربط بين مثالية النبوة وتقنين الكهنوت هو حزقيال الكاهن النبى . ومن النتائج الطبيعية لأحوال النفى أن وجه الكهان اهتمامهم إلى دراسة الشريعة دراسة منظمة ، فأدى بهم هذا إلى أن يتولوا نشر الأسفار المقدسة ، فجمعت هذه المصادر التقليدية لتاريخ العبريين ودينهم ورتبت فى أقسام كبيرة ثلاثة : التوراة والأنبياء والكتابات ، حتى تنقل إلى مختلف الأجيال التالية .

ويؤكد باحثون [٧٠] ، على أن الكهنة يعتبرون المربين الأوائل للشعب الإسرائيلى ، وقد قاموا بنشر ديانة يهوه ووجهوا الحياة الدينية والأخلاقية من خلال قيامهم بالمهام الموكولة إليهم بصفتهم وكلاء وممثلين ليهوه ومحافظين على مقاماته التى انتشرت فى فلسطين ، وقد بلوروا محتوى هذه الديانة وأوجدوا الأشكال التى تم من خلالها التعبير عن عقائد ومبادئ هذا الدين . ومن وظائف الكهنة الأوائل (العرافة) التى كانوا يفصحون من خلالها عن إرادة يهوه . كذلك علموا الأفراد والجماعات مبادئ وعقائد هذا الدين ، وقد نقلوا الشريعة والطقوس والشعائر والأساطير المرتبطة بالدين ، شفاهة فى

بادئ الأمر ، ثم قاموا كذلك بتنظيم وتوحيد الاحتفالات العامة التي سوف نرى أنها لم تكن أكثر من دروس دينية في تاريخ اليهود .

وتتأكد أهمية دور الكهنة التربوى من خلال تأمل علاقتهم بالقانون و"تطبيقه[٧١] ، فقد كان الكهنة يقومون بتقديم النصيحة للناس بخصوص الممارسات الاجتماعية . وكانوا يصدرون الأحكام الشرعية في الحالات التي كانت تعرض عليهم . وهكذا بدأت الشريعة الشفوية في التراكم . وبازدياد القوانين الشرعية ، زادت تطبيقات التوراة وتأثيرها على حياة الناس ، وبالتدريج أصبح الكهنة مرجعا لتراث تاريخي وقانوني آخذ في الاتساع يوماً بعد يوم .

على أن نمو سلطان الكهنة وانتشار التربية الدينية لم يكفيا لتحريك عقول العبرانيين من الخرافات والأوهام ومن عبادة الأوثان ، بل ظلت التلال والحراج مأوى للألهة الأجنبية ، ومشهدا للطقوس الخفية ، وظلت أقلية كبيرة من الشعب تسجد للحجارة المقدسة ، أو تعبد (بعل) وعشتروت ، أو تتنبأ بالغيب على الطريقة البابلية ، أو تقيم الأنصاب وتحرق لها البخور ، أو تركع أمام الحية النحاسية أو العجل الذهبي ، أو تملأ الهيكل بضجيج الحفلات الوثنية ، أو ترغم أطفالها على أن "يجوزوا في النار" من قبيل التضحية . بل إن بعض الملوك أنفسهم كانوا 'يتملقون' الآلهة الأجانب . وقام رجال صالحون كإليا واليشع ينادون بإبطال هذه العادات وإن لم يصبحوا بعد كهنة وحاولوا أن يهدوا الناس إلى طريق الحق باستقامتهم وحثهم على الإقتداء بهم[٧٢].

وكان الآباء الأوائل لليهود حين يريدون تقديم شعائر العبادة لله لا يقصدون مكاناً معيناً يقدمون فيه شعائر عبادتهم ، وإنما يقيم الواحد منهم مذبحاً في المكان الذى يترائى له الله أو يخاطبه فيه . ولم يكن المذبح الذى يقيمونه لهذا الغرض يتعدى كومة من الحجارة أو تلاً من الرمال يضعونه بطريقة بدائية ويقدمون عيه ذبائحهم [٧٣].

ثم تروى التوراة أن الله أمر موسى بإقامة خيمة الاجتماع فى صحراء سيناء ليجتمع فيها اليهود لعبادته وتقديم القرابين والذبائح إليه ، وإقامة سائر الطقوس الدينية التى أوصاهم بها . وقد حددت التوراة ببيان مفصل أوصاف الخيمة ومقاييسها[٧٤].

وتشير رواية التوراة إلى أن داود النبى أول من فكر فى إقامة (بيت للرب) بدلا من الخيمة، إلا أن فكرته هذه لم تجد قبولاً حسناً من رب اسرائيل الذى كان يدخر هذا العمل لولده سليمان . ومع ذلك فإن داود ، قبل أن ينتقل إلى جوار ربه ، أراد أن يسجل معاونته الفعالة لولده سليمان فى إقامة بيت الرب ، فأخذ يجهز المواد اللازمة للبناء ، وكان القوم فى عصره ما يزالون فى بدائية ، يندر فيهم من يعرف أصول حرفة أو صناعة أو علم من علوم الدنيا . ومن هنا كان الاعتماد على الفينيقيين هو الحل الوحيد الممكن أمام داود وسليمان حتى يرتفع هيكل الرب [٧٥].

وهكذا ، وفى ربيع السنة الرابعة من عهد سليمان (حوالى عام ٩٥٧ ق.م) وضع الحجر الأساسى لبناء الهيكل الذى استمر العمل فيه قائماً على قدم وساق سبعة أعوام ، ثم واصل مهرة الصناع والفعلة العمل ثلاثة عشر عاماً بعد ذلك ليشيدوا صرحاً أكبر يسكن فيه سليمان ونساؤه[٧٦].

لكن هيكل سليمان (دمر تماما) أثناء غزو "نبوخذ نصر" للقدس سنة ٥٨٦ ق.م، ونهب الغزاة القدس وأشعلوا فيها النيران وأحرقوا القصر الملكى والمعبد ،ولم يستطع القوم إعادة البناء إلا عام ٥١٥ ق.م على أيام الملك الفارسى (دارا الأول) ، ثم دمر المعبد الثانى هذا عام ٧٠م على يد القائد الرومانى(تيتوس) ، وضاعت آثاره تماماً حتى أن الناس قد نسوا فيما بعد ، إذا كان هذا المعبد على التل الشرقى أو الغربى من المدينة المقدسة[٧٧] .

وفى عام ١٣٥ م ، استولى الروم على القدس ، ثم أمر الإمبراطور (هدريان) (١١٧-١٣٨م) بتدمير المدينة تماماً وبنى فوقها مدينة جديدة .

وكان اليهود يؤدون العبادة فى هيكل سليمان وحده ، حتى إذا غزاهم الفرس وأجلوهم إلى بابل ، اضطروا أن يستعيضوا عن أداء العبادة فى

الهيكل بأدائها فى معابد كانوا يسمون كلا منها "بيت هكنست" أو "المجمع" . وكانوا يكتفون بالصلاة والتعليم الدينى فيها . فلما عادوا من السبى إلى بلادهم احتفظوا بنظام المجامع وأقاموها فى المدن والقرى[٧٨].

وكان لكل مجمع خادم يهيئ المكان للعبادة ويتولى تعليم الأطفال فى المدرسة الملحقة بالمعبد . ولكن لم يكن بالمجمع كهنة ، ولم تكن تجرى فيه طقوس كهنوتية كما فى هيكل سليمان ، وإنما كان رئيس المجمع يختار من الحاضرين شخصاً للصلاة وقراءة الكتاب والتفسير والوعظ ، فكان هذا الشخص بعد اجتماع الشعب يعتلى المنبر ويتلو الصلاة العامة ، ثم يقرأ فصلاً من الشريعة يسمونه (فاراشاه) ، وفصلا من الأنبياء يسمونه "هافتراه"، ثم يتولى تفسير ما قرأ لأنه مكتوب باللغة العبرية ، فىحين أن اليهود بعد أن عادوا من السبى كانوا قد نسوا هذه اللغة وأصبحوا يتكلمون بالآرامية التى كانت لغة الشعوب التى عاشوا فى السبى بينها . ثم بعد الصلاة والقراءة والتفسير يقوم الشخص المختار بالوعظ . وكان لكل حاضر بالمجمع أن يأخذ الإذن من رئيس المجمع ، ثم يتقدم لأداء هذه الخدمة[٧٩].

وكانت مراسم العبادة تعقد فى المعبد كل يوم سبت ، وفى خلال أيام الصوم والأعياد كما كانت تعقد يوم الاثنين والخميس بعد الظهر ، إلا أن ترتيبها كان واحداً تقريباً . ومن تحليل صلاة السبت يمكن الوصول إلى أن شعائر العبادة تكونت من جزئين : الجزء الأول هذا الجزء الشعائرى العام الذى يتكون من ترنيم "الشماع" يسبقها ويتبعها المديح والبركات . وقد قدم هذا الجزء تدريبا منظماً لليهود على العبادة[٨٠].

والحق أن (الصلاة) كانت وسيلة هامة للتربية اليهودية ، فقد بين الرب فى العد القديم أن التوبة الحقيقية والأعمال الخيرية الصالحة وتجنب عمل الشر أفضل من أساليب أخرى متعددة . وما أفضل الإنسان الذى يشعر بضعفه وبخطيئته واحتياجاته ، فيتكل عليه تعالى ، وعلى قدرته ومحبته ، ويظهر إحساساته له شخصياً رأساً ويقدم له الشكر على نعمه وخيراته ، ويكشف له قلبه وضميره ويعترف أمامه بذنوبه وخطاياه وعجزه ، ويطلب

اليد المغفرة والعفو ، ويلتمس منه سد حاجاته ، والمعونة والمساعدة في أوقات الضيق والشدة ، ويلقى عليه رجاءه عالماً بأنه رُحوم رءوف ، يقبل صلواته ، ويقبل التائبين والخطاة ، ويساعد المحتاجين الذين يلجأون إليه ويدعونه ، وهو الصديق الوحيد في وقت الضيق(٨١).

وكانت الصلاة مركبة غالبا من النثر ثم من النظم ، وتتلى بالغناء في الإبتداء من سفر المزامير . وكان يخصص مغنون لهذا القصد ، فإن عزرا يذكر في سفره أن بين الذين رجعوا من بابل من السبى كان مائتان من المغنين والمغنيات (٨٢).

وكانت الصلاة فريضة واجبة على النساء والرجال . وكانوا يصلون جلوساً ووقوفاً ، يركعون ويسجدون ، ويبقون ، ويصومون ، ويبكون في تضرعاتهم واعترافاتهم حتى أيامنا هذه .

وإذا كان الإصحاح الرابع في سفر(عاموس) يطالب اليهودى بأن يستعد للقاء الله في الصلاة ، فقد ألزم هذا ، الأتقياء والمتعبدين أن يصرفوا نحو ساعة من الزمان استعداداً للصلاة ، فيما يخص النظافة واللبس وجميع الأفكار وما أشبه ذلك . وكان عزرا يوصى بوجوب غسل الجسم بكل تدقيق قبل العبادة (٨٣) .

وأهم قسم من الصلاة (الشماع) ، وكلمة "شماع" أى "اسمع" ، وهو بفقراته الثلاث ، مأخوذ من التوارة:

١ - "اسمع يا اسرائيل ، الرب إلهنا رب واحد ، فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ، ومن كل قوتك . ولتكن هذه الكلمات التى أنا أوصيك بها اليوم على قلبك ، وقصها على أولادك وتكلم بها حين تجلس في بيتك وحين تمشى في الطريق وحين تنام وحين تقوم ، واربطها علامة على يديك ولتكن عصائب بين عينيك واكتبها على قوائم بيتك وعلى أبوابك(٨٤).

٢ - "فإذا سمعتم وصاياى التى أنا أوصيكم بها اليوم لتحبوا الرب إلهكم وتعبدوه من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم ، أعطى مطر أرضكم فى حينه المبكر والمتأخر فتجمع حنطتك وخمرك وزيتك ، وأعطى لبهائمك عشباً فى حقلك فتأكل أنت وتشبع . فاحترزوا من أن تنغوى قلوبكم فتزيغوا وتعبدوا آلهة أخرى وتسجدوا لها فيحمى غضب الرب عليكم ويغلق السماء فلا يكون مطر ولا تعطى الأرض غلتها فتتبيدون سريعاً عن الأرض الجيدة التى يعطيكم الأرض .

فضعوا كلماتى هذه على قلوبكم ونفوسكم واربطوها علامة على أيديكم ولتكن عصائب بين عيونكم ، وعلموها أولادكم متكلمين بها حين تجلسون فى بيوتكم وحين تمشون فى الطريق وحين تنامون وحين تقومون . واكتبها على قوائم أبوابك وعلى أبوابك ، لكى تكثر أيامك وأيام أولادك على الأرض التى أقسم الرب لآبائك أن يعطيهم أياها كأيام السماء على الأرض(٨٥).

٣ - "وكلم الرب موسى قائلا : كلم بنى اسرائيل وقل لهم أن يصنعوا لهم أهداباً فى أذيال ثيابهم فى أجيالهم ، ويجعلوا على هُدب الذيل عصابة من أسمانجونى ، فتكون لكم هُدباً فترونها وتذكرون كل وصايا الرب وتعلمونها ولا تطوفون وراء قلوبكم وأعينكم التى أنتم فاسقون وراءها . لكى تذكروا وتعلموا كل وصاياى وتكونوا مقدسين لإلهكم . أنا الرب إلهكم الذى أخرجكم من أرض مصر ليكون لكم إلها ، أنا الرب إلهكم(٨٦)".

وكان تقديم القرابين طقساً رئيسياً فى عبادة اليهود ، واعتبرت هذه العملية محتوية على عدد من المفاهيم والقيم والإتجاهات التى كان لها دورها فى تربية اليهود . وكان الذى يقوم بتقديم القرابين لله فى أيام الآباء الأوائل لليهود هو رب العائلة عن نفسه وعن عائلته ، حتى جاء موسى فرسم لليهود نظاماً دينياً مفصلاً لتقديم القرابين لله تعبيراً عن اعترافهم بخطاياهم ، أو

تكفيرهم عنها ، أو توبتهم عن ارتكابها أو شكرهم لله ، أو تكريس أنفسهم لخدمته ، أو غير ذلك من الأسباب والأغراض [٨٧].

وكانت القرابين تشمل الضحايا البشرية ، فكان الإنسان يقدم مع القرابين الأخرى من الحيوان والثمار ، واستمر الأخذ بهذه العادة فترة طويلة امتدت إلى عهد الإنقسام ، ثم اكتفت الآلهة بجزء من الإنسان بدلاً من أن يضحى بالإنسان كله ، وكان هذا الجزء هو ما يقتطع فى عملية الختان . وقد بقيت عملية الختان رمزاً للتضحية ، وبقى من جزء الختان الحيوان والثمار ، فأصبح يضحى بالبقر والخراف ، أو ببواكير الثمار ، تحرق أمام المعبد مع الجزء الذى يقطع فى الختان[٨٨].

وقد وردت فى الأسفار الخمسة المكونة للتوراة نصوص صريحة فى تحريم القرابين البشرية ، ونهى للإسرائيليين عن تقديمها وبيان بأنهم إذا ما قاموا بتقديمها يكونون قد خالفوا الشريعة ويستحقون العقاب على ارتكابهم لهذا الجرم الشنيع [٨٩].

لكن اليهود لم يلتزموا بما ورد فى شريعتهم من تحريم القرابين البشرية وتركوها وراء ظهورهم وقاموا بتقديم القرابين البشرية إلى آلهة الوثنيين متأثرين بهم ومقلدين لهم ومشتركين معهم فى أداء طقوسهم الوثنية ، بل إن بعضهم أخذ يقدم هذا القرابين إلى الله سبحانه وتعالى وهو فى تصورهم الإله (يهوه) رغم أنه حذرهم من ذلك وتوعدهم بغضبه وسخطه .

ففى عصر الإنقسام نرى عدداً من الملوك يقومون بتقديم القرابين البشرية وانبرى لهم أنبياء العهد القديم يندّدون بهم ويشنعون عليهم ويستنزلون عليهم اللعنات [٩٠].

وإذا كانت الشريعة قد قضت بتقديم القرابين بأنواعها المختلفة لتذكير اليهود بخطاياهم وللتكفير عنها ، لكن اليهود اتخذوها على العكس مبرراً لارتكاب الخطايا ، ماداموا يستطيعون بالقرابين التكفير عنها واجتناب القصاص الذى تستوجبه ، ناظرين إلى هذه الطقوس من ناحيتها الشكلية فحسب ، معتقدين أن مجرد القيام بها يغنى عن الحكمة المقصودة من و

رائها، ومن ثم أهملوا كل الواجبات الروحية والأدبية والإنسانية التى هى جوهر الدين ، وقد اشترك فى ذلك الشعب والكهنة والملوك [٩١] ، جاء فى العهد القديم توبيخ موجه من صموئيل النبى قائلا له "هل مسرة الرب بالمحرقات والذبائح كما باستماع صوت الرب؟ هوذا الإستماع أفضل من الذبيحة ، والإصغاء أفضل من شحم الكباش"[٩٢].

ويرى بعض مؤرخى التربية أن الأعياد والاحتفالات الدينية لعبت دوراً لا تساويه وسيلة تربوية أخرى فى تلقين النشء تراثهم الدينى القومى ، فالأعياد كونت دورة سنوية تلقى وتعلم كل جيل جديد من خلالها الأحداث الهامة فى حياة الشعب وتجربته الدينية والسياسية ، وكل عيد دينى كان مناسبة لتدريب الطفل على العبادة وتلقين مبادئ الدين . وقد نصح الآباء بتعليم الأطفال العيد ومعناه فى أثناء الاحتفال به أو قبله . ونظراً لوجود عنصر الدراما فى هذه الاحتفالات الدينية ، وإعطاء الطفل دوراً هاماً فى أدائها ، فقد كان لها أكبر الأثر فى التأثير على الطفل وتشكيله قومياً ، ففى عيد الفصح على سبيل المثال ، إذا تساءل الطفل عن معنى أكل الفطيرة بدون خميرة ، فإن الأب يجيب بما جاء فى التوراة فى سفر الخروج "هذا لسبب ما صنع الرب لى حين أخرجنى من مصر" ، أما إذا سأل الطفل عن معنى الذبيحة ، فإن الأب بنفس الطريقة يستند إلى التوراة فى الإجابة كما جاء فى سفر الخروج بـ 'أنه بيد قديرة أخرجنا الرب من مصر ، دار العبودية [٩٣] ".

وأما الأيام والأعياد المقدسة التى اتخذت سبيلا للتربية فهى :

١- السبت ، وهو العيد الأسبوعى .
٢- بداية الشهر القمرى ، وله طقوس وصلوات خاصة تؤدى عند رؤية الهلال كل شهر
٣- رأس السنة العبرية .
٤- يوم الغفران ، وهو اليوم العاشر من شهر تشرى .
٥- عيد الظلل ، وهو عيد زراعى يحتفل فيه بتخزين المحصولات الغذائية الزراعية .

٦- الحانوكة أو عيد التدشين ، وهو عيد له طبيعة سياسية وصهيونية وتاريخية فى الخامس والعشرين من شهر كسلو ، وهو بوضعه (فى ديسمبر) يمكن أطفال اليهود من الاحتفال بعيد اسرائيلى فى نفس الفترة التى يحتفل فيها المسيحيون بعيد الميلاد .

٧- البوريم ، أو عيد النصيب ، وكان الكتاب العرب يسمونه "عيد المسخرة" لما جرت به بعض تقاليد يهودية شعبية فى هذا العيد من إسراف فى شرب الخمر والسكر ولبس الأقنعة والملابس التنكرية على طريقة المهرجان الكرنفال [٩٤].

٨- عيد الفصح ، وهو للاحتفال بالربيع ... الخ .

وللدلالة على الوظيفة التعليمية لهذه الأعياد ، نشير إلى ما نقله حسن ظاظا عن الحاخام البلجيكى دافيد برمان ، من أن هناك دروس اتستفاد من ذكرى عيد (البوريم) [٩٥]:

أ - أنه يجب على اليهود أن يتجنبوا اشعال نيران العداوة ضدهم .

ب- إذا حدث واشتعل عداء السامية ضد اليهود ، فمن الواجب على اليهود أن يواجهوخ ويناضلوا بشجاعة .

ج- إن الإرتباط القائم بين أى يهودى وبنى ملته لا يمنعه من الإخلاص والولاء العميق للحاكم الذى يعيش تحت سلطته ولو لم يكن يهودياً.

د- إنه مهما كان اليهودى مندمجاً فى الأمة التى يعيش فيها ، فعليه ألا ينسى ارتباطه بملته .

هـ- إذا أحدق خطر باليهود ، وجب على كل واحد منهم أن يتدخل فى الوقت المناسب .

و- إن أعداء اليهود يستندون إلى خلاف بينهم وبين أفراد من اليهود لكى ينادوا بإبادة اليهود جميعاً .

ز- إن معاداة السامية لا تكف أذاها عن اليهود مهما عظمت درجتهم فى المجتمع .

ح- إن الدفاع الباسل من جانب اليهود هو أقوى سلاح لتصفية معاداة السامية.

ط- إن الصراع والانتصار والثأر الذى يناله اليهود من أعدائهم يجب ألا يكون مقترناً بسلب أو نهب أو رغبة فى الغنيمة .

ى-إنه فى كل مناسبة مفرحة يجب على اليهودى أن يفكر فيما سبقها من آلام ، وبالتالى يفكر فى بأساء ملته كلما أسعدته الظروف .

المعلمون الكبار :

ولا نقصد بذلك المعلم بالمعنى الحرفى المهنى الذى يقوم بالتدريس داخل مؤسسة تعليمية متخصصة ، وإنما نقصد بهؤلاء هنا مجموعة من علماء الدين اليهود الذين انتظموا داخل "فرق" أو "مذاهب" وتركزت مهمتهم فى الدعوة الدينية بين اليهود وتعليمهم فقه اليهودية مع اختلافات فى الرأى والتفسير فيما بينهم .

أهم وأشهر مجموعة من هؤلاء المعلمين "الفريسيون" وأبرز ماكانوا يقيمون عليه تعليمهم لليهود[٩٦]:

١- الاعتراف بجميع أسفار العهد القديم والأحاديث الشفوية المنسوبة إلى موسى وأسفار التلمود ، بل إن فقهاءهم (وهم الذين يطلق عليهم اسم الربانيين) هم الذين ألفوا أسفار التلمود.

٢- الإيمان بالبعث ، فيعتقدون أن الصالحين من الأموات سينشرون فى هذه الأرض ليشتركوا فى ملك المسيح المنتظر الذى قالوا أنه سيأتى لينقذ الناس ويدخلهم فى ديانة موسى .

ومع أن الفريسين اعتقدوا أن الله ميزهم ، فلم يكونوا يتعالون على الشعب ، وقصروا تعاليمهم وكبرياءهم على منافسيهم ، فنالوا مودة اليهود وحسن السمعة بينهم ، بل كانوا موضع الإكبار من أعلياء بنى اسرائيل الذين يأبون مخالطة الأجانب .

وكـانوا أصحـاب رأى وقيـاس ، وإذا وجدوا فـى ظلهمـا مـا ترتـاح إليـه ضمـائرهم ، لـم يكونـوا يبـالون مخالفـة ظـاهر النص مـا دام التـأويل يحتملـه والإجتهاد بسيغه[٩٧].

وللفريسين مواقف تدون لهم فى تاريخهم ، فقد وقفـوا فـى وجـه الوثنيـة الإغريقية والإرهاب الرومانى فى سبيل العقيدة اليهودية موقفاً عظيما، فعندمـا أمـر أنطوكيـوس الملـك السـلوقى أن يضحـى الكهنـة واليهـود بـالخنزير فـى هيكلهم. - وهو محرم فى الشريعة اليهودية - وقـف الفريسـيون وقفـة رجـل واحد ، ورضوا بالموت ولا تمس شعائرهم الدينيـة ، وقتـل منهـم كثـير ، بـل كانوا فى وجه الوثنية منذ أوائل حكم أنطوكيوس ، فقد تمسـكوا بديـانتهم ولـم يتسـامحوا فيهـا واستسـلموا للقتـل الجمـاعي فـى صـبر وعنـاد أثـار إعجـاب أنطوكيوس نفسه[٩٨].

وكلمة الفريسيين معناها المنعزلون والمنشقون ، فهم بذلك يناظرون إلـى حد ما فريق المعتزلة عند المسلمين ، وقد أطلق أعداؤهم عليهم هـذه التسـمية ولذلك فهم يكرهونهـا ويسـمون أنفسـهم (الأحبـار) أو (الأخـوة فـى اللـه)، أو (الربانيون) .

وقـال أحـد البـاحثين : لقـد أسـس الفريسـيون نظـام الفرديـة فـى الديـن ووضعوا طقوساً روحية بحتة ، وتعمقوا فى الآخرة ، وجعلوا الكتاب المقدس ملكاً مشاعاً للجميع ، وفى اجتماعات الكنيست الأسـبوعية كـانوا يلقـون علـى الشـعب عظـات بـالغـات ، عـن حقـائق الديـن وآمالـه استناداً علـى نصـوص التوراة. وكافح الفريسيون كفاحـاً مستبسـلاً فـى سـبيل وضـع الحيـاة تدريجيـاً تحـت سـلطة العقـائد الدينيـة فتـأثرت قلـوب الشـعب اليهـودى بـأوامر الديـن ونواهيه بفضل ما بذله الفريسيون من العناية فى سبيل تقويم العادات وتطبيـق الطقوس الدينية تطبيقاً دقيقاً[٩٩].

ومن أبرز معلمى الفريسيين (هليل) و (شـماى) ، عـرف الأول بوداعتـه وتواضعه واعتماده على الإجتهاد بالرأى ، وعـرف الثـانى علـى العكـس مـن ذلك .

وهناك مثال -ضمن أمثلة متعددة ذكرها التلمود - يكثر الإستشهاد به للتمييز بين أسلوبى الرجليين وموقف كل منهما[١٠٠].

"حدث فى مناسبة أخرى أن جاء أحد الوثنيين إلى شماى وقال له :" اهدنى إلى دينكم ، شرط أن تعلمنى التوراة كلها بينما أقف على رجل واحدة" فانتهره شماى بقضيب كان بين يديه ، وعندما ذهب الوثنى إلى هليل جاء الجواب التالى :"لا تعامل قريبك بما لا تحب أن يعاملك به . هذه هى الشريعة كلها ، أما الباقى فهو مجرد تفسير لها . اذهب وتعلمها".

وهليل هو صاحب الفضل فى صياغة مجموعة من القواعد التى يمكن عن طريقها تعلم التوراة بالاستدلال المنطقى[١٠١]:

١- الاستدلال من الحالة البسيطة إلى المركبة والعكس بالعكس.

٢- الاستدلال على أساس القياس اللغوى فى التوراة ، يعنى أن الشرائع المماثلة لها أحكام مماثلة .

٣- التعميم بالاستناد إلى فقرة خاصة فى التوراة بحيث تصبح هذه الفقرة معيارية فى تفسير فقرات أخرى .

٤- التعميم بالاستناد إلى فقرتين من التوراة ، وهنا يؤخذ القاسم المشترك بين قانونين لكى يطبق على غيرهما من القوانين والأحكام التى تتميز بطابع مماثل .

٥- الإستدلال استناداً إلى العلاقة بين الحدود العامة والحدود الخاصة أى: تحديد العام بالخاص والعكس بالعكس ، وذهاباً من العام إلى الخاص ، ومن الخاص إلى العام .

٦- الإستدلال قياساً على فقرة أخرى فى مكان آخر والإستدلال استناداً على القياس بين فقرتين من التوارة . وهنا يتم تفسير النص التوراتى قياساً على نص آخر يماثله فى المضمون .

٧- الإستنتاج من مبنى العبارة أو استدلال المعنى من المبنى.

أما الفئة الثانية من المعلمين الكبار فهى فئة (الصدوقيون) ، وهى الفئة التى كانت تالية لفئة الفريسيين طوال القرنين السابقين لميلاد المسيح وفى

المرحلة الأولى اللاحقة للميلاد . وقد امتلأت صفحات التاريخ اليهودى فى هاتين المرحلتين بحوادث الخلاف والمشادات بين هذه الفئة وفئة الفريسيين[١٠٢].

وأهم ما ارتكز عليه تعليم هؤلاء :

١- أنهم لا يعترفون إلا بالعهد القديم ، ويرفضون الأخذ بالأحاديث الشفوية المنسوبة إلى موسى (وأما أسفار التلمود فقد ألفها الفريسيون).
٢- أنهم لا يؤمنون بالبعث ولا باليوم الآخر ويعتقدون أن عقاب العصاة وإثابة المحسنين إنما يحصلان فى حياتهم .

وتمتاز هذه الفئة بحرصها على إقامة علاقات ودية مع الشعوب الأخرى، بينما كان الفريسيون ينظرون إلى غير الإسرائيلى نظرتهم إلى عدو، بل كانوا ينظرون هذه النظرة إلى غير أفراد اتجاههم من اليهود أنفسهم.

ومع كثرة وجوه الإختلاف بين الصدوقيين والفريسيين ، ومع اتجاههم الودى نحو الشعوب الأخرى ، فإنهم كانوا لا يقلون عن الفريسيين فى مبلغ عداوتهم للمسيح والكيد له وتعويق رسالته [١٠٣].

وكان الصدوقيون يتولون الكهان والمحافظة على الهيكل ، ومن هنا كان تشددهم فى محاربة البدع وما يخالف نصوص التوراة فى أسفارها الخمسة . وبلغوا أعلى مرتبة فى الشعب اليهودى حيث أوصلتهم إليها السلطة الدينية ، فكانوا حرفيين "نصوصيين".

ومع أنهم كانوا متزمتين حرفيين ، إلا أنهم يوصفون بالتحرر أيضا من حيث انفتاحهم على الأجانب ، كما أباحوا لأنفسهم كل أسباب المتع والنعيم . وكان منهم من فتحوا عقولهم للفلسفة اليونانية ، ولكن قلوبهم كانت عامرة بإيمانهم وعقيدتهم ، وحرصوا على أن يبقى المجتمع الإسرائيلى مستقرا ، لأن ما هم فيه من ترف ورغد وسيادة وصولة يحملهم على المحافظة على السنن القديمة الموروثة ، وتطبيق "تعاليم" ما يعتقدون من أمور دينهم[١٠٤].

والفئة الثالثة (الكتبة) ، وتطلق هذه التسمية على مجموعة من اليهود كانت مهنتهم كتابة الشريعة لمن يطلبها ، فهم أشبه شئ بالنساخ، عن طريق صلتهم بكتابة الشريعة ، عرفوا بعض المعلومات من الكتب التى نسخوها ، فاتخذوا الوعظ وظيفة أخرى لهم بجوار كتابة الشريعة ، وكان الوعظ وكتابة الشريعة وسيلتين اصطنعهما الكتبة لتصيد أموال الناس ، وبخاصة عندما عم الفساد وأنحرف الفريسيون[١٠٥].

وكانوا يسمون أحيانا بالحكماء ، وأحيانا بالسادة (Rabbis) ، كما كان الواحد منهم يُنادى بلقب (أب) عند المخاطبة ، وقد برز الكتبة كحملة للواء الشريعة عندما جذب النفوذ السياسى غيرهم من رجال الدين إلى مجاله ، فأصبح رجال الدين حلفاء للحكام الأجانب من فرس وإغريق ورومان وأخلوا المجال الدينى للكتبة فاحتلوه .

وقد انتشر الكتبة فى كل بلاد اليهود ، يعلمون الشريعة ويقيمون لأنفسهم أحيانا مدارس أو حلقات يلقون فيها دروسهم على من يتتلمذون عليهم. وقد أصبحت فتاوى كثير من مشاهير أولئك الكتبة تقليداً ، أى شريعة شفهية يعتبرها اليهود فى منزلة الشريعة المكتوبة . وقد كثر عدد الكتبة فى عهد المكابيين ، وبلغوا أوج نفوذهم على اليهود فى القرن الأخير قبل المسيح، ومن أشهر الكتبة الذين ورد ذكرهم فى التوراة (عزرا) الذين تزعم اليهود بعد رجوعهم من السبى ، وكان كاهنا وكاتباً فى نفس الوقت ، وقد بذل مجهوداً كبيراً فى تلقين اليهود أحكام شريعتهم بعد أن كانوا قد نسوها أثناء السبى نسياناً يكاد أن يكون تاماً [١٠٦].

أما (الأسينيون) فهم أحد فروع (الفريسيين) ظهروا فى القرن الثالث ق.م، وتحدث عنهم التلمود ، ويمكن تلخيص اتجاههم على النحو التالى[١٠٧]:

١- الاعتزال عن الناس ، والارتباط القائم بين أعضاء الطائفة بعهد مقدس . وقد لاحظ الباحثون التشابه القائم من هذه الناحية بينهم وبين المسيح والحواريين الذين كانوا مرتبطين فى هيئة جماعة تعتزل

الناس ، وكذلك في النهى عن التأكيد باليمين اكتفاء عند الإجابة بلفظتى (نعم) أو (لا) .

٢- كانوا يلبسون الثياب البيضاء ، ويحرصون على نظافتها ونظافة أجسامهم والظهور بمظهر طيب وقور ، وهم فى ذلك يشبهون المسيح والحواريين أيضا ، فنحن نعلم أن كلمة حوارى معناها لابس الثياب البيضاء .

٣- كانوا يأخذون أنفسهم بالتقشف والقناعة ، فلا يقبلون هدية أو زكاة أو راتبا من أحد ، وكان على كل منهم أن يعيش من عمل يديه ، وربما كان علماؤهم يحترفون الطب حتى تجتمع لهم فضيلة علاج الأجسام والأرواح .

٤- كانوا يحرمون الإستعباد والرق ويقولون بالحرية للناس جميعاً .

٥- كانوا يؤمنون بضرورة التمسك بالتوراة وأحكامها ولو جر ذلك عليهم القتل [١٠٨].

٦- هم أكثر الفئات إيماناً بالقضاء والقدر.

٧- نظراً لانتشار تعاطى الطب بينهم فقد قوى فيهم الإيمان بالأعمال السحرية وتأثير البروج والأفلاك على صحة الإنسان، ثم على مقدراته .

٨- واستتبع هذا ، إيمانهم بالأرواح والملائكة .

٩- كانوا يلتزمون بالفضيلة ، ويبتعدون عن الشر، ولا يلجأون إلى العنف أبداً ، ومن هنا اكتسبوا احترام البسطاء من الناس[١٠٩].

المؤسسة التعليمية :

ونقصد بها تلك المجموعة من الممارسات والجهود التى تمت قصدا للعمل التعليمى فى أماكن خصصت لذلك . صحيح أن كل الوسائط السابقة "

علمت" و"رّبت" ، لكن ذلك كان ضمن مهام أخرى كانت تقوم بها . أما هنا فقد اقتصر القصد على التعليم .

وقد بدأ التعليم اليهودى فى صورة بسيطة لتعلم القراءة والكتبة كى تعاون بعض أفراد الكهنة والأنبياء والكتبة وعدد من موظفى السلطة الحاكمة فى أداء وظائفهم ومهامهم . ومن المحتمل أن شارك فى ذلك أيضا عدد من الإمراء . لكن هذا لا يعنى وجود "مدرسة" بمعنى الكلمة ، إذا الحق أننا لا نجد إشارة إلى هذا الاسم فى أى سفر من أسفار العهد القديم . ومن ثم فإن هؤلاء الذين تعلموا القراءة والكتابة ، قد تعلموها بطريقة فردية محدودة[١١٠].

وإذا كنا قد أشرنا إلى (الكتبة) فى الجزء السابق ، فإن لفظ (كاتب) اكتسب معنى هاماً بعد الأسر البابلى ، فهو يشير إلى هؤلاء المعلمين الذين استهدفوا التوفر على قراءة وترجمة وتفسير الشريعة اليهودية ، وبذلك يكونون أول فئة اختصت بمهنة التعليم ، وتطلب هذا منهم أن يوفروا نسخاً مما كانوا يقومون بشرحه وترجمته وتفسيره ليتداولها طلابهم ككتب دراسية . وكان من الضرورى أن ينشئوا من أجل هذا عدداً من المدارس ليقوموا فيها بتعليم ما يتصل بالدين اليهودى لعدد محدود عن التلاميذ .

وقد استطاعت هذه الفئة من المعلمين أن تهيمن على الحياة الدينية والفكرية لليهود ، ووصل الأمر بهم أحيانا إلى أن يحكموا اليهود فى فلسطين وخاصة بعد سقوط الهيكل عام ٧٠م وأطلقوا على "الكاتب" اسم " رابى Rabbi" أى "مدرسنا" .

وكان تدريس الكتاب المقدس شفوياً ، فاضطر كل من أراد أن ينبغ فى التفسير كى يصير معلماً أو مستشاراً دينياً أن يشحن ذاكرته شحناً يحملها عبئاً ثقيلا ، وكان كثير من التدريس يتم كذلك بصحن المعبد .

وإذا كان الكاتب فقيراً ، يصبح من الصعب عليه الاعتماد على مهنة التعليم لأنها لم تكن تدر دخلاً يستطيع به أن يسد حاجياته المعيشية، ومن هنا كان على الكاتب الفقير أن يعمد إلى الاحتراف بحرفة أخرى يكسب منها

عيشه . ولم يكن التدريس قاصراً على فئة دون أخرى فى كل الأحوال ، بل كان لكل فرد الحق فى أن يحضر تلك الدروس كما رأينا بعد ذلك فى حلقات التعليم بالأزهر .

وكان التعليم يتم شفوياً جدلياً ، فالمدرس يسأل الطلبة رأيهم فى موضوع خاص وهم يجيبون ، ولهم الحق أن يسألوه فى أى نقطة غامضة فى الموضوع أو يناقشوه فيما يقول . وكانوا يجتهدون فى استظهار ألفاظ المعلم لفظة لفظة (١١١).

وإذا كان الكتبة فى معظم الأحيان قد يلقون دروسهم التعليمية فى المعبد، إلا أن عدداً منهم مارس هذه المهمة فى بيوت الدراسة (بيت هامدراش بالعبرية) وكان يشرف على هذه البيوت أعلام من حكماء اليهود الذين كان لهم جهدهم الواضح فى تطوير التراث الدينى اليهودى مما ترك أثراً بارزاً على من تعلموا على أيديهم وخاصة من خلال اجتهاداتهم التشريعية ، وتعد بيوت الدراسة هى الشكل الأول الذى تطورت منه ما أصبح يعرف بالحلقة التلمودية (١١٢).

وكان من أبرز من كانت لهم حلقات دراسية تعج بالتلاميذ والمريدين (هليل ، وشماى) اللذان سبقا أن أشرنا إليهما من الفريسيين .

وقد انعكس الاختلاف بينهما على مدرستيهما لا من حيث المضمون التعليمى والتفسيرات المتصلة به فحسب ، بل امتد ليشمل سياسة القبول ، ففى الوقت الذى اشترط فيه شماى توافر الحكمة والتواضع والنسب الكريم المعروف على من يريد تعلم التوراة فى مدرسته ، فإن هليل كان لا يشترط ذلك ، ولعل هذا ما أتاح الفرصة لكثيرين أن يتعلموا ويتفوقوا ويصبحوا علماء بارزين كان لهم دورهم فى إثراء الفكر الدينى اليهودى.

ولم يكن بيت الدراسة يحتوى على قاعات أو فصول دراسية ، فالموجود قاعة واحدة . ومن عجيب ما عرف من أمر التعليم فيه أن التلاميذ كان عليهم أن يتلقوا تعليمهم وهم واقفين لاعتقاد معين كان سائداً وهو أن هذه "الهيئة" التى يتلقى بها التلميذ تعليم التوراه إنما تشير إلى تبجيله واحترامه للتوراه

حتى أن التطور لما أدى بهم إلى أن يزودوا القاعة بمقاعد فيما بعد استنكر البعض هذا واعتبروه انحرافاً !

لكن ما يذكر بالتقدير هنا هو الحرص على ألا تكون المقاعد مصفوفة على صورة صفوف كما هو شائع حتى الآن ، بل نظمت بصورة "حلقة "على أساس أن هذا الشكل يتيح تفاعلاً أفضل بين المعلم وتلاميذه .

وكان للمعلمين احترام عظيم حتى أنهم كانوا يدعون "أولياء أمور المدينة الحقيقيين" ، وقد رأى الربانيون أن المعلم يجب أن يكون متزوجاً وكبيراً فى السن . وكانوا يقولون فى هذا الغرض "مثل الذى يتلقى العلوم عن شاب كمثل الرجل الذى يأكل العنب الحصرم ويشرب النبيذ الجديد ، بخلاف المتعلم على يد المتقدم فى السن ، فإنه يشبه الرجل الذى يأكل العنب الناضج اللذيذ ويشرب النبيذ العتيق".

وكانت الفضائل التى يجب على المعلم التحلى بها هى لين الجانب والصبر وألا يكون محباً لنفسه ، بل ميالاً إلى النفع العام ، ولقد جاء فى التلمود ما معناه" إذا كان كل من معلمك ووالدك فى حاجة إلى مساعدتك ، فساعد معلمك قبل أن تساعد والدك لأن والدك وهبك الحياة فى هذه الدنيا ، بينما معلمك ضمن لك تلك الحياة فى الآخرة"(١١٣).

ومن أحسن ما جاء فى التلمود خاصاً بطرق التعليم :"إذا أردت أن تحفظ مقداراً كبيراً دفعة واحدة ، فإنك لا تحفظ شيئاً أصلاً".

وكان المعلمون يعتمدون على الذاكرة فى تدريسهم فيقولون "الاستظهار أولاً ثم الفهم" ، و أما فيما يخص الذاكرة فلقد قيل "التلاميذ واحد من أربعة : تلميذ يستظهر بسرعة وينسى بسرعة وهذا يخسر أكثر مما يكسبه، وتلميذ يستظهر بصعوبة ولا ينسى بسهولة ، وهذا يكسب أكثر مما يخسره ، وتلميذ يستظهر بسرعة ولكنه لا ينسى بسرعة وهذا حظه وافر . وتليمذ يستظهر ببطء وينسى بسرعة وهذا تعيس الحظ (١١٤).

ومن تعليماتهم الخاصة بالاستظهار :

- إذا قرأ التلميذ القطعة التي يريد استظهارها بصوت جهوري ، فإن ذلك يثبتها في الذاكرة .

ولقد قابلت زوجة أحد الربانيين ذات يوم تلميذا يستظهر قطعة وهو يقرؤها بصور خافت فوبخته وقالت له أن تلك طريقة عقيمة للاستظهار.

- وقال الرباني عقيبا " يجب على المعلم أن يجعل الدرس مشوقاً لذيذا في نظر التلاميذ بطرق واضحة وأن يكرره مراراً حتى يعلق بأذهان التلاميذ ويتمكنوا من تلاوته واستظهاره بفصاحة تامة . ولقد قيل أنه كان لأحد الربانيين تلميذ فكان يتلو عليه الدرس "اربعمائة مرة" حتى يتأكد من فهمه إياه ، وفيما نرجح ، ففي هذه الراوية مبالغة واضحة .

وكانوا يوجهون اهتمامهم إلى الطفل في بداية تعلمه لأنه قيل "ما يحفظ في الصغر يبقى في الذاكرة كما يبقى الحبر على الورق الجديد" .

ونظراً إلى أن قوى الطفل العقلية لا تنمو بنفس درجة نموهم البدني، طلب التلمود من المعلمين أن يرأفوا بحال هؤلاء الأطفال الذين لا يجيدون دروسهم حتى السنة الثانية عشرة من عمرهم . أما بعد ذلك فيمكن للمعلم أن يعاملهم بشدة .

كذلك طالب التلمود من المعلمين ألا يدرسوا الموضوع الواحد إن كان طويلاً في درس واحد ، بل يقسمونه أجزاء صغيرة ويدرسون كل قسم على حدة . وساق مثلا على ذلك بحكمة الله ، إذ أنه لم يعلم موسى النبي جميع الوصايا دفعة واحدة بل قسمها أقساماً وعلمه قسماً قسماً حتى يثبت كل قسم على حدة في قلبه.

واستنتجوا من ذلك أن الله الذى هو قادر على كل شئ إذا كان قد فعل ذلك ، فالأجدر بالمعلم الذى هو أحد أفراد البشر أن يسير على نفس النهج(١١٥).

وليس هناك وضوح كاف يمكن أن يجعل الباحثين يؤكدون تاريخ نشأة المدرسة الابتدائية ، وهنا تقابلنا أراء أربع :

أ - رأى يرجع نشأتها إلى تأثر اليهود بإقامتهم فى بابل فى فترة السبى حيث أن المعبد نفسه إنما ظهر أثناء هذه الفترة .

ب - ورأى ثان يرى أنها ظهرت بعد العودة من السبى .

ج - ورأى ثالث يربط ظهورها بتأثير الثقافة الهيلنية وهذا يعنى أنها لم تظهر قبل القرن الثانى ق.م .

د - ورأى رابع يرجع ظهورها بعد الميلاد ببضع عقود .

وأيا كان الرأى ، فهناك جملة من المتغيرات التى دفعت إلى ظهور مدرسة تعليم المرحلة الأولى ، من أهمها (١١٦):

- التعرف على عدد غير قليل من مظاهر الحضارة البابلية وخاصة ما يتصل منها بالتعليم فى المدارس .

- الوعى بأهمية القراءة والكتابة لمعرفة ما تتضمنه الشريعة المدونة خاصة وقد شاع اتجاه من لفتوا الانتباه إلى أن الجهل بهذه الشريعة وإهمالها فى الحياة اليهودية هو سبب ما أصاب اليهود من مصائب أدت إلى خراب ديارهم وسبيهم إلى بابل .

- تضاؤل قدرة الأسرة اليهودية على تعليم التراث الدينى والقومى وخاصة خلال الفترة التى حدث فيها تزاوج بين اليهود وغيرهم أثناء فترة السبى البابلى .

- الانتقال من الإعتماد الأساسى على الزراعة إلى العمل بالتجارة ، ومن المعروف أن العمل التجارى كان عاملا

هاماً فى كثير من المجتمعات القديمة فى الشعور بالحاجة إلى تعلم القراءة والكتابة .

- وإذا كان التعرف على الحضارة البابلية قد ساعد على ظهور المدرسة اليهودية فإن سيادة الثقافة الهيلينية كان لابد أن ينتج رغبة فى إيجاد مؤسسة تتوفر على مهمة التعليم

وتضمن المنهج التعليمى فى هذه المدرسة التى عرفت باسم (بيت سيفر) ، أى بيت الكتاب ، على التوراة ، والقراءة والكتابة ، وأحيانا الحساب ، ومن المحتمل أن أضيف إلى ذلك - فى بعض الأحيان - أجزاء أخرى من العهد القديم(١١٧).

وقد نصح التلمود باستعمال الرأفة واللين مع الطفل فى بداية تعلمه ، لكن، إذا ما أظهر عناداً أو عدم التفات ، عندئذ وجب ضربه ضرباً خفيفاً وعقابه بإحدى عقوبات الحرمان .

وبالنسبة لكبار التلاميذ ، فقد ألح التلمود على ألا يضربوا ، ويرد ذلك بما يأتى :

أ - أن الضرب ربما يجرح عواطفهم .
ب- أنه ربما ألجأهم إلى المقاومة.

ويلفت نظرنا هنا ما نصبح به التلمود وكذلك المعلمين بقوله : "إذا اضطررت يوماً إلى ضرب تلميذ ، فلا تك قاسياً . وشجع كل من أظهر تقدماً ونجح ، وأما من لا ينجح ، فأبقه بفرقته ولا تطرده ، بل اتركه مع إخوانه لأنه سيضطر ذات يوم أن يلتفت ويسابق الآخرين"(١١٨).

كذلك أكد أحد الربانيين على ضرورة " ألا يضرب المعلم إلا التلميذ الذكى المتكاسل لأنه لا فائدة من ضرب تلميذ غبي لا تساعده مواهبه الفعلية على فهم ما يلقيه المعلم .

وإذا كان العقاب أساسيا فى التعليم ، فإن إثابة المجد مما يعين على حسن التعلم . ومن هنا أشار البعض إلى معلمين حرصوا على أن يحضروا معهم تحفاً وهدايا ومأكولات لذيذة لإعطائها للمجتهدين من التلاميذ .

ومصدقا لهذا جاء بالتلمود :" يجب أن تلطم الأطفال بيد وتلاطفهم بيدين"، ويجب ألا ننسى أن ساعات الدراسة كانت طويلة.

وفى كل المؤسسات و الوسائط اليهودية ، كان هناك حرص شديد على التعليم بالعبرية إعتزازا شديدا وصل بهم إلى درجة التقديس ، حتى لقد وصفها أحد شعراء العصور الوسطى بقوله[١١٩]:

لغتنا لغة العجائب
وكلماتها كلمات الأنبياء
إنها ضيقة ولكنا تتسع لنا ،
وقصيرة ، ولكنا تكفينا جميعاً .

وأول من وصفها بالقدسية هم حاخامات التلمود ، ويستخلص من كلامهم أن قدسية هذه اللغة ترجع إلى أنها هى اللغة التى كتب بها تراثهم الدينى والأدبى ، فهى لغة التوراة وسائر أسفار العهد القديم والمشنا وبعض التفاسير الدينية (المدراشيم)[١٢٠].

كذلك فإنها الوسيلة الوحيدة التى تربط بين اليهود وخاصة فى فترات التشتت وبالتالى فهى تحمى اليهودى من الإندماج فى الجماعات غير اليهودية.

ونجد فى التلمود إحدى القصص الخرافية التى يدللون بها على علو شأن العبرية ، ووجوب التمسك بها [١٢١]:

فقد زعموا أن اللغة العبرية هى اللغة الوحيدة التى لم يستطع فرعون أن يتكلمها ، وهذه القصة رواها(ربى حيا بن أبا) نقلا عن (ربى يوحانان) ، وجاء فيها أنه عندما أعلى فرعون مصر شأن يوسف ، اعترض على ذلك المنجمون ، وقالوا له : هل سترئس علينا عبدا باعه سيده بعشرين قطعة من

الفضة ؟ فأجاب فرعون بأنه فعل ذلك لأنه يتصف بصفات لا تتوافر إلا في الملوك ، فطلبوا منه أن يتأكد من توافر إحدى هذه الصفات فيه وهي معرفة لغات العالم .

عندئذ جاء جبريل إلى يوسف وحاول أن يعلمه هذه اللغات ، ولكن يوسف لم يفلح في ذلك ، فأضاف جبريل إلى حروف اسمه حرفاً من حروف اسم الله فصار (يهوسف) ، وبهذا تمكن من معرفة هذه اللغات ومن اجتياز الاختبار الذي عقده له فرعون في الصباح التالي والذي كان بمثابة حديث دار بينهما بهذه اللغات ، وبعد انتهاء الاختبار كلم يوسف فرعون بالعبرية ، فلم يفهم كلامه وعندئذ طلب فرعون من يوسف أن يعلمه هذه اللغة فعلمها له ، ولكنه عجز عن تعلمها ، فطلب من يوسف أن يقسم له أنه لن يفشي هذا السر لأنه كان معيباً ألا يعرف الملك أية لغة في العالم ، فأقسم يوسف له أن سيلبي رغبته.

وكان انتشار اليهود بعد السبي البابلي في نواحي الفرات من الأسباب القوية التي أدت إلى انتشار اللغة الآرامية بين الطبقات اليهودية ثم رسخت قدمها بينهم حتى شعر علماء اليهود وأحبارهم بالخطر المحدق بلغتهم القومية فنشطوا إلى مقاومة اللغة الآرامية مقاومة شديدة وعملوا بكل الوسائل الممكنة لدفع خطرها عن لغتهم ، فكللت مساعيهم بالنجاح بعد رجوع اليهود من بابل، وظل تقدم اللغة العبرية حتى بلغ ذروة المجد والعز في عهد المكابيين الذي انتهى بالفتح الروماني سنة ٣٧ ق.م [١٢٢].

وكان أحبار اليهود يكرهون اللغة الآرامية ، وكانوا يعملون على بث كرهها في نفوس اليهود حتى نقل عن بعض عظمائهم قوله[١٢٣]: "لا يحادث الإنسان أخاه بلغة آرام" .

والسبب في ذلك أنهم كانوا يخشون على لغتهم القومية من نفوذ اللغة الآرامية بخلاف اليونانية التي لم يكن لها من النفوذ ما يخشى منه على العبرية .

ولكن الآرامية رسخت قدمها برغم هذه الجهود لأن الطبقات غير المتعلمة منهم كانت قد نسيت العبرية حتى إضطر الأحبار إلى أن يدونوا تراجم التوراة باللغة الآرامية التى أضحت لغة البحث والمجادلة فى شرائع التوراة وتفسيرها .

الهوامش

١- هدى عبد السميع حجازى : التربية عند العبرانيين قبل التهجير إلى بابل وبعد الصورة منها . (دراسات تربوية) ، عالم الكتب ، القاهرة، ج٤١ ، ١٩٩٢ ، ص ١٩٨ .
٢- الحضارات السامية القديم ، ص ١٦٨ .
٣- زكى شنودة ، المجتمع اليهودى ، ص ٤٧٥ .
٤- قصة الحضارة ، م١ ،ج٢ ، ص ٣٧٤ .
٥- سفر التكوين ، الإصحاح / ٣٨ .
٦- ثروت أنيس الأسيوطى : نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين ، ص٥٤.
٧- سفر التكوين ، الإصحاح / ٣١ .
٨- سفر راعوث الإصحاح / الرابع .
٩- سفر هوشع ، الإصحاح / الثالث .
١٠- حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص ٢٣٠ .
١١- سفر الأمثال ، الإصحاح / ٢١ .
١٢- حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص ٢٣٢ .
١٣- سفر التكوين ، الإصحاح / ٢٠ .
١٤- ثروت أنيس الأسيوطى ، ص ١٥٦ .
١٥- قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٣٧٩ .
١٦- أسفار : الخروج / ١٥ ، القضاة / ٤،٩ ، الخروج/٢٠ .
١٧- حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص ٢٣٦ .
١٨- هدى عبد السميع حجازى ، ص ١٥٨ .
١٩- المرجع السابق . ص ١٥٩ .
٢٠- زكى شنودة , ص ٤٩٣ .

٢١- المرجع السابق ، ص ٤٩٤ .
٢٢- سفر الخروج / ٢١ .
٢٣- سفر اللاويين / ٢ .
٢٤- سفر التثنية / ٢٧ .
٢٥- رشاد عبد الله الشامي : الوصايا العشر ، ص ٢٠٧ .
٢٦- المرجع السابق ص ٢٠٧ .
٢٧- سفر التثنية / ٦ .
٢٨- هدى عبد السميع حجازى ، ص ١٦٠ .
٢٩- رشاد عبد الله الشامي ، الوصايا العشر ، ص ٢٠٩ .
٣٠- محمد بيومى مهران:دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، ص ٩.
٣١- محمد أحمد المراغى ، أشعيا ، بنى بنى اسرائيل ، ص ص ١١٧ ، ١١٨ .
٣٢- عباس محمود العقاد : ابراهيم ، أبو الأنبياء ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ١٥٩ .
٣٣- محمد خليفة حسن أحمد : ظاهرة النبوة الإسرائيلية ، دار الزهراء ، القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ٣٠ .
٣٤- زكى شنودة : المجتمع اليهودى ، ص ٧٣ .
٣٥- ظاهرة النبوة الإسرائيلية ، ص ١٣ .
٣٦- أحمد شلبى : اليهودية ، ص ١٦٨ .
٣٧- المرجع السابق ، ص ١٦٩ .
٣٨- سفر عاموس ، الإصحاح الخامس .
٣٩- قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٣٤٩ .
٤٠- المرجع السابق ، ص ٣٥٠ .
٤١- زكى شنودة ، المجتمع اليهودى ، ص ٨٦
٤٢- سفر التثنية ، الإصحاح الرابع .
٤٣- سفر إرميا ، الإصحاح (٢٥) .
٤٤- زكى شنودة ، المجتمع اليهودى ، ص ٨٩ .

٤٥- الحضارات السامية القديمة ، ص ١٤٥ .
٤٦- المرجع السابق . ص ١٥١ .
٤٧- ظاهرة النبوة الإسرائيلية ، ص ٨٨ .
٤٨- المرجع السابق . ص ٩٢ .
٤٩- المرجع السابق ، ص ١٠٦ .
٥٠- سفر أشعياء ، الإصحاح الأول .
٥١- المرجع السابق .
٥٢- سف أشعياء ، الإصحاح العاشر .
٥٣- ظاهرة النبوة الإسرائيلية ، ص ٥٥ .
٥٤- سفر القضاة ، الإصحاح (١٧) .
٥٥- ظاهرة النبوة ، ص ٥٦ .
٥٦- سفر الخروج ، الإصحاح (٤٠) .
٥٧- أشعيا ، بنى بنى اسرائيل ، ص ٧١ .
٥٨- سفر العدد الإصحاح (١٦) .
٥٩- أشعيا ، بنى بنى اسرائيل ، ص ٧٢ .
٦٠- سفر الخروج ، الإصحاح (٢٨) .
٦١- سفر اللاويين ، الإصحاح (٢١) .
٦٢- زكى شنوده : المجتمع اليهودى ، ص ١٤١ .
٦٣- المرجع السابق ، ص ١٤٢ .
٦٤- المرجع السابق . ص ١٥٥ .
٦٥- أحد شلبى : اليهودية ، ص ٢١٤ .
٦٦- سفر التثنية : الإصحاح ١٧ .
٦٧- محمود أحمد المراغى ، أشعيا ، ص ٨٣ .
٦٨- زكى شنودة ، المجتمع اليهودى ، ص ١٥١ .
٦٩- الحضارات السامية القديمة ، ص ١٥٣ .
٧٠- هدى عبد السميع ، ص ١٦١ .
٧١- المرجع السابق . ص ١٦٢ .
٧٢- قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٣٤٦ .

٧٣- زكى شنودة ، المجتمع اليهودى ، ص ١٦٣ .
٧٤- سفر الخروج ، الإصحاحات : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠ .
٧٥- محمد بيومى مهران ، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، ج٣ ، ص١٢٤ .
٧٦- المرجع السابق . ص ١٢٥ .
٧٧- المرجع السابق . ص ١٢٦ .
٧٨- زكى شنودة : المجتمع اليهودى ، ص ١٨٢ .
٧٩- المرجع السابق ، ص ١٨٣ .
٨٠- هدى عبد السميع ، ص ١٧٤ .
٨١- حسن ظاظا ، الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص ١٦٩ .
٨٢- المرجع السابق . ص ١٧٠ .
٨٣- المرجع السابق . ص ١٧١ .
٨٤- سفر التثنية ، الإصحاح السادس .
٨٥- سفر التثنية ، الإصحاح (١١) .
٨٦- سفر العدد ، الإصحاح (١٥) .
٨٧- زكى شنودة ، المجتمع اليهودى ، ص ١٨٥ .
٨٨- أحمد شلبى ، اليهودية ، ص ٢١٦ .
٨٩- فتحى محمد الزغبى : القرابين البشرية والذبائح التلمودية ، مطبعة غباشى ، طنطا ، ١٩٩٠ ، ص ١٥٤ .
٩٠- المرجع السابق . ص ١٥٨ .
٩١- زكى شنوده ص ١٩٩ .
٩٢- سفر صموئيل ، الإصحاح الأول .
٩٣- هدى عبد السميع ، ص ص ١٥٩ ، ١٦٠ .
٩٤- حسن ظاظا ، الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص ص ١٩٩ - ٢٠٧ .
٩٥- المرجع السابق ، ص ص ٢١٦ - ٢١٧ .
٩٦- على عبد الواحد وافى ، اليهودية واليهود ، ص ٨٤ .
٩٧- أحمد عبد الغفور عطار : الديانات والعقائد فى مختلف العصور ، ج٢ ، ص ٣٧٢ .

٩٨- المرجع السابق ، ص ٣٧٣ .
٩٩- أحمد شلبى ، اليهودية ، ص ٢٢٩ .
١٠٠- أسعد رزوق : التلمود والصهيونية ، ص ١٣٠ .
١٠١- المرجع السابق . ص ١٣١ .
١٠٢- على عبد الواحد وافى ، ص ٨٦ .
١٠٣- المرجع السابق . ص ٨٨ .
١٠٤- الديانات والعقائد فى مختلف العصور ، ج٢ ، ص ٣٧٠ .
١٠٥- أحمد شلبى ، اليهودية ، ص ٢٣٢ .
١٠٦- زكى شنودة ، المجتمع اليهودى ، ص ٣٠٨ .
١٠٧- حسن ظاظا ، الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص ٢٧٦٨ .
١٠٨- المرجع السابق . ص ٢٧١ .
١٠٩- المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .
١١٠- هدى عبد السميع ، ص ١٦٣ .
١١١- أحمد فهمى القطان ، تاريخ التربية ، مطبعة مدرسة طنطا الصناع، ١٩٢٣ ، ج١ التربية قبل الإسلام ، ص ص ١٣٤ - ١٣٥ .
١١٢- هدى عبد السميع ، ص ١٦٩ .
١١٣- أحمد فهمى القطان ، ص ١٤٣ .
١١٤- المرجع السابق . ص ١٤٤ .
١١٥- المرجع السابق . ص ١٤٥ .
١١٦- هدى عبد السميع ، ص ١٧٦ .
١١٧- المرجع السابق . ص ١٧٨ .
١١٨- أحمد فهمى القطان ، ص ١٤٦ .
١١٩- فاروق محمد جودى : الصهيونية واللغة ، دارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ١٢ .
١٢٠- المرجع السابق . ص ١٣ .
١٢١- المرجع السابق . ص ١٨ .
١٢٢- اسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٢٩ ، ص ٩٦ .
١٢٣- المرجع السابق . ص ٩٧ .

الفصل السادس

أخلاقيات بنى اسرائيل فى القرآن الكريم

قد يرى البعض من علماء التأريخ التربوى أنه لا يصح ونحن بصدد التأريخ لبنى اسرائيل أن نعتمد على القرآن الكريم مصدراً .

ووجهة نظرنا أننا لا نستطيع أن نغرر بالقارئ ونؤكد له أننا قد امتثلنا لمن يقولون أن الباحث العلمى لابد وأن يتجرد مما يمكن أن "يلون" تفكيره وهو بصدد التأريخ بصفة خاصة ، ذلك أن التجرد التام مستحيل ، فكاتب هذه السطور "مسلم" ، وهو باعتباره مسلماً يسلم بأن القرآن الكريم هو كلام الله الموحى به "لفظاً ومعنى" على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ثم فلابد أن يكون صادقاً .. وليس هذا فحسب ، بل هو أكثر المصادر صدقاً .

هذه ناحية ...

ومن ناحية أخرى فنحن فى الجزء الحالى لسنا بصدد (وقائع) و(أحداث) وإنما بصدد "أحكام خلقية" و"اتجاهات سلوكية " حكم بها سبحانه وتعالى وأشار إليها مما يتصل بموضوع دراستنا ، أفيمكن ألا نجمعها ونبسطها أمام القارئ حتى تكتسب الصورة الكلية ما ننشده لها من تكامل الجوانب وشمول العناصر والمكونات؟

ولا نريد بذلك أن نوحى بأننا نتعامل مع القرآن الكريم باعتباره مصدراً تاريخيا ، إذ لم يكن هذا هو هدف القرآن فى حديثه عن أقوام سابقين وأحداث سالفة وإنما كان يهمه بالدرجة الأولى دلالات الأحداث ومضامينها

الأخلاقية، ومن هنا لا نرى القرآن يهتم كثيراً بتحديد موقع الحدث وزمانه وإنما : القيم التى يمكن الخروج بها من هذا الحدث وذلك .

من هذا المنطلق ، نسوق فيما يلى جملة 'أخلاقيات' يمكن استنباطها وفهمها من سياق آيات القرآن الكريم ، وهو الأمر الذى يهتم به مؤرخ التربية أكثر من غيره . أنه السلوك البشرى ..

١- اليهود أهل كتاب :

جاء الخطاب القرآنى فى كثير من الآيات الكريمة معتبراً اليهود من "أهل الكتاب " ، حيث يشاركهم فى هذا الوصف المسيحيون ، فاليهود نزلت عليهم التوراة لكى تسدد خطاهم وترشدهم إلى طريق الحق ، وبهذا المعنى جاء الإنجيل بالنسبة للمسيحيين ، إرشاداً وتوجيهاً نحو الطريق المستقيم .

واليهود باعتبارهم أهل كتاب ، كان واجباً عليهم أن يتسقوا بسلوكهم مع التوجيهات الإلهية .

ويجئ الخطاب القرآنى بأسلوب يقوم على الإشعار بالتقدير حتى يشجع اليهود على عدم التنكر لهداية الحق ، فها هو ذا يقول :" الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون . وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين"(١) .

وفى موقع آخر يؤنب الله اليهود ، فهم باعتبارهم أهل كتاب ما كان ينبغى لهم أن يكتموا الحق وينكروه ، وما كان ينبغى لهم أن يفعلوا ما فعلوه من حيث دعوة الآخرين إلى إنكار الحقيقة ، يقول عز وجل :" قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ، والله شهيد على ما تعملون . قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء ، وما الله بغافل عما تعملون (٢)".

وبذلك ترى أن وصف القرآن لليهود بأنهم أهل كتاب فيه اعتراف بما ورثوه من الهدى ، وتمييز لهم عن غيرهم من الوثنيين . وإذا كان القرآن الكريم قد ساق هذا الوصف على سبيل توبيخهم وتقريعهم فلأنهم لم يعملوا بمقتضى ما أمرهم به كتابهم ولم ينقادوا للحق الذى يعرفونه معرفة لا لبس فيها ولا خفاء [٣].

وإذا كان الخطاب القرآنى فى الجزئين السابقين قد تحدث عن اليهود ضمن أهل الكتاب ، فهو هنا يخصهم وحدهم بالذكر ، "إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قيلا . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون"[٤].

فالتوراة –كما أنزلها الله – كتاب الله الذى جاء لهداية بنى اسرائيل، وإنارة طريقهم إلى الله ، وطريقهم فى الحياة . وقد جاءت تحمل عقيدة التوحيد ، وتحمل شعائر تعبدية شتى ، وتحمل كذلك شريعة .

أنزل الله التوراة لا لتكون هدى ونورا للضمائر والقلوب بما فيها من عقيدة وعبادات فحسب ، ولكن كذلك لتكون هدى ونورا بما فيها من شريعة تحكم الحياة الواقعية وفق منهج الله ، وتحفظ هذه الحياة فى إطار هذا المنهج، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا أنفسهم لله ، فليس لهم فى أنفسهم شئ ، إنما هى كلها لله ، وليست لهم مشيئة ولا سلطة ولا دعوى فى خصيصة من خصائص الألوهية يحكمون بها للذين هادوا -- فهى شريعتهم الخاصة نزلت لهم فى حدودهم هذه وبصفتهم هذه . كما يحكم بها الربانيون والأحبار ، وهم قضاتهم وعلماؤهم ، وذلك بما أنهم قد كلفوا المحافظة على كتاب الله ، و كلفوا أن يكونوا عليه شهداء ، فيؤدوا له الشهادة فى أنفسهم ، بصياغة حياتهم الخاصة وفق توجيهاته ،-كما يؤدوا له الشهادة فى قولهم بإقامة شريعة بينهم[٥].

وإذا كان قارئ القرآن يجد مواقف عدة يصف سبحانه وتعالى من خلالها اليهود صفات سيئة ، إلا أنه كان ينبه دائما على أن هذه الأحكام ليست فى كل الأحوال مما يستغرق (كل) ، اليهود ، فهناك عدد قليل ، ممن استحقوا الإستثناء من الذم وتقبيح الفعل .

وها هو عز وجل يقول :" وإذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين ، وقولوا للناس حسنا، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون(٦)" ، فهنا يستثنى الله عز وجل قلة منهم خافت على مسيرتها المستقيمة .

ويشير سبحانه وتعالى إلى أن أهل الكتاب ليسوا على درجة واحدة فيما هو شر وسئ ، وإنما لا يخلو الأمر من بعض منهم يستقيمون على الطريق ويتبعون هدى الله ، يقول تعالى : "ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين (٧)" .

فمثل هؤلاء المستقيمين على الطريق يتسمون بجملة من السمات التى تدعوا إلى الفخر والتقدير ، ومن هنا فالله يطمئن مثل هؤلاء بأن ما يفعلوه من خير لا بد وأن يحصدوا ثماره الطيبة لأنه جل وعلا هو الأعلم بحقيقة التقوى وحقيقة المتقين ، ولابد أن يثيبهم على ما عملوا من خير . ولعل فى هذه النعوت الطيبة لدليل واضح على إنصافه جل وعلا للفاضل من أهل الكتاب.

وبعد عدد من الآيات التى كشفت عن صور متعددة من الأعمال القبيحة والصفات المذمومة التى صورت السلوك اليهودى اللاأخلاقى ، تجئ آية قرآنية كريمة تؤكد أن الراسخين فى العلم منهم ليسوا كذلك ، بل هم على طريق الحق سائرين وعلى درب الفضيلة والخير يتوجهون ، يقول سبحانه وتعالى : "لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك

وما أنزل من قبلك ، والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة ، والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً [٨]".

٣- المخادعة والعدوانية :

فلقد دأب اليهود طوال سنوات العهد المحمدى على أن يكيدوا لمن آمن من العرب برسالة الإسلام بمختلف الأساليب التى تصطنع الدس والوقيعة والتفرقة ، وتتعدى ذلك إلى السعى إلى صرف الذين آمنوا عن طريق الإيمان يقول سبحانه وتعالى :

"قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون. قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون . يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم"[٩].

وقد ذكر ابن جرير فى تفسيره عن زيد بن أسلم ، قال[١٠] : مرشاس ابن قيس – وكان شيخاً قد عسا(كبر) فى الجاهلية ، عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم – على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى فى جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان منهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة[١١] بهذه البلاد ، والله ما نالنا منهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتى شاباً من اليهود، وكان معه – فقال: أعمد إليهم فاجلس معهم وذكرهم يوم بُعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ، ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك ، فتنازعوا وتفاخروا ، حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب – أوس بن قيظى أحد بنى حارثة بن الحارث من الأوس وجبار ابن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج – فتقاولا ثم قال أحدهما

لصاحبه : إن شئتم والله رددناها الآن جذعة[١٢] ، وغضب الفريقان ، وقالوا: قد فعلنا ، السلاح ، السلاح ، موعدكم الظاهرة ، والظاهرة : الحرة ، فخرجوا إليها وتحاور الناس ، فانضمت الأوس بعضها إلى بعض والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التى كانوا عليها فى الجاهلية ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال "يا معشر المسلمين . الله . الله ، أتدعون بدعوى الجاهلية. تدعون وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام وأمركم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم من الكافرين ،وألف بينكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا ؟"

فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح من أيديهم ، وبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله كيد عدو الله شاس بن قيس وما صنع ، ومن هنا نزلت هذه الآية .

ثم يخاطب الله عز وجل المؤمنين : إنكم إذا أصغيتم إلى ما يلقيه هؤلاء اليهود من مثيرات الفتن واستجبتم لما يدعونكم إله فكنتم طائعين لهم فإنهم لا يقنعون منكم بالعودة إلى ما كنتم عليه من العداوة والبغضاء ، بل يتجاوزون إلى ما وراء ذلك ، وهو أن يردوكم إلى الكفر[١٣].

وفى صدر الآيات يوجه سبحانه وتعالى الخطاب إلى محمد صلى الله عليه وسلم داعيا إياه أن يقول لليهود ، مبالغة فى تقريعهم ، وإزاحة لأعذارهم، لأى شئ تصرفون المؤمنين عن الإيمان بالحق وتمنعون من آمن بمحمد عن الإستمرار على اتباعه ، وتثيرون الفتنة والوقيعة فى صفوف المسلمين .

ثم كشف القرآن الكريم عن حالهم فى الصد عن سبيل الله ، فقال تبغونها عوجاً ؟ أى : تطلبون العوج لسبيل الله الواضحة ، والميل بها عن القصد والإستقامة ، وتريدون أن تكون ملتوية غير واضحة فى أعين المهتدين ، كما التوت أنفسكم وانحرفت عقولكم[١٤].

والآيات تحمل كذلك تعنيفاً من الله تعالى للذين يفكرون من أهل الكتاب على عنادهم للحق وكفرهم بآيات الله وصدهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله وبما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين والسادة المرسلين صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين ، وما بشروا به ونوهوا به من ذكر النبى الأمى ، وقد توعدهم الله على ذلك وأخبر أنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم من الأنبياء ومعاملتهم الرسول بالتكذيب والجحود والعناد [١٥].

ولجأ اليهود إلى المخادعة ، بأن يتظاهروا بالإيمان فترة ، ثم يرجعون إلى الكفر بعد ذلك ، وفى ذلك قال تعالى :

"وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذين أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون"[١٦].

فهنا إشارة إلى مكيدة يهودية أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم ، وهو أنهم يظهرون الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس، إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب فى دين المسلمين ، ولهذا قالوا (لعلهم يرجعون) قال العوفى عن ابن عباس ، قالت طائفة من أهل الكتاب: إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمنوا ، وإذا كان آخره فصلوا صلاتكم ، لعلهم يقولون : هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا [١٧].

ولا شك أن هذه الطريقة الماكرة التى سلكها اليهود لصرف المسلمين عن دينهم تنبئ بخبثهم ومسالكهم الشيطانية ، لأن إعلانهم الكفر بالإسلام بعد إظهاره الإيمان به ، من شأنه أن يدخل الشك فى القلوب ، ويوقع ضعاف العقول والإيمان فى حيرة واضطراب ، خاصة وأن العرب قوم أميون ، ومنهم من كان يظن أن اليهود أعرف منهم بمسائل العقيدة والدين ، وأنهم ما ارتدوا عن الإسلام إلا بعد اطلاعهم على نقص فى تعاليمه[١٨].

وفى ذلك قال الشيخ محمد عبده ، أن هذا النوع الذى تحكيه الآية من صد اليهود عن الإسلام ، مبنى على قاعدة طبيعية فى البشر ، وهى أن من علامة الحق ألا يرجع عنه من يعرفه ، وقد فقه هذا هرقل إمبراطور الروم فكان مما سأل عنه أبو سفيان من شئون النبى صلى الله عليه وسلم عندما دعاه إلى الإسلام ، "هل يرجع عنه من دخل فى دينه؟ فقال أبو سفيان : لا ". وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا : لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلو فيه ، وأطلعوا على باطنه وخوافيه ، ولا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته ، ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب . فإذا قيل أن بعض الناس قد ارتدوا عن الإسلام بعد الدخول فيه رغبة لا حيلة ومكيدة كما كاد هؤلاء ، فما نقول فى هؤلاء؟ وقد أجاب محمد عبده بأن هذا يرجع إلى قاعدة أخرى ، وهى أن بعض الناس قد يدخل فى الشئ رغبة فيه لاعتقاده أن فيه منفعة له لا لاعتقاده أنه حق فى نفسه ، فإذا بداله فى ذلك ما لم يكن يحتسب وخاب ظنه فى المنفعة فإنه يترك ذلك الشئ[١٩].

ومن أعجب ما رواه القرآن عن اليهود - الذين هم أهل كتاب - من أنهم ناصروا المشركين وأعلنوا أن هؤلاء أفضل من الذين اتبعوا رسول الله محمد ، يقول تعالى: "ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، يؤمنون بالجبت[٢٠] والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين أمنوا سبيلا "[٢١].

لقد كان الذين أوتو الكتاب أولى الناس أن يتبعوا الكتاب وأن يكفروا بالشرك الذى يعتنقه من لم يأتهم من الله هدى، وأن يحكموا كتاب الله فى حياتهم ، فلا يتبعوا الطاغوت - وهو كل شرع لم يأذن به الله وكل حكم ليس له من شريعة الله سند - ولكن اليهود - الذين كانوا يزكون أنفسهم ، ويتباهون بأنهم أحباء الله - كانوا فى الوقت ذاته يتبعون الباطل والشرك باتباعهم للكهانة ، وتركهم الكهان والأحبار يشرعون لهم ما لم يأذن به الله ، وكانوا يؤمنون بالطاغوت ، وهو هذا الحكم الذى يقوم على غير شريعة الله، وهو طاغوت لما فيه من طغيان بادعاء الإنسان إحدى خصائص الألوهية

- هى الحاكمية - وبعدم انضباطه بحدود من شرع الله ، فلزمه الحق والعدل[٢٢].

وقد أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس ، قال كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظة حى بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق وأبو رافع والربيع بن أبى الحقيق وأبو عامر ووحوح بن عامر وهودة بن قيس . فأما وحوح وأبو عامر وهودة فمن بنى وائل وكان سائرهم من بنى النضير فلما قدموا على قريش قالوا : هؤلاء أحبار اليهود ، أهل العلم بالكتب الأولى فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم ، فقالوا دينكم خير من دينه و أنتم أهدى منه وممن اتبعه ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية[٢٣].

ولأن اليهود دأبوا على الإستهزاء برسالة الإسلام والتهكم بشعائره وعباداته فقد نهى الله عز وجل عن موالاتهم ومصافاتهم ، فقال عز من قال:" يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون [٢٤].

إنها ملابسة مثيرة لكل من له حمية المؤمن ، الذى لا يرى لنفسه كرامة إذا أهين دينه ، وأهينت عبادته ، وأهينت صلاته ، واتخذ موقفه بين يدى ربه مادة للهزء واللعب ، فكيف يقوم ولاء بين الذين آمنوا وبين أحد من هؤلاء الذين يرتكبون هذه الفعلة ؟ ويرتكبونها لنقص فى عقولهم ، فما يستهزئ بدين الله وعبادة المؤمنين به ، إنسان سوى العقل ، فالعقل -حين يصح ويستقيم- يرى فى كل شئ من حوله يوحى بالإيمان بالله ، وحين يختل وينحرف لا يرى فيما حوله ما يوحى بذلك ، لأنه حينئذ تفسد العلاقات بينه وبين هذا الوجود كله ، فالوجود كله يوحى بأن له إلها يستحق العبادة والتعظيم ، والعقل حين يصح ويستقيم يستشعر جمال العبادة لإله الكون وجلالها كذلك ، فلا يتخذها هزوا ولعبا وهو صحيح مستقيم [٢٥].

٣- الكفر بنعم الله :

من سنن ا لله فى خلقه أن أحداً لو فعل خيراً لآخر فإن الآخر يكون له ممتنا وله شاكراً بحيث إذا طلب منه معروفاً، يحرص على القيام به باعتبار أن هذا الطلب فرصة طيبة لرد دين عليه . لكن ماذا لو لم يحدث هذا وقابل هذا الآخر ما فعل له من خير بجحود وإصرار على العداوة وفعل عكس ما يطلب منه ؟!!

ذلك هو حال اليهود لا مع آخرين من البشر مثلهم ، وإنما مع من أوجدهم من العدم وسبب حياتهم ومأكلهم ومشربهم وكل ما يتمتعون به..

وهكذا تجئ آيات عدة من القرآن الكريم تذكر بنى اسرائيل بما أنعمه الله عليهم لعل ذلك يكون مدعاة لهم للشعور بالحياء والإمتثال لأوامر الله ولنواهيه يقول جل وعلا :

"يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوفى بعهدكم وإياى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً وإياى فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين" (٢٦).

فقد اختص بنو اسرائيل بالخطاب اهتماما بهم لأنهم أقدم الشعوب الحاملة للكتب السماوية والمؤمنة بالأنبياء المعروفين ، ولأنهم كانوا أشد الناس على المؤمنين ، وهذه النعمة التى أطلقها فى التذكير لعظم شأنها هى نعمة جعل النبوة فيهم زمناً طويلاً ، أو أعم ، وكان الواجب عليهم أن يكونوا أكثر الناس له شكرا ، وأشدهم لنعمة ذكرا(٢٧) .

ومن مستتبعات التقدير لنعم الله على بنى اسرائيل ، أن يؤمنوا بما أنزل الله من تعليم التوراة وكتب الأنبياء كالتوحيد والنهى عن الفواحش

والمنكرات، والأمر بالمعروف وما يتصل بهذا من الإرشاد الموصل إلى السعادة ، ولكنهم لا يفعلون ذلك .

وأشارت الآيات إلى سلوك مرذول يشيع بين اليهود ألا وهو تلبيس الحق بالباطل وكتمان الحق مع علمهم به ، ومن أمثلة ذلك ما يفتريه الرؤساء والأحبار فيكون صاداً لهم عن سبيل الله وعن الإيمان بنبيه عن ضلال وجهل ، وهو لبس أصول الدين بالمحدثات والتقاليد التى زادوها على الكتب المنزلة بضرُوب من التأويل والاستنباط من كلام بعض المتقدمين وأفعالهم ، فكانوا يحكمون هذه الزيادة فى الدين حتى فى كتب الأنبياء ويعتذرون بأن الأقدمين أعلم بكلام الأنبياء وأشد اتباعا لهم ، فهم الواسطة بينهم وبين الأنبياء، وعلى من بعدهم الأخذ بما يقولون دون ما يقول الأنبياء الذين يصعب عليهم فهم كلامهم بزعمهم ، ولكن الله لم يقبل هذا العذر منهم فأسند إليهم ذلك اللبس وكتمان الحق الموجود فى التوراة إلى اليوم [٢٨].

ومن الآيات الأخرى التى ذكرت معلنة ما خص به الله بنى اسرائيل من النعم "ولقد نجينا بنى اسرائيل من العذاب المهين . من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين . ولقد اخترناهم على علم على العالمين . وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين" [٢٩].

وهذه الآيات تشير إلى أن الله نجى بفضله وكرمه بنى اسرائيل من العذاب المهين الذى كان ينزله بهم فرعون وجنده ، بأن أغرقه ومن معه أمام أعينهم لأنه – أى فرعون – كان ظلوماً غشوماً . وفضلا عن ذلك ، فقد اصطفى سبحانه وتعالى بنى اسرائيل – عن علم منه بما يكون منهم – على عالم زمانهم وآتاهم من النعم والمعجزات ما فيه اختبار لقلوبهم ، وامتحان لنفوسهم ، فكانت نتيجة هذا الاختبار والإمتحان ، أن كفروا بنعم الله ، وكذبوا برسله وقتلوهم ، فتوعدهم الله فى الدنيا بأن يسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة . أما فى الآخرة فمأواهم جهنم وبئس المهاد[٣٠].

ومن نعم الله على بنى اسرائيل أنه فضلهم على العالمين :"يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين[٣١].

وتفضيل بني اسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم، فأما بعد ما عتوا عن أمر ربهم وعصوا أنبياءهم ، وجحدوا نعمة الله عليهم ، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم ، فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة ، وقضى عليهم بالتشريد وحق عليهم الوعيد [٣٢].

وتذكيرهم بتفضيلهم على العالمين ، هو تذكير لهم بما كان لهم من فضل الله وعهده ، وإطماع لهم لينتهزوا الفرصة المتاحة على يدى الدعوة الإسلامية ، فيعودوا إلى موكب الإيمان ، وإلى عهد الله ، شكراً على تفضيله لآبائهم ، ورغبة فى العودة إلى مقام التكريم الذى يناله المؤمنون .

ومع الإطماع فى الفضل والنعمة ، التحذير من اليوم الذى يأتى وصفه "لا تدرى نفس عن نفس شيئاً" .

ويقول تعالى كذلك عن صور فضله :"وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون"[٣٣] ، والغمام : جمع غمامة ، وهى السحابة ، وخصه بعض علماء اللغة بالسحاب الأبيض ، والمن : المرجح أنها مادة صمغية تسقط على الشجر تشبه حلاوته حلاوة العسل . والسلوى : اسم جمع وحداته : سلواه ، وهو طائر برى لذيذ اللحم سهل الصيد يسمى بالسمانى [٣٤].

وتظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم ، كان فى مدة تيههم بين مصر والشام ، قال السدى ، إنه لما دخل بنو اسرائيل التيه قالوا لموسى عليه السلام : كيف لنا بماها هنا أين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن ، فكان ينزل على شجر الجنزبيل ، والسلوى ، فكان يأتى أحدهم فينظر إلى الطير فإذا كان سمينا ذبحه وإلا أرسله فإذا سمن أتاه ، فقالوا هذا الطعام فأين الشراب ؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه إثنتا عشر عينا، فشرب كل سبط من عين ، فقالوا هذا الشراب ، فأين الظل ؟ وظلل عليهم الغمام [٣٥].. وهكذا.

فالآية الكريمة قد أشارت إلى جحودهم النعمة بقوله تعالى "وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ".

٤- الكذب وتحريف الكلام:

قال عز وجل :" أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون . أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون (٣٦)" ، فهذه الآيات تشير إلى أن اليهود كانوا يسمعون التوراة كما أنزلها الله سبحانه وتعالى ، ثم يتعمدون تحريف ما فيها، مما لا يوافق أغراضهم ، ولا يتمشى مع أهوائهم ، من بعد ما فهموها ، فقدماؤهم حرفوها بتحليل الحرام ، وتحريم الحلال ، كما قال مجاهد .

ومعاصروهم للنبى - صلى الله عليه وسلم - حرفوها بتغيير نعت النبى، وتبديل آية الرحم ، وغير ذلك ، حتى يحتفظوا لأنفسهم بالزعامة الدينية : فعلوا ذلك (من بعد ما عقلوه) ، أى فهموه حق الفهم، دون أن تكون لهم شبهة فيما حرفوه (وهم يعلمون) أنهم مبطلون كاذبون، أو معناه ، وهم يذكرون من غير نسيان ، فهم - فى جريمتهم هذه - عامدون مصرون . وإذا كان أمرهم كذلك ، فلا يطمع المؤمنون فى إيمانهم ، فلا يؤمن من ضاعت أمانته وخبثت سريرته واجترأ على كلام الله بالتحريف مع العمد والإصرار (٣٧).

ثم عقب الله اتصافهم بالخيانة العلمية ، باتصافهم بالنفاق فى الإيمان فقال: "وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا.." ، أى ومن صفاتهم التى تدعوا إلى اليأس من إيمانهم ، أنهم منافقون ، فقد كان بعضهم ، إذا لقوا الذين آمنوا نافقوهم ، وأظهروا أنهم مؤمنون برسول الله وما أنزل عليه ، فإذا ما فرغ وخلا بعض اليهود - وهم الذين لم يظهروا النفاق - إلى بعض آخر وهم المنافقون منهم - بعدما سمعوهم يحدثون المؤمنين ببعض ما كتموه من

التوراة ، قالوا -لائمين لإخوانهم المنافقين منكرين عليهم: أتخبرون المؤمنين بما فتح الله عليكم من أبواب العلم التى كتمناها عنهم ، ليقيموا عليكم به الحجة فى كتاب ربكم وشرعه [٣٨].؟

كذلك تشير هذه الآيات إلى أن اليهود اتخذوا من دينهم (رابطة جنسية) ولم يجعلوه هداية روحية ، ولذلك كانوا يتصرفون باختلاف المذاهب والآراء، ويحرفون كلمه عن موضعها بحسب الأهواء .

ثم ترشد الآيات إلى طور من أطوار البشر فى زمن الإصلاح، وهى أن جماهير الناس يقعون فى الحيرة بين الهداية الجديدة والتقاليد القديمة ، لا ينظرون إلى الحق فيتحروا اتباعه أين كان ، ولكنهم يفكرون فى منفعتهم الخاصة ، يقولون : نخشى أن نجهر بالجديد فيخذل حزبه ويتفرق شمله فنكون من الخاسرين ، ولا نأمن إن بقينا على القديم أن يتقلص ظله ويذل أهله فنكون مع الضالين ، فالحزم أن نوافق كل حزب نخلو به ونعتذر إلى الآخر إذا هو علم بما كان منا إلى أن نتبين الفوز فى أحد الفريقين ، فيكونوا هكذا مذبذبين [٣٩].

ومن مظاهر كذبهم وتحريفهم الكلام ، يقول سبحانه وتعالى كذلك : "... ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين ، لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه . يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا . أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم . لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم"[٤٠].

روى أن هذه الآيات نزلت فى قوم من اليهود ارتكبوا جرائم – تختلف الروايات فى تحديدها – منها الزنا ومنها السرقة ، وهى جرائم الحدود فى التوراة ، ولكن القوم كانوا قد اصطلحوا على غيرها ، لأنهم لم يريدوا أن يطبقوها على الشرفاء فيهم فى مبدأ الأمر ، ثم تهاونوا فيها بالقياس إلى الجميع ، وأحلوا محلها عقوبات أخرى من عقوبات التعازير ، فلما وقعت منهم هذه الجرائم فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تآمروا على أن يستفتوه فيها ، فإذا أفتى لهم بالعقوبات التعزيرية المخففة عملوا بها ، وكانت

هذه حجة لهم عند الله .. فقد أفتاهم بها رسول وإن حكم فيها بمثل ما عندهم فى التوراة لم يأخذوا بحكمه .. فدسوا بعضهم يستفتيه[٤١] ، ومن هنا حكاية قولهم :" إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا" .

وهكذا بلغ منهم العبث ، وبلغ منهم الاستهتار وبلغ منهم الالتواء أيضا فى التعامل مع الله والتعامل مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هذا المبلغ ، وهى صورة تمثل أهل كل كتاب حين يطول عليهم الأمد ، فتقسوا قلوبهم ، وتبرد فيها حرارة العقيدة ، وتنطفئ شعلتها ، ويصبح التخلص من هذه العقيدة وشرائعها وتكاليفها هو الهدف القوى يبحث له عن الوسائل ، ويبحث له عن (الفتاوى) لعلنا نجد مخرجاً وحيلة.

وللمفسرين فى بيان معنى التحريف وكيفيته تأويلات كثيرة ، من أهمها[٤٢] :

١- قال الإمام الرازى ، أن فى كيفية التحريف وجوه : أحدها أنهم كانوا يبدلون اللفظ بلفظ آخر . الثانى : أن المراد بالتحريف إلقاء الشبه الباطلة والتأويلات الفاسدة وصرف اللفظ عن معناه الحق إلى معنى باطل بوجوه من الحيل اللفظية ، كما يفعله أهل البدع فى زماننا هذا بالآيات المخالفة لمذاهبهم . الثالث : أنهم كانوا يدخلون على النبى صلى الله عليه وسلم ويسألونه عن أمر فيخبرهم ليأخذوا به ، فإذا خرجوا من عنده حرفوا كلامه.

٢- وقال صاحب الكشاف : قوله تعالى (يحرفون الكلم عن مواضعه) ، يميلونه عنها ويزيلونه ، لأنهم بدلوه ووضعوا مكانه كلماً غيره ، فقد أمالوه عن مواضعه التى وضعه الله فيها وأزالوه عنها[٤٣].

٣- وقال إبن كثير ، قوله تعالى (يحرفون الكلم عن مواضعه) ، أى يتأولنه على غير غير تأويله ، ويفسرونه بغير مراد الله – تعالى – قصدا منهم وافتراء [٤٤].

٥- سوء سلوكهم مع الله والملائكة والأنبياء:

وتلك قمة تردى التربية الأخلاقية والتربية الدينية ، ذلك أن سوء السلوك هنا لا يتعلق بأفراد الناس- وإن كان بطبيعة الحال مرذولا ومستنكرا - وإنما يتعلق بخالق الكون وملائكته ورسله !

يقول عز وجل :" قالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين"(٤٥).

يقول عكرمة عن بداية الآية ، إن الذى قال هذا هو (فنحاص بن عازوراء) وأصحابه ، وكان لهم أموال ، فلما كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم قلّ ما لهم ، فقالوا : إن الله بخيل ، ويد الله مقبوضة عنا فى العطاء ، فالآية خاصة فى بعضهم (٤٦).

إنه نموذج من قولهم الأثيم فى أبشع صورة .وذلك من سوء تصور اليهود لله سبحانه ، فقد حكى القرآن الكريم الكثير من سوء تصورهم ذاك . وقد قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء عندما سئلوا النفقة ! وقالوا : يد الله مغلولة ، يعللون بذلك بخلهم ، فالله - بزعمهم - لا يعطى الناس ولا يعطيهم إلا القليل، فكيف ينفقون ؟!!

وقد بلغ من غلظ حسهم ، وجلافة قلوبهم ، ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذى أرادوه وهو البخل بلفظه المباشرة ، فاختاروا لفظاً أشد وقاحة وتهجماً وكفراً فقالوا : يد الله مغلولة !

إن الله سبحانه وتعالى يصحح هذا التصور الفاسد السقيم ، فعطاياه لا تكف ولا تنفذ لكل مخلوق ظاهرة للعيان .. شاهدة باليد المبسوطة ، والفضل الغامر والعطاء الجزيل ، ناطقة بكل لسان .

ويحدث الله رسوله – صلى الله عليه وسلم – عما سيبدو من القوم ، وعما سيحل بهم ، بسبب حقدهم وغيظهم من اصطفاء الله له بالرسالة ، وبسبب ما تكشفه هذه الرسالة من أمرهم في القديم والحديث. فبسبب من الحقد والحسد ، وبسبب من انفضاح أمرهم فيما أنزل الله إلى رسوله ، سيزيد الكثيرون منهم طغياناً وكفراً لأنهم وقد أبوا الإيمان، لابد أن يشتطوا فى الجانب المقابل ، ولابد أن يزيدوا تبجحاً ونكراً وطغياناً وكفراً .

ثم يحدثه عما قدر الله لهم من التعادى والتباغض فيما بينهم ، ومن إبطال كيدهم [٤٧] .

وفى موقف آخر قال تعالى : "لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء . سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد"[٤٨].

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس [٤٩] : لما نزل قوله تعالى (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ، قالت اليهود : يا محمد : افتقر ربك فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله (لقد سمع الله قول ...) رواه ابن مردويه وابن أبى الحاتم . وقال محمد بن اسحق : حدثنى محمد ابن أبى محمد عن عكرمة أنه حدثه عن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس ، فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له (فنحاص)، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر يقال له أشيع فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص . اتق الله واسلم ، فوالله أنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله قد جاءكم بالحق من عنده ... فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا منه لأغنياء ، ولو كان غنيا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنياما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر وضربه بشدة فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو أبا بكر ، فلما حكى له ، أنكر اليهود ما قال ، فأنزل الله (لقد سمع الله قول ..).

وقد قرن الله – سبحانه – قولهم المنكر هذا ، بفعل شنيع من أسلافهم وهو قتلهم الأنبياء بغير حق وذلك لإثبات أصالتهم في الشر ، واستهانتهم بالحقوق الدينية ، وللتنبيه على أن قولهم هذا ليس أول جريمة ارتكبوها ، ومعصية استباحوها ، فقد سبق لأسلافهم أن قتلوا الأنبياء بغير حق ، وللإشعار بأن هاتين الجريمتين من نوع واحد ، وهو التجرؤ على الله – عز وجل – ، فقتل الأنبياء فيه تعد على أمناء الله ، الذين اختارهم لتبليغ رسالاته. وقولهم (إن الله فقير) فيه تطاول على ذات الله وكذب عليه ، ووصفه بما لا يليق به – سبحانه – وبذلك كله يكونون قد عتوا عتواً كبيراً ، وضلوا ضلالاً بعيداً (٥٠).

أما بالنسبة لموقفهم من ملائكة الله فيقول عز وجل :"قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ، مصدقا لما بين يديه ، وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين" (٥١).

وقد جاء في أسباب النزول روايات ، منها: أن عبد الله بن صوريا من علمائهم سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الملك الذي ينزل عليه بالوحي ، فقال : هو جبريل ، فزعم أنه عدو اليهود ، وذكر من عداوته أنه أنذرهم خراب بيت المقدس ، فكان . ومنها : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل من مدراسهم فذكر جبريل ، فقالوا : ذلك عدونا ، يطلع محمداً على أسرارنا ، وأنه صاحب كل خسف وعذاب ، وميكائيل صاحب الخصب والسلم . الخ ، وهذا القول هراء وخطؤه بين ، وإنما عنى القرآن بذكره ورده، لأنه مؤذن بتعنتهم وعنادهم ، وشاهد على فساد تصورهم وعدم تدبرهم ، ليعلم الذين كانوا ينتظرون ما يقول أهل الكتاب فيه أن لا قيمة لأقوالهم ولا اعتداد بمرائهم وجدا لهم (٥٢).

وقال الشيخ محمد عبده ، أن الله أثبت وعيده لهم بعد بيان فساد العلة التي جاءوا بها ، وهم لم يدعوا عداوة هؤلاء كلهم ، ولكنهم كذلك في نفس الأمر ، فأراد أن يبين حقيقة حالهم في الواقع ، وهي أنهم أعداء الحق وأعداء

كل من يمثله وينقله ويدعو إليه ، فالتصريح بعداوة جبريل كالتصريح بعداوة ميكال الذى يزعمون أنهم يحبونه ، وأنهم كانوا يؤمنون بالنبى لو كان هو الذى ينزل بالوحى عليه. ومعاداة القرآن كمعاداة سائر الكتب الإلهية ، لأن الغرض من الجميع واحد . ومعاداة محمد صلى الله عليه وسلم كمعاداة سائر رسل الله ، لأن وظيفتهم واحدة(٥٣).

هذا وفى سورة المائدة آيتان كريمتان صرحتا بأن بنى اسرائيل كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم وشهواتهم ، قابلوه بالتكذيب والعناد وتارة بالقتل والاعتداء ، وهاتان الآيتان هما قوله تعالى : "لقد أخذنا ميثاق بنى اسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا ، كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقاً يقتلون . وحسبوا أن تكون فتنة فعموا وصموا ، ثم تاب الله عليهم ، ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون(٥٤)".

ومعنى الآيتين : لقد أخذنا العهد الموثق على بنى اسرائيل بأن يعبدوا الله وحده ، وأن يعملوا بما أمرناهم به ، وأن ينتهوا عما نهيناهم عنه ، وأرسلنا إليهم رسلاً ليبشروهم وينذروهم ، ولكنهم كانوا كلما جاءهم رسول من رسلنا بما يخالف أهواءهم ويضاد شهواتهم ، قابلوه تارة بالعصيان والتكذيب ، وتارة بالقتل والترهيب ، وحسب أولئك الفاسقون من بنى اسرائيل ألا يصيبهم بلاء وعذاب بقتل الأنبياء وتكذيبهم ، فصموا عن الحق ، وأمنوا بأس الله فتمادوا فى فنون الغى وصموا عن سماع المواعظ والعبر من الهداة الأخيار ، ثم تابوا فتاب الله عنهم ، ولكن عاد أكثرهم إلى العمى والصمم عن الانقياد إلى للحق والعمل بما أمرتهم به رسلهم (٥٥)!

٦- التراجع عما تعاهدوا عليه :

فمن قواعد الأخلاق الإنسانية أن يفى الإنسان بما وعد به . هذا أيضا فى مجال التعامل بين الأفراد وبين الأمم والشعوب ، فما بالنا إذا كان هذا الوعد يتصل بالله عز وجل ؟!!

لقد كشف القرآن الكريم عن أن بنى اسرائيل قد ساروا على عكس ما تقضى به هذه القاعدة الأخلاقية ، فتراجعوا عما عاهدوا الله عز و جل عليه. يقول سبحانه وتعالى " وإذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأتموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منك وأنتم معرضون"[٥٦].

فهنا شروع فى ذكر بعض القبائح التى ورثها اليهود المعاصرون للرسول عن أسلافهم ، مما يجعل الإيمان مستبعداً منهم ، ويحمل المؤمنين على ألا يطمعوا فيه ، ذلك أنهم تولوا مدبرين عما أخذ عليهم العهد به من الفضائل ، ومن كانوا كذلك ، فلا ينبغى أن يطمع المؤمنون فى إيمانهم[٥٧].

والميثاق – بالتوحيد وغيره من العقائد وأمهات الشرائع والأخلاق – مأخوذ على جميع الأمم ، كما أخذ على بنى اسرائيل ، فلا خلاف بينها إلا فى فروع الشرائع ، فإنها تختلف تبعاً للزمان والأجيال ، رعاية لمصلحة البشر بحسب التطور الإنسانى . والمراد من أخذ الله الميثاق عليهم بالأمور الآتية : توصيتهم بالعمل بها توصية مؤكدة فى التوراة التى أنزلها على موسى عليه السلام [٥٨].

وقد اشتمل الميثاق على وجوب إفراد الله -تعالى- بالعبادة والتوحيد ، وهو الأهم ، ولذلك قدم الأمر به على سواه ، ثم عطف عليه الأمر بالإحسان إلى العباد فى معاملتهم . ولما كانوا متفاوتين فى ذلك ، بدأ بأحقهم وهما الوالدان ، ثم أتبعهما ذوى القربى ، رعاية لحق القرابة، ثم اليتامى لضعفهم، ثم المساكين سداً لحاجتهم ، ثم سائر الناس ، بما هو مقدور لكل أحد ، وهو الإحسان بالقول ، بأن يلقوهم بالطيب من القول ويجتنبوا إيذاءهم ، فهذا النوع من الإحسان سهل هين على النفوس ، يقدر عليه كل انسان ويستطيع أداءه فى كل حال ، فلا عذر لتاركه .

ومع أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة (المشروعتان فى ديانتهم) داخلان فى عبادة الله التى أخذ بها الميثاق على بنى اسرائيل ، فإنه -تعالى- أفردهما بالذكر – بعد الإحسان إلى الوالدين والأقربين وأصحاب الحاجات ،

لعظم شأن هاتين العبادتين ، ولما للصلاة من الأثر الكبير فى تربية النفس ، والنهى عن الفحشاء والمنكر ، والخشوع لعظمة الله ، ولما فى الزكاة من تخفيف ويلات الفقر والبؤس عن المحتاجين ، وحسن الصلة بالمجتمع عن طريق الإحسان إليه [٥٩] .

ومع ذلك فقد أعرضوا عن الميثاق الذى أخذه الله عليهم .. ولم يلتزموا به! ثم يقول عز وجل :

"وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض . فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون[٦٠].

لقد كان هذا الذى يواجههم به سبحانه وتعالى واقعاً قريب العهد قبيل غلبة الإسلام على الأوس والخزرج كان الأوس والخزرج مشركين ، وكان الحيان على عداء شديد مع المسلمين . وكان اليهود فى المدينة ثلاثة أحياء ترتبط بعهود مع هذا الحى وذاك من المشركين . كان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزج ، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس [٦١] ، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه ، فيقتل اليهودى أعداءه ، وقد يقتل اليهودى اليهودى من الفريق الآخر - وهذا حرام بنص ميثاق الله معهم - وكانوا يخرجونهم من ديارهم إذا غلب فريقهم وينهبون أموالهم ويأخذون سباياهم - وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم - ثم إذا وضعت الحرب أوزارها قادوا الأسارى ، وفكوا أسر المأسورين من اليهود هنا أو هناك ، عندهم أو عند حلفائهم أو أعداء حلفائهم على السواء - وذلك عملا بحكم التوراة .

وهذا التناقض هو الذى يواجههم به القرآن ، وهو يسألهم فى استنكار : "أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟" . وهذا هو نقض الميثاق الذى يتهددهم عليه بالخزى فى الحياة الدنيا ، والعذاب الأشد فى الآخرة .

قال الشيخ محمد عبده ، أن فى التعبير عن المخالفة والمعصية بالكفر دليل على أن القرآن يصرح هنا ، وفى آيات كثيرة ، بأن من يقدم على الذنب لا تضطرب نفسه قبل إصابته ، ولا يتألم ويندم بعد وقوعه فيرجع إلى الله تعالى تائباً ، بل يسترسل فيه بلا مبالاة بنهى الله تعالى عنه وتحريمه له ، فهو كافر به ، لأن المؤمن بأن هذا شئ حرمه الله تعالى ، المصدق بأنه من أسباب سخطه وموجبات عقوبته لا يمكن ألا يكون لإيمان قلبه أثر فى نفسه ، فإن من الضروريات أن لكل اعتقاد أثراً فى النفس ولكل أثر فى النفس تأثير فى الأعمال . وهذا هو الوجه فى الأحاديث الصحيحة الناطقة بأنه "لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر شاربها وهو مؤمن"[٦٢].

وفى سورة أخرى تجئ آيتان تصرحان أيضا بأن الله -تعالى- أخذ على بنى اسرائيل العهد بأن يقوموا بما أمرهم به من تكاليف ، لكنهم - كالعادة - وفى الواقع السلوكى ، ساروا على غير الطريق الذى رسم فى العهد ، يقول عز من قال : "ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم أثنى عشر نقيبا، وقال الله إنى معكم ، لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، وأمنتم برسلى ، وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسنا ، لأكفرن عنكم سيئاتكم ، ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل . فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظاً مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم ، فاعف عنهم واصفح ، إن الله يحب المحسنين"[٦٣].

والمعنى : فبسبب نقضهم للميثاق الذى أخذه الله عليهم والتزموا بأحكامه طردهم عز وجل من رحمته واستحقوا مقته وغضبه، وجعل قلوبهم غليظة قاسية ، منزوعة منها الرأفة والرحمة ، بعيدة عن قبول الحق ، وذلك لأنهم

لما تعودوا نقض العهود ، ودرجوا على العصيان والمخالفة ، صلبت قلوبهم وجمدت نفوسهم لا تتأثر بالمواعظ ولا تلين للآيات والنذر [٦٤].

وفى وصفهم بذلك الوصف ، تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما كان يلقاه من اليهود المعاصرين له من غدر وأذى ونقض للعهد .

٧- الدنيوية :

فتشير كافة الأحداث والوقائع التى مرت ببنى إسرائيل وسلوكهم العام كيف أنهم أشد ما يكون تمسكاً بالحياة الدنيا حتى وكأنها قد أصبحت غاية فى ذاتها ، وما يترتب على هذا من خصال واتجاهات سلوكية سلبية .

قال عز وجل :"ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون"[٦٥].

فهنا بيان لحقيقة حال اليهود من الإخلاد إلى حياة الدنيا، فهم أشد الناس حرصاً عليها وعلى التمسك بأهدابها . ولو كانوا يؤمنون حقيقة بأن الدار الآخرة لهم ، كما أشارت الآية[٦٦] من نفس السورة - حسب زعمهم بألسنتهم- لتمنوا الموت ، وما كانوا أحرص الناس على حياة .

وتنكر (حياة) للإطلاق ، أى أحرص الناس على أية حياة ، وإن كانت ذليلة ، فهى عندهم خير من الموت ، كيفما كانت .

كذلك فهم أشد حرصاً على الحياة من الذين أشركوا ، ولم يؤمنوا بالله ، ولا باليوم الآخر ، وخصوا بالذكر بعد اندراجهم فى الناس، لأنهم لا يؤمنون بحياة أخرى بعد هذه الحياة ، ويقولون "إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين"[٦٦]، فجئ بهم لتأكيد حرص اليهود على الحياة الدنيا [٦٧].

وفى هذا توبيخ عنيف لليهود ، لأنهم إذا زاد حرصهم على -الحياة - وهم أهل كتاب مفروض أن يؤمنوا بالآخرة - على حرص الناس جميعاً ،

حتى الذين لا يعرفون إلا الحياة الدنيا ولا يصدقون ببعث ولا نشــور – كـانوا جديرين بأعظم التوبيخ .

وهم ليسوا أحرص الناس فحسب ، بل أحـرص كذلـك مـن المشـركين ! وقد بلغ من شدة غلوهم فى الحرص على الحياة ، أن الواحد منهـم يتمنـى أن يعيش السنين الكثيرة ولو تجاوزت الحد الذى يبلغه الإنسان فى العادة ، فكلمة (ألـف سـنة)كنايـة عـن المـدة الطويلـة التـى يـود أن يحياهـا ، وليــس المــراد خصوص العدد ، لأن العرب تذكر الآف وتريد الكثرة [٦٨].

وإنما يودون أن يبقوا فى الدنيا ، لأنهم يرون أنهـا – علـى مـا فيهـا مـن منغصات – خير من الآخرة لما يتوقعون من سخط الله وتعذيبه لهم على مـا أسلفوا من كفر وعصيان .

ويدفع الحرص الشديد على الدنيا والتكالب عليها إلى الخوف من المـوت خوفاً يبث الجبن فى النفس ، ومن هنا تجئ الآيات التالية التى تحكى كيف أن موسى عليه السلام لما أمرهم بأن يدخلوا أرض فلسطين كانت إجابتهم:

"قالوا يا موسى إن فيها قومـاً جبـارين ، وإنـا لـن ندخلهـا حتـى يخرجـوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم اللـه عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا مـا دامـوا فيهـا، فـاذهب أنـت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فـافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها محرمة عليهـم أربعيـن سـنة يتيهـون فـى الأرض، فلا تأس على القوم الفاسقين"[٦٩] .

إن هـذه الآيـات تصـور لنـا جبلـة اليهـود علـى حقيقتهـا ، مكشــوفة بــلا حجاب. إن الخطر ماثل قريب ، ومن ثم لا يعصمهم منه حتى وعد اللـه لهم بأنهم أصحاب هذه الأرض ، وأن اللـه كتبهـا لهـم – إذا الـتزموا بشـروطه – فهم يريدونه نصرا رخيصاً ، لا ثمن له ، ولا جهد فيه . ولكن تكاليف النصر ليست هكذا كما تريدها يهود، وهى فارغة القلوب من الإيمان .

لكن الآيات تبرز قيمة الإيمان بالله والخوف منه ، فهذان رجلان من الذين يخافون الله ، ينشئ الخوف من الله استهانة بالجبارين ويرزقهما شجاعة فى وجه الخطر الموهوم وهذان هما يشهدان بقولتهما هذه بقيمة الإيمان فى ساعة الشدة ، وقيمة الخوف من الله فى مواطن الخوف من الناس، فالله عز وجل لا يجمع فى قلب واحد بين مخافتين ، مخافته – سبحانه وتعالى – ومخافة الناس ، والذى يخاف الله لا يخاف أحدا بعده ، ولا يخاف شيئا سواه .

ومع ذلك فهم لا يستجيبون ! بل يدفعهم الجبن إلى وقاحة واضحة :" فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون" ! فكأن الله عز وجل ليس بربهم ، ولم لا ؟ ذلك أن ربوبيته ستكلفهم القتال [٧٠].

٨- عدم الإلتزام بحرمة ما حرم الله :

إذ تشير آيات من القرآن الكريم إلى أن بنى اسرائيل لم يلتزموا بما حرم الله عليهم وإنما استحلوه لضعف إيمانهم وفساد إيمانهم وفساد أخلاقهم ، ومن أوضح الأدلة على ذلك قصة أصحاب السبت[٧١].

ملخص هذه القصة أن الله سبحانه وتعالى ، أخذ على بنى إسرائيل عهداً بأن يتفرغوا لعبادته فى يوم السبت وحرم عليهم فيه الاصطياد دون سائر الأيام ، وقد أراد –عز وجل– أن يختبر استعدادهم للوفاء بعهودهم ، فابتلاهم بتكاثر الحيتان فى يوم السبت دون غيره ، فكانت تتراءى لهم على الساحل فى ذلك اليوم سهلة المأخذ ، يمكن اصطيادها ، فقالوا : لوحفرنا إلى جانب هذا البحر الذى يزخر بالأسماك يوم السبت حياضا تنساب إليها المياه فى ذلك اليوم ثم نصطادها من تلك الحياض فى يوم الأحد وما بعده ، وبذلك نجمع بين احترام ما عهد إلينا فى يوم السبت وبين ما تشتهيه أنفسنا من الحصول على تلك الحيتان ، فنصحهم فريق منهم بأن ذلك يكون امتثالا ظاهرياً . لأوامر الله ، ولكنه فى حقيقته فسوق عما أمر الله به فى يوم السبت من ترك الصيد فيه ، فلم يعبأوا بذلك ، ونفذوا تلك الحيلة فغضب الله عليهم .

قال سبحانه وتعالى :"واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون . لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون . وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديداً ، قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون : فلما نسوا ما ذكروا به ، أنجينا الذين ينهون عن السوء، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون"(٧٢).

لقد كان بنو اسرائيل قد طلبوا أن يجعل لهم يوم راحة يتخذونه عيداً للعبادة ، ولا يشتغلون فيه بشؤون المعاش ، فجعل لهم يوم السبت، ثم كان الابتلاء ليربيهم الله ويعلمهم كيف تقوى إرادتهم على المغريات والأطماع ، وكيف ينهضون بعهودهم حين تصطدم بهذه المغريات والأطماع ، وكان ذلك ضروريا لبنى اسرائيل الذين تخلخلت شخصياتهم وطباعهم بسبب الذل الذى عاشوا فيه طويلاً ، ولابد من تحرير الإرادة بعد الذل والعبودية لتعتاد الصمود والثبات ، فضلا على أن هذا ضرورى لكل من يحملون دعوة الله ، ويؤهلون لأمانة الخلافة فى الأرض . وقد كان اختبار الإرادة والاستعلاء على الإغراء هو أول اختبار وجه من قبل إلى آدم وحواء ، فلم يصمدا له واستمعوا لاغراء الشيطان بشجرة الخلد وملك لا يبلى ، ثم ظل هو الاختيار الذى لابد أن تجتازه كل جماعة قبل أن يأذن لها بأمانة الاستخلاف فى الأرض ، إنما يختلف شكل الابتلاء ، ولا تتغير فحواه(٧٣).

ولم يصمد فريق من بنى اسرائيل فى هذه المرة للابتلاء الذى كتبه الله عليهم بسبب ما تكرر قبل ذلك من فسوقهم وانحرافهم .

٩- الحقد على الآخرين :

إذ عمرت قلوب بنى اسرائيل بالكراهية والحقد على غيرهم وتمنى زوال ما أنعم الله على هؤلاء بخير حصدوه نتيجة كدهم وجهدهم ، فكأن بنى اسرائيل من فرط ما بلغوه من أنانية وغرور يريدون أن يختصوا هم وحدهم بالخيرات !

يقول سبحانه وتعالى: "ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم "[٧٤].

فهنا يقول تعالى للمذنبين إن هؤلاء الذين علمتم شأنهم مع أنبيائهم حسدة لا يلتفت إلى تكذيبهم ولا يبالى بعدوانهم ، ولا يضركم كفرهم وعنادهم ، فهم لحسدهم لا يودون أن ينزل عليكم أدنى خير من ربكم ، والقرآن الكريم أعظم الخيرات ، لأنه النظام الكامل ، والفضل الشامل ، والهداية العظمى ، والآية الكبرى ، جمع به شملكم ، ووصل حبلكم ، ووحد شعوبكم وقبائلكم ، وطهر عقولكم من نزعات الوثنية ، وزكى نفوسكم من أدران الجاهلية ، وأقامكم على سنن الفطرة وشرع لكم الحقيقة السمحة ، فكيف لا يحرق الحسد عليه أكبادهم ويخرج أضغانهم عليكم وأحقادهم؟[٧٥].

وفى آية أخرى يقول عز وجل :'ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ، إن الله على كل شئ قدير "[٧٦].

فقد بين الله فى هذه الآية أن أهل الكتاب المتعصبين لدينهم – وخاصة اليهود – باستقراء سلوكهم مع النبى صلى الله عليه وسلم ومن استظل بمظلة الإسلام ، لم يكتفوا بكفرهم بالنبى والكيد له ونقض ما عاهدهم عليه حسداً له ولقومه على نعمة النبوة ، بل هم يزيدون على ذلك ما قصه تعالى فى الآية ، فهو بيان لما يضمرونه وما تكنه صدورهم للمسلمين من الحسد على نعمة الإسلام التى عرفوا أنها الحق وأن وراءها السعادة فى الدارين ، ولكنهم شق عليم أن يتبعوهم فتمنوا أن يحرموا هذه النعمة ويرجعوا كفاراً كما كانوا ، وذلك شأن الحاسد يتمنى أن يسلب محسوده النعمة ولو لم تكن ضارة به ، فكيف إذا كان يعلم أن تلك النعمة إذا تمت وثبتت يكون من أثرها سيادة المحسود عليه وإدخاله تحت سلطانه ، كما كان علماء يهود يتوقعون فى عصر التنزيل [٧٧].

١٠- معاندة الحق :

يقول عز من قال :" ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل . وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس . أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون؟"(٧٨).

ينعت الله تبارك وتعالى بنى إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء وأنهم إنما يتبعون أهواءهم ، فذكر الله أنه آتى موسى الكتاب وهو التوراة فحرفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها وأولوها ، وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته ، ومن هؤلاء النبيين والرسل : يوشع وداود وسليمان ، وعزير ، وإلياس ، واليسع ، ويونس ، وزكريا ، ويحيى - عليهم السلام ، ثم ختم أنبياء بنى اسرائيل بعيسى ابن مريم فجاء بمخالفة التوارة فى بعض الأحكام ولهذا أعطاه الله من البنيات وهى المعجزات ، قال ابن عباس : منها : إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، وإبراء الأسقام ، وإخباره بالغيوب ، وتأييده بروح القدس (وهو جبريل عليه السلام) ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به ، فاشتد تكذيب بنى اسرائيل له وحسدهم وعنادهم لمخالفة التوارة فى البعض كما قال الله إخباراً عن عيسى (ولأحل لك بعض الذى حرم عليكم وجئتك بآية من ربكم ...) فكانت بنو اسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة ، ففريقا يكذبونه ، وفريقاً يقتلونه ، وما ذاك إلا لأنهم يأتون بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم وبالإلزام بأحكام التوراة التى قد تصرفوا فى مخالفتها، فلهذا كان ذلك يشق عليهم فكذبوهم وربما قتلوا بعضهم (٧٩).

وإصرار اليهود على العناد والكفر ، وعدم الإستماع إلى ما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم معللين عدم إيمانهم ، بأن قلوبهم مغشاة بأغطية لا ينفذ منها إلى قلوبهم ما جاء به - صلوات الله عليه - حتى تفقهه عقولهم، على حد قول مشركى مكة "قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب"(٨٠) ، يعنون أن قلوبهم ليس فيها استعداد لقبول ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد كذبوا ، فإنه دين الفطرة ، فلو

تركوا فطرتهم - كما خلقت عليه - لقبلته وآمنت به ، ولكنهم أساءوا الاختيار ، ففسدت فطرتهم[٨١].

ومن هنا يأتي قوله عز وجل : "وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون"[٨٢].

ويصور سبحانه وتعالى فى آيات أخرى معاندة بنى اسرائيل للحق ، فيقول :

"بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين . وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم ، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين"[٨٣].

لقد كان اليهود ينتظرون بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما جاءهم أنكروه واستبدلوا بالإيمان الذى هيأ الله لهم أسبابه ليسعدوا ، استبدلوا به الكفر الذى يؤدى بهم إلى الشقاء الدائم ، وآثروه عليه ، فكان اختيارهم الكفر على الإيمان ، بمنزلة بيع أنفسهم بالكفر إلى النار[٨٤].

١١- السير على طريق الوهم:

وفى الوقت الذى يعاند فيه بنو اسرائيل الحق وينكرونه ، إذا بهم يقعون أسرى النهج الخرافى الذى جعلهم يسيرون على طريق الأوهام من سحر وانقياد للشيطان ، يقول سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز:" ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد

إلا بإذن الله. ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم . ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون. ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خيراً لو كانوا يعلمون"(٨٥).

قال الشيخ محمد عبده أن ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم أنهم طرحوه برمته وتركوا التصديق به فى جملته وتفصيله ، وإنما المراد أنهم طرحوا جزءاً منه وهو ما يبشر بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ويبين صفاته ويأمرهم بالإيمان به وتتباعه ، أى فهو تشبيه لتركهم إياه وإنكاره بمن يلقى الشئ وراء ظهره حتى لا يراه فيتذكره وترك الجزء منه كتركه كله ، لأن ترك البعض يذهب بحرمة الوحى من النفس ويجرئ على ترك الباقى(٨٦).

وفى الآيات إخبار من الله تعالى عن الطائفة الذين نبذوا الكتاب بأنهم اتبعوا السحر أيضا ، وهم اليهود .

وقد ألقت الشياطين إلى بنى آدم أن ما فعله سليمان عليه السلام من معجزات كان سحراً ، وفى قوله تعالى (وما كفر سليمان) تبرئة من الله لسليمان ، ولم يتقدم فى الآية أن أحداً نسبه إلى الكفر ، ولكن اليهود نسبته إلى السحر ، ولما كان السحر كفراً صاروا بمنزلة من نسبه إلى الكفر (٨٧).

وقال الشيخ محمد عبده فى قوله تعالى (يعلمون الناس السحر وجهان! أحدهما ، أنه متصل بقوله (ولكن الشياطين كفروا) ، أى أن الشياطين هم الذين يعلمون الناس السحر .

(والثانى) ، وهو الأظهر أنه متصل بالكلام عن اليهود وأن الكلام فى الشياطين قد انتهى عند القول بكفرهم ، وانتحال اليهود لتعليم السحر أمر كان مشهوراً فى زمن التنزيل(٨٨) .

ويبين سبحانه وتعالى فى هذه الآيات مآل أولئك اليهود التاركين للحق المتبعين للباطل (ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق) أى :ولقد علم أولئك اليهود الذين نبذوا تعاليم كتابهم واتبعوا السحر أن من استبدل

السحر بكتاب الله ليس لـه حظ من الجنـة ، لأنـه قد اختـار الضـلال وتـرك الهدى ، وعلمهم مرجعـه إلـى أن التـوراة قد حرمـت عليهـم تعلـم السـحر أو تعليمه للأذى والضرر ، وشددت العقوبـة علـى مرتكبـه ، وعلـى متبـع الجـن والشيطان والكهان[٨٩] . فالضمير فى (علموا) يعـود إلـى أولئك اليهـود الذيـن تركوا كتاب الله واستبدلوا به السحر .

والإشتراء هو اكتساب شئ ببذل غيره ، والمراد أنهم اكتسبوا السـحر الذى تتلوه الشياطين بعد أن بذلوا فى سبيل ذلك إيمـانهم ونصيبهم مـن الجنـة وغدوا مفلسين من حظوظ الآخرة لإقبالهم على التمويه والكـذب ، واستبدالهم الذى هو أدنى بالذى هو خير .

وأكد سبحانه -علمهم بضرر السـحر بقولـه (ولقد علمـوا ....) للإشـارة إلى إلى أن اختيارهم للسحر لم ينشأ عن جهلهم بضـرره ، وإنمـا هـم الذيـن اختاروه ومالوا إليه متعمدين وعالمين بعاقبته السيئة[٩٠].

١٢- الإفساد فى الأرض :

وقال سبحانه وتعالى :"وقضينا إلى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسـدن فـى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيرا . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنـا عليكم عبـاداً لنا أولى بأس شديد ، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا ، ثم رددنـا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلهـا فـإذا جـاء وعـد الآخـرة ليسـوءوا وجوهكم وليدخلـوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا . عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا"[٩١].

وهذه الحلقـة مـن سيرة بنـى اسـرائيل لا تذكـر فـى القـرآن إلا فـى هـذه السورة ، وهى تتضمن نهاية بنى اسرائيل التى صاروا إليها ، ودالت دولتهـم بها ، و تكشف عن العلاقة المباشرة بين مصـارع الأمم وفشو الفساد فيها[٩٢].

والقضاء المشار إليه فى بدء الآيات ، هو إخبار من الله تعالى لهم بما سيكون منهم حسب ما وقع فى علمه الإلهى من مآلهم ، لا أنه قضاء قهرى عليهم ، تنشأ عنه أفعالهم . فالله سبحانه وتعالى لا يقضى بالإفساد على أحد "قل: إن الله لا يأمر بالفحشاء ، إنما يعلم الله ما سيكون علمه بما هو كائن ، فما سيكون – بالقياس إلى علم الله – كائن، وإن كان بالقياس إلى علم البشر لم يكن بعد ، ولم يكشف عنه النقاب (٩٣).

ولقد قضى الله لبنى اسرائيل فى الكتاب الذى آتاه موسى أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين ، وأنهم سيعلون فى الأرض ويسيطرون ، وكلما ارتفعوا فاتخذوا الارتفاع وسيلة للإفساد سلط عليهم من عباده من يقهرهم ويستبيح حرماتهم ويدمرهم تدميراً .

وتتكرر إشارات القرآن إلى إفساد اليهود فى الأرض فيقول سبحانه وتعالى :

"... ويسعون فى الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين"(٩٤)

ومن هنا فهو ينصح لهم :"... ولا تعثوا فى الأرض مفسدين"(٩٥).

ذلك أن اليهود من عاداتهم أنهم يسعون فى الأرض فساداً ويجتهدون فى الكيد للإسلام والمسلمين فى عقائدهم ، وإثارة الفتن بينهم ، والله عز وجل لا يحب المفسدين ، بل يبغضهم ولا يصلح عملهم لأنهم يريدون أن يبطلوا حكمته فى صلاح الناس وعمران الأرض .

ومن صور إفساد اليهود فى الأرض أنهم جادلوا النبى صلى الله عليه وسلم فى شأن الألوهية ، وفى الملائكة ، وفى النسخ ، وفى تحويل القبلة ، وفى عيسى ، وفى إبراهيم – عليهما السلام – كما جادلوه فى شأن نبوته ولم يكن مقصدهم من وراء هذه المجادلات الوصول إلى الحق دائما ، وإنما كان مقصدهم إثارة الفتنة بين المسلمين وزعزعة العقيدة الإسلامية فى نفوسهم(٩٦).

ولعل هذا السعى الدائم من اليهود للإفساد فى الأرض هو أحد الأسباب التى تفسر توجه الله عز وجل إلى أن ينزل بهم أشد عقاب ، يقول سبحانه وتعالى وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب، إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم . وقطعناهم فى الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون"[٩٧].

هنا يعلن سبحانه وتعالى اللعنة الأبدية بما انتهى إليه أمرهم بعد فترة من المعصية التى لا تنتهى ، وصدرت المشيئة الإلهية بالحكم الذى لا راد له ولا تعقب عليه . إنه إذن الأبد الذى تحقق منذ صدوره، فبعث الله على اليهود فى فترات من الزمان من يسومهم سوء العذاب ، والذى سيظل نافذا فى عمومه ، فيبعث الله عليهم بين آونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب ، وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغوا فى الأرض وبغوا ، جاءتهم الضربة ممن يسلطهم الله من عباد على هذه الفئة الباغية النكدة العاصية ، التى لا تخرج من معصية إلا لتقع فى معصية، ولا تثوب من انحراف حتى تجنح إلى انحراف[٩٨].

ولقد يبدو أحيانا أن اللعنة توقفت ، وأن يهود قد عزت واستطالت وإن هى إلا فترة عارضة من فترات التاريخ .. ولا يدرى إلا الله من ذا الذى سيسلط عليهم فى الجولة التالية ، وما بعدها إلى يوم القيامة !

وتجئ آيات أخرى ليقول فيها عز وجل :

"فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصددهم عن سبيل الله كثيرا ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما"[٩٩].

أى ، فإذا كان هؤلاء اليهود قد استحقوا بظلم ما ظلموا به أنفهسم أن نحرم علهم طيبات كانت قد أحلت لهم ولمن قبلهم فحرمناها عليهم عقوبة وتربية لهم ، لعلهم يرجعون عن ظلمهم ، فكيف لا يستحقون أكبر الخزى والنكال فى الدنيا والآخرة بنقضهم ميثاق ربهم ، وقتلهم لأنبيائه ورسله ، وكفرهم بالمسيح وبهتهم لأمه ، وتبجحهم بدعوى قتله وصلبه ؟ فتعليل تحريم

الطيبات عليهم بظلم مبهم منهم ، وبما ذكر بعده من المعاصى عطفاً عليه زائدا عنه ، أو بياناً له - يدل على العقاب العظيم والخزى الكبير الذى يستحقونه على نقض الميثاق الأكبر (١٠٠).

كذلك أكد سبحانه وتعالى على أنه "ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون" (١٠١).

ويجرى مجرى هذه الآية قوله عز وجل أيضا " وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون " (١٠٢) .

ويقول الشيخ محمد عبده فى تفسير هذه الآيات أن ذلك الذل واستحقاقهم غضب الله إنما لزماهم لأنهم عصوا الله فيما أمرهم أن يأخذوا به من الأحكام ولأنهم اعتدوا تلك الحدود التى حدها الله لهم فى شرائع أنبيائهم ، وقد كانت تلك الأحكام والحدود هى الوسيلة لإخراجهم من الذل وتمكين العز والسلطان لهم فى الأرض الموعودة لأنها كانت الكافلة بنظامهم ، الحافظة لبناء جماعتهم ، فإذا أهملوها انهدم بناؤهم وأسرعت إليهم الذلة التى لا تفارقهم إذ لزمتهم مع المسكنة لزوم الطابع للمطبوع(١٠٣).

١٣- ادعاءات كاذبة :

فلقد زعموا لأنفسهم امتيازات وأموراً غير حقيقية ، فكان أن حرص القرآن الكريم على إبراز هذه المزاعم ودحضها ، فمن ذلك ما نجده فى قوله عز وجل: "وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ، قل أتخذتم عند الله عهداً، فلن يخلف الله عهده ، أم تقولون على الله ما لا تعلمون . بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئتة فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون"(١٠٤) .

فقد روى عن ابن عباس أن اليهود كانوا يقولون أن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذب بكل ألف سنة يوماً فى النار وإنما هى سبعة أيام معدودة ، فأنزل الله هذه الآية . وقال آخرون عنهم أنهم زعموا أنهم سوف يعذبون أربعين ليلة فقط هى مدة عبادتهم للعجل(١٠٥).

إن مثل هذا القول الذى ادعوه لا يكون حقيقة إلا بعهد من الله تعالى مالك يوم الدين والجزاء ، وإلا كان افتئاتا عليه سبحانه ، وقولاً عليه بغير علم ، وهذا ما رد به عليهم ، ولله الحجة البالغة ، وأمر رسوله أن يخاطبهم متسائلا: هل عهد الله إليكم ذلك ووعد به فكان حقا لكم عنده ، لأن الله لا يخلف عهده؟ وقال ابن جرير وبعض المفسرين معناه : هل اتخذتم عند الله عهدا باتباع شريعته اعتقاداً وائتمارا وانتهاء وتخلقا فأنتم واثقون بعهد الله فى كتابه لمن كان كذلك بالنجاة من النار ودخول الجنة ومغفرة ما عساه يفرط منه من السيئات أو العقوبة عليه مدة قصيرة؟ (١٠٦).

والاستفهام للإنكار ، أى لستم على عهد من الله تعالى ، ولذلك كذبهم . وهكذا يجئ معنى الآية أن الأمر ليس كما يدعى اليهود من أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة ، بل الحق أنهم سيخلدون فيها ، فكل من كسب شركاً منهم ، واستولت عليه خطاياه ، وأحاطت به كما يحيط السرادق بمن فى داخله ، ومات على ذلك دون أن يدخل الإيمان قلبه ويتوب إلى ربه فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون(١٠٧).

ومما زعمه اليهود كذلك أن طريقهم هو طريق الحق مما دفعهم إلى أن زعموا أن من لم يتبع ملتهم فقد ضل سواء السبيل ، وهنا جاء قوله عز وجل:

"وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا . بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل

ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم" (١٠٨).

قال محمد بن إسحق فيما روى عن عباس قال : قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد (وقال نصارى مثل ذلك) فأنزل الله الآية . وقوله (قل بل ملة إبراهيم حنيفاً) أى مستقيماً (١٠٩).

وأرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم مفصلاً ، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً ، ونص على أعيان من الرسل وأجمل ذكر بقية الأنبياء وأن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم .

وزعم يهود أن الذنوب التى فعلوها والآثام التى اقترفوها سوف يغفرها الله لهم ويعفوا عنهم باعتبارهم شعبه المفضل !!

ويحكى القرآن ذلك فيقول :" فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويقولون سيغفر لنا ، وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه . ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ، ودرسوا ما فه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون" (١١٠) .

فصفة هذا الخلف الذى جاء بعد ذلك السلف من قوم موسى ، أنهم ورثوا الكتاب ودرسوه .. ولكنهم لم يتكيفوا به ولم تتأثر به قلوبهم ولا سلوكهم، شأن العقيدة حين تتحول إلى ثقافة تدرس وعلم يحفظ ، وكلما رأوا عرضا من أعراض الحياة الدنيا تهافتوا عليه ، ثم تأولوا وقالوا :'سيغفر لنا"، وهكذا كلما عرض لهم من أعراض الدنيا جديد تهافتوا عليه من جديد!

ومع ذلك .. ألم يؤخذ عليهم ميثاق الله فى الكتاب ألا يتأولوا ولا يحتالوا على النصوص ، وألا يخبروا عن الله بالحق ، فما بالهم يقولون "سيغفر لنا" ويتهافتون على أعراض الحياة الدنيا ويبررون لأنفسهم هذا بالتقول على الله

وتأكيد غفرانه لهم ، وهم يعلمون أن الله إنما يغفر لمن يتوبون حقا ، ويقلعون عن المعصية حقا ، وليس هذا حالهم ، فهم يعودون كلما رأوا عرضاً من أعراض الحياة الدنيا ،وهم درسوا هذا الكتاب وعرفوا ما فيه . لكن الدراسة لا تجدى ما لم تخالط السلوك ، وكم من دارسين للدين وقلوبهم عنه بعيدة ، إنما يدرسونه ليتأولوا ويحتالوا ، ويحرفوا الكلم عن مواضعه ، ويجدوا المخارج للفتاوى المغرضة التى تنيلهم عرض الحياة الدنيا(١١١).

ومن مزاعمهم المزيفة كذلك قولهم أن من كان على غير معتقدهم ، يستباح سلب ماله دون خوف من عقاب ، وليس هناك التزام بمراعاة حقوقه، وعن ذلك يقول سبحانه وتعالى :

"ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا مادمت عليه قائما، ذلك بأنهم قالوا: ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . بلى من اوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين "(١١٢).

فهذا بيان حال بعض من أهل الكتاب وهم اليهود ، فالمبرر الذى يستندون إليه فى الاعتداء على حقوق الغير قولهم أن ليس عليهم فى أكل أموال الأميين (أى العرب) تبعة ولا ذنب ، فكان يقول : إن استحلال هذه الخيانة جاءهم من الغرور بشعبهم والغلو فى دينهم ، فإن ذلك يستتبع احتقار المخالف احتقاراً يهضم به حقه الثابت فى المعاملة . قال الشيخ محمد عبده(١١٣) ، كأنهم يقولون إن كل من ليس من شعب الله الخاص وليس من أهل دينه فهو ساقط من نظر الله ومبغوض عنده ، فلا حقوق له ولا حرمة لما له فيحل أكله متى أمكن ، وقد رد الله عليه هذه المزاعم بقوله :"يقولون على الله الكذب وهم يعلمون" . إن ذلك كذب عليه لأن ما كان منه فهو ما جاء فى كتابه وليس فى التوراة التى عندهم إباحة خيانة الدين وأكل أمواله بالباطل وهم يعلمون أن ذلك ليس فيها ، ولكنهم لا يأخذون الدين من الكتاب ، وإنما لجأوا إلى التقليد فعدوا كلام أحبارهم دينا ينسبونه إلى الله ، وهؤلاء

يقولون فى الدين بآرائهم ويحرفون الكلم عن مواضعه ليؤيدوا بذلك أقوالهم ، فكل هذه الدواهى جاءتهم من هذه الناحية .

ويختم سبحانه وتعالى قوله بأن محبته لعبده تتوافر بأمرين :

أولهما: الوفاء بالعهد ، فكل ما يلتزمه الإنسان من عهود فالوفاء بها واجب ، وفى مقدمة هذه العهود ، العهد الذى أخذه الله على عباده بتوحيده .

ثانيهما: تقوى الله ، بمعنى أن يجتنب ما نهى الله عنه وحرمه عليه ولا يفعل إلا ما أحله الله وقد خلا اليهود من هذه الأمرين !

١٤- ملعونون من الله :

إن كل هذه الأفعال والصفات والأخلاقيات كان لابد أن تحول بنى اسرائيل من "شعب الله المختار" ، إلى فئة تستحق لعنة من الله يعلنها فى كثير من آيات القرآن الكريم :

- "يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمرا لله مفعولا" (١١٤).

وطمس الوجوه ، إزالة معالمها المميزة لآدميتها ، وردها على أدبارها ، دفعها لأن تمشى القهقرى . وقد يكون المقصود هو التهديد بمعناه المادى الذى يفقدهم آدميتهم ويردهم يمشون على أدبارهم ، ويكون كذلك اللعن الذى أصاب أصحاب السبت (وهم الذين احتالوا على صيد السمك يوم السبت ، وهو محرم عليهم فى شريعتهم) ، هو مسخهم بالفعل قردة وخنازير .. كما قد يكون المقصود طمس معالم الهدى والبصيرة فى نفوسهم وردهم إلى كفرهم وجاهليتهم ، قبل أن يؤتيهم الله الكتاب ، والكفر بعد الإيمان ، والهدى بعد الضلال ، طمس للوجوه والبصائر (١١٥) .

- "فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ..." (١١٦) .

ثم تطاردهم لعنة الله ، بل قل ، تحيط بهم وكأنها (قدر) كتب عليهم بفعلهم الملتوى وبسلوكهم المنحرف ، ويصبحون أصحاب قلوب غليظة ومشاعر قاسية ناضبة من مشاعر الرحمة ومهما حاولوا - مكراً - إبداء اللين فى القول عند الخوف وعند المصلحة ، والنعومة فى الملمس عند الكيد والوقيعة ، فإن جفاف الملامح والسمات ينضح ويفضح جفاف القلوب !

- "إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعدما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون"[١١٧].

فهذه الآية تشير إلى معاداة النبى ومعاندته من الكفار عامة ومن اليهود خاصة ، فقد بين الله أنهم لم يقتصروا على كتمان الشهادة للنبى صلى الله عليه وسلم بالتأويل بل كتموا ما فى الكتاب من الهدى والإرشاد بضروب التأويل أيضا حتى أفسدوا الدين وانحرفوا بالناس عن صراطه ، وذكر جزاءهم ألا وهو لعنة الله ولعنة اللاعنين . أما لعن الله لهم فهو حرمانهم من رحمته الخاصة بالمؤمنين فى الدنيا والآخرة ، أما لعن اللاعنين ، فقد فصل فئاتهم فى نفس السورة(آية١٦١) وهم الملائكة والناس أجمعين ، والمغزى فى ذكر لعنة الملائكة والناس مع أن لعنة الله وحده كافية ، هى بيان أن جميع من يعلم حالهم من العوالم العلوية والسفلية يراهم محلاً للعنة الله ومقته، فلا يرجى أن يرأف بهم رائف ، ولا أن يشفع لهم شافع لأن اللعنة صبت عليهم باستحقاق عند جميع من يعقل ويعلم ، ومن حرمه سوء سعيه رحمة الرءوف الرحيم ، فماذا يرجو من سواه [١١٨]؟

- "لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ، ولكن كثيرا منهم فاسقون"[١١٩].

وهكذا يبدو أن تاريخ بنى اسرائيل فى الكفر والمعصية واللعنة عريق ، وأن أنبياءهم الذين أرسلوا لهدايتهم وإنقاذهم ، هم فى النهاية الذين تولوا

لعنتهم وطردهم من هداية الله ، فسمع الله دعاءهم وكتب السخط واللعنة على بنى اسرائيل . والذين كفروا من بنى اسرائيل هم الذين حرفوا كتبهم المنزلة، وهم الذين لم يتحاكموا إلى شريعة الله ، وهم الذين نقضوا عهد الله معهم لنصر كل رسول ويعزرونه ويتبعونه .

ولم تكن المعصية والاعتداء أعمالا فردية فى مجتمع بنى اسرائيل ، ولكنها انتهت إلى أن تصبح طابع الجماعة ، وأن يسكت عنها المجتمع ، ولا يقابلها بالتناهى عن المنكر [١٢٠] ، إن العصيان والعدوان قد يقعان فى كل مجتمع من الشريرين المفسدين المنحرفين ، فالأرض لا تخلو من الشذوذ والمجتمع لا يخلو من الشذوذ ، ولكن طبيعة المجتمع الصالح لا يسمح للشر والمنكر أن يصبحا عرفاً مصطلحاً عليه ولا أن يصبحا سهلاً يجترئ عليه كل من يهم به .. وعندما يصبح فعل الشر أصعب من فعل الخير فى مجتمع من المجتمعات ، ويصبح الجزاء على الشر رادعاً وجماعياً ، تقف الجماعة كلها دونه ، وتوقع العقوبة الرادعة عليه ، عندئذ ينزوى الشر ، وتنحسر دوافعه [١٢١].. ولم يكن هذا قائماً فى بنى اسرائيل .

وبعد ..

تلك هى تربية بنى اسرائيل

وقصة هذه التربية رغم أن معظمها جرى قبل الميلاد ، فإن التأمل فيها جيداً يمكن أن يفسر لنا كثيراً من سلوكيات دولتهم التى قامت على أرض فلسطين ، مما لا ينفى أن ندهش معه على ممارستهم التى تنضح بالفظاظة واللاإنسانية والدموية والقسوة..

لكنها فى نفس الوقت تشعرنا بقدر غير قليل من الأسى والأسف، على أن من بيننا مازال هناك من يأمنون لهم وينتظرون منهم خيراً .. ومن بيننا من (يدهشون) إذا وقع من بنى اسرائيل المعاصرين مظاهر عنف واعتداء مصورين ذلك بأنه (تراجع) عن اتفاقات..!

تراجع عن ماذا حقيقة ؟ وأى اتفاقات؟

إن سجلهم التاريخى كله يؤكد أنهم مـا احترموا اتفاقاً ومـا ساروا على طريقة سلام إلا إذا كان الطرف الآخر هو الذى يملك القوة ، أما أن تظل مؤشرات القوة بيدهم ، فهم حفدة وخلف هؤلاء الذين حكينا قصة تربيتهم التى تنضح بالغش والغدر والخيانة والدموية ..

إن البعض قد يعتب علينا أننا حولنا العمل الحالى من وظيفته التأريخية إلى وظيفة سياسية ، ونحن بدورنا نؤكد أننا نؤمن بأن التأريخ إن لم يكن مؤدياً إلى فهم الحاضر والمساعدة فى رسم خطوط المستقبل، فلا جدوى منه.

ولعل العديد من آيات القرآن الكريم التى أثبتناها تصور لنا حقيقة هؤلاء الناس وتهدينا إلى الطريق الذى ينبغى أن نسلكه فى التعامل معهم ...

إذا ارتضينا موقف الضعف ، فلا بد أن ننتظر سوء معاملة وغطرسة وعدوان وقسوة واستغلال وغش وخداع .

أما إذا أردنا أن نأمنهم حقا ، فلابد وأن نكون الأقوى ...

كيف ؟

تلك قصة أخرى تخرج عن مهمة التأريخ!

الهوامش

١- القصص / ٥٢ - ٥٥ .
٢- آل عمران / ٩٨،٩٩ .
٣- محمد سيد طنطاوى : بنو اسرائيل فى القرآن والسنة ، جامعة البصرة ، ١٩٦٨ ج١، ص ١٥٥ .
٤- المائدة / ٤٤
٥- سيد قطب : ى ظلال القرآن ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٨٩٦ .
٦- البقرة ، ٨٣ .
٧- آل عمران / ١١٣-١١٥ .
٨- النساء/١٦٢ .
٩- آل عمران / ٩٨ - ١٠١ .
١٠- محمد رشيد رضا : تفسير المنار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ج٤ ، ص١٤ .
١١- قيلة بنت كاهل بن عذرة ، وهى أم الأوس والخزرج .
١٢- شابة فتية ، يقصد أن تعود الحرب قوية كما كانت .
١٣- تفسير المنار ، ج٤ ، ص ١٥ .
١٤- محمد سيد طنطاوى ، ج١ ، ص٢٦٨ .
١٥- تفسير ابن كثير ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، ج١ ، ص ٣٨٨ .
١٦- آل عمران / ٧١ .
١٧- تفسير ابن كثير ، ج١ ، ص ٣٧٤ .
١٨- محمد سيد طنطاوى ، ج١ ، ص ٢٧٣ .
١٩- تفسير المنار ، ج٣ ، ص ٢٧٥ .

٢٠- قال بعض اللغويين أصله الجبس ، فقلبت التاء سينا ، ومعناه فيهما الردئ الذى لا خير فيه . وأطلق على السحرو على الساحر وعلى الشيطان .
٢١- النساء / ٥١ .
٢٢- فى ظلال القرآن ، ج٢ ، ص ٦٨٠ .
٢٣- تفسير ابن كثير م١ ، ص ٥١٤ .
٢٤- المائدة / ٥٧،٥٨.
٢٥- فى ظلال القرآن ، ج٢ ، ص ٩٢٢ .
٢٦- البقرة ٤٠ - ٤٣ .
٢٧- تفسير المنار ، ج١ ، ص ٢٤١ .
٢٨- المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .
٢٩- الدخان / ٣٠ - ٣٣
٣٠- محمد سيد طنطاوى ، ج١ ، ص ٤٤٧ .
٣١- البقرة / ٤٧ .
٣٢- فى ظلال القرآن ، ج١ ، ص ٦٩ .
٣٣- البقرة / ٥٧ .
٣٤- محمد سيد طنطاوى ، ج١ ، ص ٤٧٦ .
٣٥- تفسير ابن كثير ، ج١ ، ص ٩٨ .
٣٦- البقرة ٧٥ - ٧٧ .
٣٧- مجمع البحوث الإسلامية ، التفسير الوسيط ، تأليف لجنة من العلماء ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، الحزب الثانى، ص ١١٦ .
٣٨- المرجع السابق . ص ١١٧ .
٣٩- تفسير المنار ، ج١ ، ص ٢٩٦ .
٤٠- المائدة / ٤١ .
٤١- فى ظلال القرآن ، ج٢ ، ص ٨٩٢ .
٤٢- محمد سيد طنطاوى ، ج٢ ، ص ١٠٨ .
٤٣- المرجع السابق ، ص ١٠٩ .
٤٤- تفسير ابن كثير ، ج١ ، ص ٥٠٨ .

٤٥- المائدة ، ٦٤ .
٤٦- تفسير القرطبى ، (طبعة الشعب) ، القاهرة . د.ت ، ص ٢٢٣٥ .
٤٧- فى ظلال القرآن ، م٢ ، ص ٩٢٩ .
٤٨- آل عمران ، ١٨١ ، ١٨٢ .
٤٩- تفسير ابن كثير ، م١ ، ص ٤٣٤ - ٤٣٥ .
٥٠- محمد سيد طنطاوى ، ج٢ ، ص ٣٥ .
٥١- البقرة / ٩٧ ، ٩٨ .
٥٢- تفسير المنار ، ج١ ، ص ٣٢٤ .
٥٣- المرجع السابق : ص ٣٢٥ .
٥٤- المائدة / ٧٠ ، ٧١ .
٥٥- محمد سيد طنطاوى ز ج٢ ، ص ٤٨ .
٥٦- البقرة / ٨٣ .
٥٧- التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، الحزب الثانى ، ص ١٢٤ .
٥٨- المرجع السابق . ص ١٢٥ .
٥٩- المرجع السابق ، ص ١٢٧ .
٦٠- البقرة / ٨٤ ، ٨٥ .
٦١- فى ظلال القرآن ، م١ .
٦٢- تفسير المنار ، ج١ ، ص ٣٠٩ .
٦٣- المائدة / ١٢ ، ١٣ .
٦٤- محمد سيد طنطاوى ، ج٢ ، ص ١٩ .
٦٥- البقرة / ٩٦ .
٦٦- المؤمنون / ٣٧ .
٦٧- التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، الحزب الثانى ، ص ١٤٦ .
٦٨- المرجع السابق . ص ١٤٧ .
٦٩- المائدة / ٢٢ - ٢٦ .
٧٠- فى ظلال القرآن ، ج٢ ، ص ٨٧٠ .
٧١- محمد سيد طنطاوى ، ج٢ ، ص ٥١ .
٧٢- الأعراف / ١٦٣ - ١٦٥ .

٧٣- في ظلال القرآن ، م٣ ، ص ١٣٨٣ .
٧٤- البقرة / ١٠٥ .
٧٥- تفسير المنار ، ج١ ، ص ٣٤٠ .
٧٦- تفسير المنار ، ج١ ، ص ٣٤٠ .
٧٧- البقرة / ١٠٩ .
٧٨- البقرة / ٨٧ .
٧٩- تفسير ابن كثير ، م١ ، ص ١٢٣ .
٨٠- فصلت ٥١ .
٨١- التفسير الوسيط ، الحزب الثاني ، ص ١٣٦ .
٨٢- البقرة / ٨٨ .
٨٣- البقرة / ٩٠ ، ٩١ .
٨٤- التفسير الوسيط ، الحزب الثاني ، ص ١٣٩ .
٨٥- البقرة / ١٠١ - ١٠٣ .
٨٦- تفسير المنار ، ج١ ص ٣٢٨ .
٨٧- تفسير القرطبي ، ص ٤٣١٢ .
٨٨- تفسير المنار ، ج١ ، ص ٣٣١ .
٨٩- محمد سيد طنطاوي ، ج٢ ، ص ٨٨ .
٩٠- المرجع السابق ، ص ٨٩ .
٩١- الأسراء / ٤-٨ .
٩٢- في ظلال القرآن ، م٢ ، ج٢ ٢٢١ .
٩٣- المرجع السابق ز ص ٢٢١٣ .
٩٤- المائدة / ٦٤ .
٩٥- البقرة / ٦٠ .
٩٦- محمد سيد طنطاوي / ج٢ ، ص ٣٠٦ .
٩٧- الأعراف / ١٦٧ ، ١٦٨ .
٩٨- في ظلال القرآن ، م٣ ، ص ١٣٨٦ .
٩٩- النساء / ١٦٠ ، ١٦١ .
١٠٠- تفسير المنار ، ج٦ ، ص ٤٩ .

١٠١- آل عمران / ١١٢ .
١٠٢- البقرة / ٦١ .
١٠٣- تفسير المنار ، ج١ ، ص ٢٧٦ .
١٠٤- البقرة / ٨١- ٨٣ .
١٠٥- تفسير ابن كثير ، م١ ، ص ١١٩ .
١٠٦- تفسير المنار / ج١ / ص ٣٠٠ .
١٠٧- محمد سيد طنطاوى ، ج٢ ، ص ١٩٧ .
١٠٨- البقرة / ١٣٥ - ١٣٧ .
١٠٩- تفسير ابن كثير ، م١ ، ص ١٨٧ .
١١٠- الأعراف / ١٦٩ .
١١١- فى ظلال القرآن ، م٣ ، ص ١٣٨٧ .
١١٢- آل عمران / ٧٥ ، ٧٦ .
١١٣- تفسير المنار ، ج٣ ، ص ٢٧٩ .
١١٤- النساء / ٤٧ .
١١٥- فى ظلال القرآن ، م٢ ، ص ٦٧٧ .
١١٦- المائدة / ١٣ .
١١٧- البقرة / ١٥٩ .
١١٨- تفسير المنار ، ج٢ ، ص ٤١ ، ٤٣ .
١١٩- المائدة / ٧٨ - ٨٠ .
١٢٠- فى ظلال القرآن ، م٢ ، ص ٩٥٧ .
١٢١- المرجع السابق ، ص ٩٤٨ .

فهرست

الموضوع | **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

للمؤلف

١- الفلسفة ، للصف الثالث الثانوى ، القاهرة ، وزارة التربية والتعليم ، ١٩٦٨.
٢- المجتمع المصرى فى عهد الاحتلال البريطانى ، القاهرة ، الأنجلو المصرية، ١٩٧٢ .
٣- دراسات فى التربية والفلسفة ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٧٢ .
٤- تدريس المواد الفلسفية ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٧٢ .
٥- قضايا التعليم فى عهد الاحتلال ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٧٤ .
٦- الأزهر على مسرح السياسة المصرية ، القاهرة ، دار نشر الثقافة ، ١٩٧٤ .
٧- التربية اليهودية الصهيونية ، القاهرة ، دار نشر الثقافة ، ١٩٧٤ .
٨- أصول التربية الإسلامية ، القاهرة ، دار نشر الثقافة ، ١٩٧٦ ، دار الفكر العربى ١٩٩٣ .
٩- التصور النبوى للشخصية السوية ، القاهرة ، دار نشر الثقافة ، ١٩٧٩ .
١٠- تمهيد لتاريخ التربية الإسلامية ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٧٩ .
١١- أوضاع المربين العرب ، القاهرة ، دار نشر الثقافة ، ١٩٧٩ .
١٢- التعلم الثانوى ، الواقع والمسقبل ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
١٣- نشأة التربية الإسلامية ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٧٩ .
١٤- دراسات فى اجتماعيات التربية (بالاشتراك) ، القاهرة ، دار نشر الثقافة ، ١٩٨٠ .
١٥- دراسات فى فلسفة التربية (بالاشتراك) ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨١ .
١٦- المدخل إلى العلوم التربوية (بالاشتراك) القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨١ .
١٧- دراسات فى التربية الإسلامية ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨٢ .
١٨- ديمقراطية التربية الإسلامية ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨٢ .
١٩- تجربة ثورة ٢٣ يوليو فى التعليم (بالاشتراك) القاهرة ، دار نشر الثقافة ، ١٩٨٣ .
٢٠- تطور إعداد معلم المرحلة الابتدائية (بالاشتراك) ، القاهرة ، دار النشر الثقافة، ١٩٨٣ .
٢١- الأصول السياسية للتربية (بالاشتراك) ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٨٣ .

٢٢- النبات والفلاحة والرى عند العرب ، القاهرة ، دار نشر الثقافة ، ١٩٨٣ .
٢٣- محنة التعليم فى مصر ، القاهرة ، جريدة الأهالى ، ١٩٨٤ .
٢٤- تاريخ التربية والتعليم فى مصر ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨٥ .
٢٥- معاهد التربية الإسلامية ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٨٥ .
٢٦- إنهم يخربون التعليم ، القاهرة ، جريدة الأهالى ، ١٩٨٦ .
٢٧- الفكر التربوى العربى الحديث ، الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والفنون ، ١٩٨٧ .
٢٨- بحوث فى التربية الإسلامية ، القاهرة ، مركز تنمية الموارد البشرية ، ١٩٨٧ .
٢٩- الفكر التربوى المصرى فى العصر الحديث ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨ .
٣٠- الأمن التربوى العربى ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨٩ .
٣١- هموم التعليم المصرى ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨٩ .
٣٢- هوامش السياسة المصرية ، القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٩٠ .
٣٣- اتجاهات الفكر التربوى الإسلامى ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٩١ .
٣٤- الأصول الإسلامية للتربية ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٩٢ .
٣٥- دراسات فلسفية (بالاشتراك) القاهرة ، وزارة التربية والتعليم ، ١٩٩٢ .
٣٦- مستقبل التعليم فى الوطن العربى فى القرن الحادى والعشرين ، (بالاشتراك) عمان ، منتدى الفكر العربى ، ١٩٩٢ .
٣٧- تعميم التعليم الابتدائي فى الوطن العربى (تحرير) : مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربية ، عمان ، ١٩٩١ .
٣٨- محو الأمية وتعليم الكبار فى الوطن العربى (تحرير) : مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربية ، عمان ، ١٩٩١ .
٣٩- دراسات عن التعليم فى المملكة العربية السعودية ، القاهرة ، (تحرير) ، دار نشر الثقافة ، ١٩٧٩ .
٤٠- دراسات عن التعليم فى المملكة العربية السعودية ، القاهرة ، (تحرير) ، دار الفكر العربى ، ١٩٨٦ ، جزءان .
٤١- رؤية إسلامية لقضايا تربوية ، دار الفكر العربى ،القاهرة ، ١٩٩٣ .
٤٢- التربية والحضارة فى بلاد الشرق القديم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
٤٣- مقدمة فى التاريخ للتربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥ .
٤٤- التربية فى الحضارة اليونانية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

٤٥- سقوط تربية ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٩٥ .
٤٦- نظرات فى الفكر التربوى ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ١٩٩٢ .
٤٧- فلسفات تربوية معاصرة ، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والآداب ، الكويت، سلسلة عالم المعرفة ، يونيه ١٩٦٥ .
٤٨- التربية فى الحضارة المصرية القديمة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
٤٩- التعليم فى مصر ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، نوفمبر ١٩٩٥ .
٥٠- التربية علم له أصول ، دار أخبار اليوم سلسلة كتاب اليوم الطبى ، ديسمبر ١٩٩٥.
٥١- سياسة التعليم فى مصر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
٥٢- التربية العربية فى العصر الجاهلى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
٥٣- التعليم والخصخصة ، كتاب الأهرام الاقتصادي ، القاهرة ١٩٩٦ .